
هايدي
سنوات التعلم والترحال
جوهانا سبيري
ترجمها إلى اللغة العربية
حازم قاسم حسن عن الانكليزية

هايدي سنوات التعلم والترحال
رواية أخلاقية كتبتها
جوهانا سبيري

ترجمة حازم قاسم حسن

هايدي سنوات التعلم والترحال
رواية أخلاقية كتبتها
جوهانا سبيري
ترجمة حازم قاسم حسن

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية ٢٠١١/٦/٢٣١٩

ISBN 978-9957-551-15-5 (ردمك)

الطبعة العربية الأولى ٢٠١١م

دار الجنان للنشر والتوزيع
المركز الرئيسي (التوزيع – المكتبة)
المملكة الأردنية الهاشمية
٠٠٩٦٢٧٩٦٢٩٥٤٥٧ – ٠٠٩٦٢٧٩٥٧٤٧٤٦٠
الخرطوم ٠٩١٨٠٦٤٩٨٤
ص. ب ٩٢٧٤٨٦ الرمز البريدي ١١١٩٠ عمان
E-mail:dar_jenan@yahoo.com

هايدي سنوات التعلم والترحال
رواية أخلاقية كتبتها
جوهانا سبيري

ترجمة

حازم قاسم حسن

كلمة البدء

الأطفال رؤية مستقبلية للغد. وجيلا يستحق العناية به ورفعه إلى أسمى وأرقى المراتب كونه الجيل القادم الذي يمثل الحياة الجديدة. الأطفال بداية جديدة لحياة لم نعشها أو حياة افتقدناها. لذا ينصب تركيزنا على تلك الفئة كونها تمثل ما حلمنا في انجازه ولكن فاتنا قطار العمر وتجاوزنا تلك اللحظة التي بدأنا بإنجاز حلم أخر وأخطأنا في تقديره فخسرنا بعضا من تلك الأحلام.

والأدب خير وسيلة في جعل الطفل يسير وفق خطة مدروسة وموضوعة بعناية في رسم المستقبل الزاهر له. لذا يعتبر أدب الطفل من التقسيمات الأدبية المهمة والحساسة والصعبة جدا. فقد نجح الكثير في أدب الكبار والبالغين ولكن القليل فقط استطاع أن يجتاز الاختبار القاسي في إخراج القطعة الفنية المميزة والناجحة للأطفال. عبر السنين استطاعت بعضا من الأسماء في رسم أدبا للطفل استطاع أن يخلد من بين ذلك الركام الهائل من الأصناف الأدبية الأخرى. كارلو كولودي، مارك توين، أوسكار وايلد، فرانك بوم، لويس كارول، تشارلس ديكنز، تولكين، ورولينغ كلها أسماء نجحت في رسم الصورة المذهلة والممتعة في أدب الأطفال ونجحت في توجيه أجيال كثيرة نحو المكان الصحيح.

ترجمنا قطعة فنية نادرة تنتمي إلى أدب الطفل كوننا أمنا فعلا بدور هذا الأدب القدير في بناء الشخصية للطفل وبناء الفكر الواعي والمميز للخير والشر والابتعاد عن كافة الرذائل والتمسك بالفضائل التي يمثلها الشخصيات المرسومة في هذا الأدب لتجعل من الطفل يفكر مليا في التصرفات التي تقود الإنسان إلى الوصول إلى الغاية النهائية والهدف النهائي وترك تلك الأفعال المؤذية والشيطانية التي تؤدي بصاحبها إلى الهلاك. ومن صعب جدا اختيار نوع العمل الأدبي أو العنوان المميز الذي قد يعبر عن ذلك الهدف السامي ويكون خير دليل عليه.

وكانت أمامنا الكثير من الإعمال الفنية المميزة ولكن من الصعب جدا الاختيار بينها والوصول إلى العمل النهائي الذي يكون مفضلا لدينا ويستحق الجهد والعناء والعمل الشاق الذي يؤدي بالنهاية إلى الوصول إلى غاية الترجمة والخروج بجهد يشكرنا عليه القراء ويدعونا إلى المزيد ولا يستنكر علينا اختيارنا ويدعونا إلى التوقف والابتعاد عن الترجمة الأدبية.

من بين الإعمال التي اخترناها (هايدي فتاة المراعي) تلك الرواية المذهلة التي تقود القارئ بدموع إلى سيرة فتاة قادتها قسوة الإنسان وجفاف مشاعره إلى رميها في أحضان أكثر الرجال طغيانا وشراسة وكيف بضحكاتها البريئة وأفعالها العفوية التي تعبر عن الخير الكامن في داخلها استطاعت أن تغير صلابة الحجر وتجعله طيعا لينا.

ربما اخترنا البراءة والبساطة في قهر الصعاب وتلين القلوب المتحجرة أول إعمالنا لتكون هايدي فتاة المراعي التي كتبتها جوهانا سبيري أول رواية نقدمها للأطفال. وان الدروس المستنبطة من تلك الرواية تجعلنا نتمسك بها ونحاول عبرها أن نرسم للكبار أن التعامل مع الأطفال يحتاج إلى طريقة خاصة ونوع خاص من الرعاية التي تقود إلى جعل الطفل سليم عقليا خاليا من العقد والمشاكل التي تنعكس بالتالي خلال حياته في فترة المراهقة والشباب ونرى أن الكثير من الأطفال الذين ينشئون في بيئة قاسية يعيشون في حياة مليئة بالإمراض النفسية والتعقيدات وتقودهم في اغلب الأحيان إلى الانتحار أو ارتكاب الجرائم المختلفة.

هايدي سنوات الترحال والتعلم: محور الأخلاق والمشيئة الإلهية
تحليل للرواية

هايدي، فتاة قضى والداها نحبهم في حادثتين. الأب، توفي اثناء عمله، والأم ماتت شوقاً على الأب. وبقت تلك الطفلة اليتيمة تحت رحمة خالتها ديتا تلك التي لا تهتم بشيء سوى المال، والتقدم في المناصب، والحصول على منصب مدبرة منزل في مدينة فرانكفورت المشهورة.

انتقلت هايدي للعيش بعد أن بدأت ديتا تعمل في فرانكفورت مع ماليسا العجوز التي كانت تقضي أيامها في الجلوس على كرسيها الهزاز والحياكة، والمناداة على هايدي كي لا تخرج من المنزل. ونشأت هايدي في هذه الاجواء معقدة ومنفتحة على الخيال. وقضت أربع سنوات في هذه الحالة حتى جاء ديتا عرضاً لا يمكن لها أن تغفله، أو تتوانى في الحصول عليه، منزل في فرانكفورت وبمرتب جيد، وكان عليها أن تترك المنزل الذي احسن إليها وأكرمها فقط للمال والطموح في الحصول على مرتبة مدبرة المنزل. وكان العائق الوحيد في هذه الوظيفة هي هايدي، فاين تراها سترمي بتلك الفتاة؟ خصوصاً إن عليها السكن في نفس المنزل، وهذا يعني عدم رؤية أو الانفاق على هايدي بعد الآن، اذن ما كان امامها إلا الذهاب إلى الألب. وماذا في الألب؟

في الألب يسكن العم الم، ذلك العم الذي انفق على نفسه وكل ثروته وبددتها في لا شيء سوى القمار والترفيه، وماذا كانت النتيجة، انه خسر كل شيء. ابنه توباز الذي تزوج من دون أن يرضى أو يبارك هو الزواج، وخسر زوجته، وخسر كل ما يملك. ذلك العجوز الذي أرعب الناس ولا يتجرأ احد على التكلم معه. ذلك لانه كان لا ينزل من كوخه في قمة الجبل المعزول عن المدنية في ابسط صورها، وما كان ينزل إلا لبيع ما تعمل يداه من اعمال خشبية. هايدي الرقيقة التي تفوح عذوبة وبساطة وتلقائية، مع هذا الرجل العجوز الكئيب متحجر القلب. كيف يمكن أن تفكر ديتا في هكذا صورة فسيفسائية غير متجانسة؟ كانت هذه اول نوبات ديتا الجنونية في الرواية طمعاً في مناصب تحقق لها المكسب الوفير والمكانة الاجتماعية الراقية بين الناس. وهنا لا يمكن لنا أن نتصور كيف كان حديث ديتا ليس مع الجد بل قبلها مع أحدى النسوة التي التقت بديتا في القرية. فبعد أن سألتها المرأة البدينة عن وجهتها وجوابها في الذهاب إلى العم الم، قالت المرأة البدينة:

" أنتِ لا ترغبين حقاً في تركها هناك،
يا ديتا. لابد انك قد فقدتِ عقلك،
بمجرد التفكير في الذهاب إليه. أني

متأكدة بأن العجوز سيطردك بمجرد أن يراكِ وسوف لن يصغي إليكِ حتى."

كان هذا صوت خارج من أعماق القارئ، وليس من تلك المرأة البدينة. وهذا يعكس أيضا عمق الاستهتار بالواقع وعمق الطمع عند ديتا. فكيف لها أن ترسل هذه الفتاة الرقيقة إلى هذا الرجل المتكبر؟ كيف لها أن تفكر ولو للحظة أن هذه الفتاة قد تموت قهراً بين يدي هذا الرجل؟ ولكن ماذا كان جوابها:

"ولما لا؟، أليس هو جدها، وآن الأوان بأن يفعل شيئا ما للطفلة. لقد اعتنيت بها حتى هذا الصيف، ولكني عرض علي مكان جيداً. ولا يمكن للطفلة أن تكون عائقا أمامي للموافقة عليه. أرأيت!"

كانت ديتا قد أعتبرت أمانة أختها بأن اوصتها برعاية هايدي هي كل ما فعلته طوال اربع سنوات، ويا ليتها فعلت شيء يذكر، فلم تكن تراها إلا في عطلة نهاية الاسبوع، ولساعات فقط، فهل هذا هو ما فعلت ومنت فيه على هايدي؟ وكانت ديتا على طول الرواية تحتفظ بالأعذار في جيبها تخرجها متى ما شاءت، فنرى في نهاية القسم الأول مثلاً عندما أراد السيد سمسم أن يرجع هايدي وطلب من ديتا أن ترجعها، تعطي ما شاءت من الاعذار كي تتهرب من لقاء العم الم مرة اخرى. وليست هذه الاعذار كلها شرعية أو صحيحة. وهنا كان عذراها إنها فعلت ما بوسعها وآن الاوان كي ترى نفسها، وكأنها باتت كل ليلة معها تمرضا، أو تعتني بها، وليس أن ترميها لدى العجوز ماليسا طوال الوقت! وكان السبب الرئيسي لتركها عند الرجل هو (ولا يمكن للطفلة أن تكون عائقا أمامي للموافقة عليه) اذن كان هذا السبب الرئيسي إلا إنها وضعته في أخر جملتها كي تصرف النزر عن أهميته، بينما وضعت كل الاعذار الواهية في البداية كي تجعل منها الرئيسية. ولا يعكس هذا إلا الطبيعة المستبدة وغير المبالية لديتا.

وتصل ديتا إلى الرجل العجوز، ومن هو هذا الرجل:

"فهو لم يتكلم مع أي إنسان،ولا يزور الكنيسة إلا بنهاية كل عام. والناس تهرب من أمامه عندما يظهر كل سنة بيننا. أننا جميعا نخشاه أنه تماما

كالبرابرة أو الهنود الحمر بحاجبيه الرماديين ولحيته المتجعدة. وعندما يتجول في الطريق بعكازه الملتوي يخشى أي شخص أن يقابله لوحده."

وهذا كل ما يقوله الناس أو يعرفه عنه الناس. ولكن بعد هذا كله هل سترسلها إليه؟ نعم:

"هذا ليس ذنبي، فهو لن يؤذيها؛ ولو فعل، فهو المسئول وليس أنا." قالت ديتا بعناد.

بعناد تقول انه المسؤول عن اخطائها! نعم، فهو خطئها ومسؤليتها منذ البداية، ولكن طمعها يدفعها إلى ترك تلك الطفلة في بيئة معزلوة لا احد يعرف أي شيء عنها.

وعلى الرغم من أن محور الرواية يدور حول

(أن الله يحول كل شيء سيء إلى صالح ونافع)

وكان أول شيء يبدأ به هذا المحور هو لقاء هايدي مع جدها أول مرة. وهذه محاورتهما في لقائهما:

"بالفعل!" قال. "وماذا علي إن أفعل بحق الأرض، لو صارت تنتحب وتبكي عليك؟ طالما يفعل الصغار ذلك، وعندها سأقف بلا حول ولا قوة.."

" عليك أن تحل الأمر بنفسك!" ردت ديتا بحزم، " لما تركت الفتاة بحضني قبل أربع سنوات، كان علي أن أبحث عن كيفية أن أرعاها بنفسي ببراءة ولم يخبرني أحد ماذا علي فعله. لقد كنت أرعى أمي في حينها وكانت لدي من الأعمال ما يغنيني عنها. لا تلمني لو حاولت أن اكسب اليوم بعضا من النقود. فلو لم تكن فقادرا على رعاية الفتاة، أفعل معها ما تريد. ولو تأذت

فاتت المسئول، ولكني متأكدة بانك لا
تريد ان تثقل ضميرك أكثر."

وهنا يحمل أحدهما الأخر مسؤولية هايدي. وكلا يعتذر للأخر عن جهله في تدبير أموره مع الطفلة. ولكن الفتاة لا تريد إلا كسب النقود والعم لا حول له ولا قوة. ولنناقش الأمر. العم الم، ليس له في تربية الاطفال وهو يعجز عن تدبير أمره مع الطفلة، وهذا شيء حقيقي، ولكن هل ديتا على حق، فهي سبق وان تركت هايدي مع ماليسا اربع سنوات، وها هي تتركها مرة أخرى لمرة ثانية إلى الابد. وهنا نود أن نعرف أن الخطأ هو خطأ ديتا منذ البداية فمن أجل المال تترك الفتاة حتى بعد أن عرفت العم انه غير قادر على تحمل مسؤليتها فأنها تحمله جهله في تربية الاطفال ولو حدث لها مكروه فهو الملام! هذا كما قال الحلاج

ألقاه باليم مكتوفا وقال له إياك، إياك أن تبتل بالماء

فهي تلقي بالفتاة في حضنه وتقول له اياك أن يحدث لها مكروه وهو الذي يجهل كيف يسكتها لو بكت على خالتها!

وتبقى هايدي مع جدها، ويحاول قدر الأمكان أن يلبي لها كل أحتياجاتها، من فراش ومن مأكل. وفيما بعد ذكائها يقود الجد إلى التعلق بها كثيراً. وتبدأ هنا أول التغييرات التي من الله بها على هايدي. فقد صار المجهول الذي تخاف منه، إلى نعمة من نعم الله عليها ليكون خيراً والجد يتولى رعايتها طوال العام. ولم تبدر من هايدي أي شكوى ضد الجد وهي تزور جدة بطرس مرات ومرات. بل جعلته في النهاية يصلح لهم الكوخ بسبب قدوم موسم الرياح. وكان هذا دليل على تغيير العم بسبب هايدي. ولم تصبح هايدي معزولة بسبب الجد بل جعلت الجد يكون اجتماعياً أكثر على الرغم من انه لم يدخل كوخ بطرس، غير انه أثبت انه تغير.

ويأتي القس ليطلب من الجد أن يرسل هايدي إلى المدرسة وكان جوابه

"أريدها أن تكون حرة وسعيدة
كالعصفور!"

هنا النية طيبة، ولكن الهدف غير ذلك. أن النية عند العم الم هي أنه يرغب بجعل هايدي تبتعد عن الناس وعن المجتمع الذين لا ينوون إلا الشر، بينما يرغب في جعلها تعيش في المراعي والمروج الخضراء على قمة الجبل حيث تنشغل في تربية الحيوانات وصنع الجبن التي تعلمته جيداً. وهو يرغب باسعادها وجعلها حرة وغير ملزمة باي واجب اجتماعي

بسبب أن المجتمع سيء وبالتالي سيسيء إلى هايدي التي يحاول الحفاظ على تلقائيتها وبساطتها وعلى فطرتها. وكان عذره مباشر حيث قال للقس:

""إنها فتية وعندها أغطية ممتازة. أعلم جيدا أين يمكنني أن احصل على حطب كاف. أني أجعل الموقد مشتعل طوال الشتاء. أني لا أحيى في القرية، حيث أني وأهل القرية يكره أحدنا الأخر. ومن الأفضل أن نبقى بعيدين عن بعضنا."

وهذا سبب وجيه ومباشر لعدم رغبته في ارسالها إلى المدرسة رغم انه اعلن سبب أخر وهو بعد المدرسة والظروف الجوية السيئة. وهكذا ياس القس من إقناع العم الم إلا انه دعا الله أن يهديه ويعيش بينهم في الشتاء القادم. وعلى الرغم من أن الدعاء تحقق إلا انه ليس في الشتاء الذي تلي ولكن بعد عدة سنوات.

وكان الضيف الأخر الذي جعل كل أحلام هايدي وجدها تتبخر هو ديتا حيث جاءت إلى أمر هام جداً، لكي تأخذ هايدي! ورغم إنها تركتها بسبب المال إلا إنها جاءت لتأخذها بسبب المال أيضا. السيد سمسم رجل ثري يعمل في التجارة ولديه ابنة وحيدة معاقة مصابة بشلل الاطفال. ورغم إنها شفيت منه إلا إن حالة الطفلة النفسية السيئة أدت إلى تلازم المرض عندها. وهذا جعل السيد سمسم يطلب المشورة شبه اليومية من الطبيب كلاسين. ذلك الصديق الوفي والمخلص القديم. وكانت المشورة هذه المرة أن تغير الظروف المحيطة بكلارا من جو دراسة وكبت نفسي إلى انفتاح ومرح مع طفلة تماثلها في العمر وتكسب منها الكثير من السعادة والتجربة. ووقع الاختيار على الخدم ليتولوا تلك المسألة، وكانت إحدى الخادمات تعرف ديتا فأخبرتها أن تساعد ولها مكافأة جيدة لو فعلت. وكانت ديتا لا ترغب بالمكافأة فقط، بل في المال كله، والفتاة هي هايدي. وهكذا، زارت ديتا العم الم مرة أخرى والسبب عكس السبب الأول فلنرى كيف ستدافع عن قضيتها:

"لا يعرف أحد ما الذي سيحدث في مثل تلك الظروف، ومن يستطع الجزم—"

"هل انتهيت؟" قاطعها العجوز في النهاية.

"لماذا، الكل يعرف أني أتحدث إليك بأروع شيء. لا يوجد رجل في المقاطعة كلها إلا ويشكر الله على تلك الفرصة."
"أحضريهم إلى فردا آخر، ولكن ليس لي." قال العم، ببرود.
أجابت ديتا وهي غاضبة:
"هل ترغب بسماع ما اعتقده؟ هل تعرف كم عمرها؟ إنها في الثامنة وتجهل كل شيء. اخبروني بانك رفضت إرسالها إلى الكنيسة أو المدرسة. أنها ابنة أختي الوحيدة، ولا يجب أن أتحمل ذلك، حيث أني مسئولة عن كل شيء. أنك لا تهتم بها، أنى لك أن تكون غير مهتم بمثل هذا القدر. عليك أن تفسح المجال للآخرين أو علي أن اخبر الناس ليساندوني. لو كنت مكانك، لا يجدر بي أن أوصل الأمر إلى المحاكم. هناك بعض الأشياء التي يجب أن تسخن والتي لا تأبه في سماعها."
"اهدئي!" صرخ العم بعيون يقذف اللهب. "خذيها ودمريها، ولكن لا تحضريها أمام عيناي مرة أخرى. لا أريد أن أراها بقبعة مليئة بالريش وكلمات بذيئة كتلك التي تتكلمين بها."

هنا يحتار المرء في تصديق ما يقرأ، وعلى الرغم من أن المسالة هي قصة غير واقعة إلا أن القارئ سيجد نفسه يلعن تلك الخالة مرات كثيرة ويصفها بكلمات غير محببة فقط لأنها تريد أخذ هايدي من جدها. فكيف لها أن تفكر باستغلال الفتاة بهذه الطريقة؟ وكيف لها أن

تعكس تلك الصورة التي تكررت كثيراً في مجتمعنا؟ لقد كان إستغلال اليتيم أمراً سيئاً جداً، ولكن وجود شخص يفكر بنفس طريقة ديتا، أمراً عجيباً جداً. فكيف لها أن تغير ما بدأت به، ورغم أنها لم تكن تعلم بأمر القس والعم، إلا إنها جعلت من تلك النقطة المنطلق إلى إقناع العم بأنها على حق في أخذ الفتاة، رغم إنها قالت سابقاً انه عليه تحمل المسؤلية

"أفعل بها ما تشاء."

أي إنها لو كانت ملتزمة بوعدها فلم يغير أمر المدرسة شيء فهي تركت مسؤولية الفتاة للعم، ولا شأن لها به، غير أن الأمر جاء تماماً في وقت هي كانت تفكر فيه بعذر لتأخذ الفتاة. ولكن، رغم كره العم وكره هايدي لهذه الرحلة، فهل سيتدخل القدر في تغيير تلك الكراهية؟

نعود إلى المحور، وقد فعل الله فعلاً في تغيير السيء إلى خير، وكان أمر السفر والترحال إلى فرانكفورت، أمراً جالباً لنعم أكثر إلى العم والى هايدي نفسها.

منذ اليوم الأول جعلت هايدي الفتاة كلارا تحبها وتتمسك بها، وعلى الرغم من مرض هايدي طوال تلك الفترة وسيرها أثناء نومها (وهو المرض التي كانت أمها تعاني به بعد وفاة والد هايدي) إلا إنها كانت تحب كلارا جدا، وكانت تحب السيدة سمسم، وكذلك السيدان سمسم وكلاسين. فكلهم عاملوها بطريقة تستحقها هايدي إلا أن الخدم وبالخصوص (الآنسة روتن ماير، وتينيتي، وكذلك يحيى) عاملوهابطريقة تختلف جداً، بل كانت الآنسة روتن ماير السبب الرئيسي في تغيير أحوالها وعدم تأقلمها في البداية. وكانت العقوبات والكبت النفسي التي مارسته ضدها جعلتها تمرض بسرعة. وعلى الرغم من أن السيدة سمسم، كانت تحبها وتحاول أن تعرف منها سبب حزنها، إنها كانت ملتزمة بوعد مع الآنسة روتن ماير بعد ذكر ما يحزنها مرة أخرى، وكانت هايدي بهذا أقوى من روتن ماير، إذا اثبتت إنها قادرة على أن تكون مثالية أكثر من الناس الكبار. ورغم سوء التعامل من الجميع إلا إنها تعامل الكل بأفضل ما يكون، وأنما التزام هايدي مع الآنسة روتن ماير إلا دليل على هذا.

وهنا علينا أن نمر مرور الكرام على اخلاق هايدي. فهي لا تكذب مثل بطرس ولا تتعامل مع الاخرين بإستعلاء رغم مكانتها وسط عائلة سمسم، وايضا لا تحاول إلا مساعدة الاخرين، وهذه الصفات كانت هايدي على صغر سنها (بدأت القصة وعمرها خمس سنوات وأنتهت بعمر تسع سنوات) فهي تلتزم بالوعد وتحترم الأخرين وتعطي ما تقدر عليه وتتخلى عن ما ليس لها القدرة على انجازه. وكانت صفاتها هذه هي التي جعلت جميع من حولها يحبوها، ولكن تجعل المنافقين أو الكاذبين يبتعدون عنها أو يسيئون إليها. وربما لو حاولت جوهانا سبيري أن تجعل المحور الاخلاق لدى هايدي لفلحت ولكننا يمكننا القول بأن

الأخلاق يمكن أن ندرجها مع المحور السابق في مشيئة الله لتكون الرواية بمحورين مهمين جداً. وتعبران عن درساً مهما يجب أن يتعلمه الصغار والكبار على حد سواء، وهذا ما يجعل الرواية مقروءة للجميع كباراً وصغاراً.

وتبقى هايدي في منزل سمسم حتى يفاجئ الجميع بشبح يحوض في المنزل. ولم يقتنع سمسم في البداية بقصة الشبح إلا أن روتن ماير تقنعه بالرجوع من عمله المهم ليرى الشبح. فيطلب من صديقه الطبيب كلاسين أن يأتي ليبيت معه ويتحقق من الشبح الذي يظهر يومياً في الليل ليخيف اهل المنزل. وبعد أن يسخر الطبيب من صديقه إلا انه يرى الشبح، وما كان الشبح إلا هايدي في ملابس نومها البيضاء وهي تخرج من الباب الرئيسي وبيدها شمعة. وما كان من الطبيب كلاسين إلا سؤالها عن اهم ما يقلقها، يأتي الجواب أن الحنين هو التفكير الوحيد الذي يشغلها غير أن الآنسة روتن ماير كانت السبب في جعلها رغبة مكبوتة في داخلها بعد أن صادف في ثاني يوم لها في المدينة أن خرجت في الصباح لتعود بعد المساء وقضت تلك الفترة في مشاهدة جبال الألب من برج الكنيسة ليعود بها صبي يعرف أهل المنزل. وكانت هذه الحادثة السبب في معاقبة هايدي ومنعها من التحدث في موضوع العودة أو الحنين. وهذه الرغبة المكبوتة جريمة بحق هذه الطفلة، فأن تبعدها عن موطنها وان تمنعها من العودة أو حتى التفكير في العودة أمر غير مقبول بالمرة، لذا نرى أن روتن ماير ساهمت في تعذيب الفتاة وشاركت خالتها ديتا في إدخالها بالقفص واخرجها من عالمها الحر الفتي. فكانت روتن ماير السجان بالنسبة إلى هايدي، وكان الخدم المراقبين على هذا السجن وأفلحوا جميعا في هذه السجن. وكان الحل قد جاء من أطيب رجل وهو الطبيب الذي اقترح على سمسم بأن يعيد الفتاة في الغد قبل أن تصاب بمكروه بسببه، ويتعرض للمسائلة القانونية وان لا يتحمل هذه المسؤولية الكبيرة. وتعود هايدي إلى موطنها. وتبدأ المرحلة التالية من القصة.

رغم أن هايدي رجعت إلى موطنها وكان جدها أكثر من فرح بها بعد أن مر خلال هذه السنة بأصعب أيام حياته، ورغم من انه عاش حياة العزلة سابقاً واختبر مرارتها، إلا انه كان في ما بعد مرحلة رحيل هايدي اقسى ووصفته المرأة المدينة باربرا عند عودة هايدي بأنه اصبح عصبياً ولا يكلم أحد ابدا. ولما عادت هايدي إليه وضعها على ركبتيه وصار يحضنها وأطعمها اول ما اعطمها الحليب وان دل هذا على شيء فأنه يدل على أحساس الجد بأن هايدي لم تكن في حال جيد، وتحتاج إلى القوة من جديد. وربما كان ضعف جسمها الدليل على هذا غير أن الجد كان قد استعاد الحياة باستعادة هايدي.

واول نعمة لهايدي بعد وصولها كانت الفطائر البيضاء للجدة الضريرة، وثانيهما اسعادها بقرائتها للنشيد أو الدعاء التي تذكر فيها الجنة وملكوت السماء. وتبرز هنا أول دليل على محور الرواية. حيث أن هايدي تعترف بأن الله قد حول السيء في فراقها عن الوطن وجدها إلى خير بتعلمها القراءة وجلبها الكثير من النعم إلى جدها والتي ستبين فيما بعد عندما تصل كلارا وجدتها إلى الألب. وقبلها كانت النعمة الثالثة في هداية الجد بعد أن تتحاور معه وبعد أن تقرأ له قصة الفتى المسرف الذي يفارق اباه ويعود إليه بعد ذلك وهو يعترف بخطائه. ويعود الجد في صباح اليوم التالي إلى الكنيسة ومعاودة اتصاله بالناس والعودة إلى الحياة الاجتماعية العادية وتغيير وجهة نظر المجتمع تجاه هذا الرجل. وكذلك العودة في الشتاء التالي إلى المجتمع والعيش لفترة التالية في القرية في الاطلال. وكانت تلك هي النعمة التي جعل الله هايدي تعاني قبل أن تحصل عليها.

"هايدي" رواية كتبتها جوهانا سبيري عام ١٨٨٠ لتكون أولاً للصغار كما أعتادت ان تكرس موهبتها في الكتابة، غير إنها عندما خرجت كانت المفاجئة في عالم الكبار. تهافت الناس عليها وترجمت بسرعة إلى أكثر اللغات انتشاراً. وترجمت إلى اللغة الانكليزية وحدها أكثر من أربع مرات. أن السبب في تهافت الناس على هذه الرواية يعود إلى سببين: الأول، إنها كانت ممتعة من حيث القصة والاحداث، التي قاربت الحقيقة بدقة كبيرة، حتى أن البعض حاول أن يجد في "هايدي" الكثير من الأحداث التي مرت على هايدي سبيري، غير أنها نجحت في جعل الرواية خارج نطاق حياتها في سويسرا التي ولدت فيها عام ١٨٢٩. وكان السبب الثاني هو أن قصة الفتاة اليتيمة هايدي قد لفتت الانتباه واثرت في الكثير من الاباء الذين كانوا يروون تلك القصة لأبنائهم.

وشاعت الرواية في أوربا بسبب نزعتها في معالجة المشاكل الاجتماعية والاخلاقية، وكذلك جعل تلك الفتاة الصغيرة هي المنطلق لهداية مجتمع بكامله، ولم تدخل هايدي في عالمنا العربي إلا من خلال ذلك المسلسل الكرتوني اليتيم الذي رسم وأعد وأنتج في اليابان وغيرت الشركة فيه الكثير من تلك الاحداث التي وردت في الرواية. وكان هذا الحال قد طال الكثير من الروايات العالمية التي مثلت في افلام أو صنع منها مسلسلات كارتونية. غير أن هذا التغيير لم يشوه الرواية كثيراً غير انه غفل عن التركيز على المحور الاساسي.

المترجم

القسم الأول
سنوات هايدي الأولى في التعلم والترحال
الفصل الأول
الذهاب إلى العم في ألم

أن موقع بلدةماينفيلد القديمة الصغيرة متميز وساحر. ينطلق منها مسار حجري عبر السهول الخضراء المزروعة بعناية حتى قاع الجبال المطلة بهيبة على الوادي. وحيث يبدأ هذا المسار شامخا بتعالي نحو جبال الألب، ترسل المروج الخضراء ذات الأعشاب الشوكية القصيرة عطرها الندي مرحبا بعابري السبيل.

في احد أيام حزيران المشرقة المشمسة، تسلق المنطقة الجبلية ظلا لامرأة طويلة وقوية متجها نحو الممر الضيق وهي تقود فتاة من يدها. وكانت وجنتا الفتاة الصغيرة متوهجة إلى درجة إنهما برزتا حتى من وراء بشرتها التي سمرتها الشمس. يا لجمال هذه الصغيرة! حيث على الرغم من الحرارة فأن الصغيرة التي لا يتجاوز عمرها خمس سنوات كانت مقرفصة وكأنها تصارع الجليد. من الصعب جدا تمييز شكلها، حيث أنها كانت ترتدي فستانين إذا لم تكن ثلاثة، ويلف عنقها شال أحمر من الصوف. وكانت قدماها مغطيتان بحذاءين طويلان ذوا مسامير، لقد كانت تلك الفتاة الدافئة الصغيرة بشعة المظهر تتوجه نحو الجبل.

استغرقت الاثنتان ما يقارب الساعة لتصلا في النهاية إلى قرية صغير في منتصف الطريق إلى الجبل العظيم وكانت تلك القرية اسمها ألم. وكان يطلق عليها القرية الصغيرة. لقد كانت موطن البنت الكبرى، لذلك كانت تُحيي تقريبا من كل منزل هناك؛ لقد كان الناس ينادون عليها من النوافذ والأبواب وفي الطريق. ولكن، على الرغم من ردها التحية وإجاباتها عن الأسئلة التي تلقى عليها من هنا وهناك وعلى طول الطريق، كانت البنت غير متوانية في المضي قدما إلى الأمام في طريقها إلا إنها وقفت ساكنة ما أن وصلت إلى نهاية القرية الصغيرة. لقد كانت هناك عدة أكواخ متناثرة حول المكان، ومن أبعدها نادى عليها صوت من احد الأبواب المفتوحة:

"يا ديتا، أنتظرِ لحظة من فضلك! أني آتية معك، لو كنت صاعدة إلى الأعلى."

وما إن وقفت لتنتظر، حتى أفلتت الفتاة الصغيرة يدها لتجلس على الأرض فورا.

"هل أنتِ متعبة يا هايدي؟" سألت ديتا الفتاة الصغيرة.

"كلا، ولكني اشعر بالحر،" أجابت.

"سنكون في الأعلى بعد ساعة، فقط لو خطوتِ خطوات كبيرة وتسلقت بكل ما بوسعكِ!" بهذه الطريقة حاولت البنت الكبرى تشجيع مرافقتها الصغيرة.

وثبت امرأة بدينة ذات ملامح مرحة من منزلها لتلتحق بالفتاتين. نهضت الفتاة الصغيرة وتبعت القريبتان، واللواتي سرعان ما صارتا تتحدثان عن الأصدقاء في الجوار وعن القرويين في القرية الصغيرة عموما.

"إلى أين تأخذين هذه الطفلة، يا ديتا؟ هل هي الطفلة التي خلفتها أختكِ؟" سألت الوافدة الجديدة.

"نعم، أني أصحبها إلى العم ألم حيث يجب أن تبقى." أكدت ديتا لها.

" أنتِ لا ترغبين حقاً في تركها هناك، يا ديتا. لابد انك قد فقدتِ عقلك، بمجرد التفكير في الذهاب إليه. أني متأكدة بأن العجوز سيطردك بمجرد أن يراكِ وسوف لن يصغي إليكِ حتى."

"ولما لا؟، أليس هو جدها، وآن الأوان بأن يفعل شيئا ما للطفلة. لقد اعتنيت بها حتى هذا الصيف، ولكني عرض علي مكاناً جيداً. ولا يمكن للطفلة أن تكون عائقا أمامي للموافقة عليه. أرأيت!"

"هذا لا يشكل أي صعوبة لو كان العجوز كبقية المخلوقات البشرية. ولكنك تعرفينه جيدا. أنى له أن يعتني بأي طفل خصوصاً تلك الطفلة الصغيرة؟ سوف لن تصبر معه، أني متأكدة من ذلك! ولكن أخبريني عن رأيكِ؟"

" أني منتقلة إلى منزل رائع في مدينة فرانكفورت. فقد سافر بعض الناس إلى الحمامات في الصيف الماضي واعتنيت بغرفهم. وبدا إنهم أعجبوا بي، وقرروا أن يصطحبوني معهم في الحال، ولكني لم أتمكن من الرحيل. لقد عادوا الآن وأقنعوني بالذهاب معهم."

"يسعدني بأني لست هذه الطفلة! لا أحد يعلم أي شيء عن حياة هذا العجوز هناك. فهو لم يتكلم مع أي إنسان،ولا يزور الكنيسة إلا بنهاية كل عام. والناس تهرب من أمامه عندما يظهر كل سنة بيننا. أننا جميعا نخشاه أنه تماما كالبرابرة أو الهنود الحمر بحاجبيه الرماديين ولحيته المتجعدة. وعندما يتجول في الطريق بعكازه الملتوي يخشى أي شخص أن يقابله لوحده." قالت باربرة بتعجب مع رعشة خوف في جسدها.

"هذا ليس ذنبي، فهو لن يؤذيها؛ ولو فعل، فهو المسئول وليس أنا." قالت ديتا بعناد.

" ليتني اعرف ماذا يؤثر على ضمير العجوز. لماذا تملئ القسوة عينيه ولماذا يعيش هناك وحيدا تماما؟ لم يراه فرداً واحداً، ولطالما سمعنا الكثير من الأشياء الغريبة عنه. الم تخبرك شقيقتك أي شيء عنه يا ديتا؟"

"بلا، أخبرتني، ولكن علي حفظ لساني. فهو سيجعلني أدفع الثمن لو لم افعل."

مضت على باربرة فترة طويلة من الزمن وهي يدفعها الفضول والتلهف إلى معرفة أي شيء يخص عزلة العجوز وبقاءه بعيداً عن اي مخلوق آخر. لم يبلغ أي فرد كلمة طيبة منه، وعندما يتحدث الناس عنه، فهم لا يتحدثون علناً كما لو كانوا خائفين. ولم تستطع أن تخبر نفسها لماذا يطلق عليه الناس العم الم. فهو من غير الممكن أن يكون عم كل الناس في القرية، ولكن طالما أن الكل يقول عنه هذا الشيء، هي تفعل. باربرة، التي لم تأتي إلى القرية إلا حين تزوجت، كان مسرورة عند حصولها على بعضاً من المعلومات من صديقتها. فقد تربت ديتا هناك، ولكن منذ وفاة أمها رحلت بعيداً لتكسب رزقها.

مسكت بثقة بذراع ديتا وقالت:

"أتمنى أن تقولي لي حقيقته؛ فأنتِ تعرفينها كلها، والناس يثرثرون فقط. أخبريني ما الذي حدث لهذا العجوز ليعتزل الناس بهذه الطريقة؟ هل يكره الناس هكذا منذ البداية؟"

"لا يمكنني أن أخبركِ فيما لو كان يكره الناس منذ البداية، لسبب مقنع واحد. هو انه يبلغ الستون من العمر، وما أنا إلا في السادسة والعشرين، فلن تتوقعي مني أن أعطيكِ تفاصيل حياته المبكرة. ولكن إن وعدتِ أن تحافظي على ما أقول ولن تجعلِ بقية الناس في المقاطعة كلها يتحدثون في الأمر، عندها أخبرك القدر الكافي. فقد قدمت أمي معه من دومليش."

"كيف لكِ أن تتحدثي هكذا يا ديتا؟" قالت باربرة بصورة منزعجة. "الناس في المقاطعة لا يثرثرون كثيراً. وأني أعتدت على حفظ كثيرا من الأمور لنفسي، لو اضطررت لذلك. سوف لن تندمين على إخباري أي شيء، أنا أؤكد لكِ؟"

"حسناً، ولكن صوني لسانكِ!" قالت مهددة. ثم نظرت حولها لترى فيما لو كانت الطفلة ليست قريبة لتسمع كل ما سيقال. إلا أن الطفلة لم تكن في مكان يمكن أن ترى فيه. فبعد أن تحدثتا بهذا القدر لم تلحظا غياب الطفلة. فقد مضت لحظة بسيطة منذ أن عجزت الطفلة أن تلحق برفيقاتها. ووقفت ديتا ساكنة، ونظرت في كل مكان، ولكن لا احد في الممر، والذي كان ما عدا بعض التلال الصغيرة مرئيا حتى مدخل القرية.

"ها هي ذا! الم تريها هناك؟" قالت باربرة بتعجب، وأشارت إلى بقعة من الأرض على مسافة بعيدة عن المسار. " أنها تتسلق مع راعي الماعز بطرس وماعزه. أتعجب لماذا هو متأخر اليوم؟ يجب أن أقول أن الأمر يروق لنا، فعليه أن يعتني بالطفلة بينما تقولين لي كل شيء بدون مقاطعة."

" سوف يسهل الأمر على بطرس في مراقبتها،" أشارت ديتا. "أنها ذكية بالنسبة إلى عمرها، ودائما تتطلع إلى معرفة الكثير. لطالما علمت ذلك وأني مسرورة لهذا، حيث أن ذلك سينفع العم. فهو لم يتبقى له شيء في هذا العالم الفسيح سوى كوخه وذكران للماعز!"
"هل امتلك يوماً أكثر؟" سألت باربرة.
"علي قول هذا. لقد كان مالكاً لمزرعة كبيرة في دومليش. ولكنه اعتاد أن يمثل دور الرجل النبيل، فسرعان ما فقد كل شيء بالشراب واللعب. ومات والداه حزناً واختفى هو من تلك الأصقاع. وبعد عدة سنوات، عاد مع فتى مراهق، اسمه توباز، وهو ابنه وصار نجاراً وكان شابا هادئاً ووقوراً. وشاعت الكثير من الإخبار الغريبة عن العم وأعتقد انه هو السبب في انتقاله من دومليش إلى القرية الصغيرة. نحن أقرباء، حيث أن جدة أمي ابنة عمه. ونطلق عليه عمنا، وطالما نحن أقرباء الكثيرين من أبي في هذه القرية فأنهم يطلقون عليه العم أيضاً. وصار اسمه (العم ألم) ما أن انتقل إلى العيش في ألم."
"ولكن ماذا حدث لتوباز؟" سألت باربرة بلهفة.
" مهلا علي. كيف لي أن أخبرك كل شيء مرة واحدة." هتفت ديتا. " كان توباز عاملاً في ميل، ولما صار سيداً، عاد إلى المنزل في القرية وتزوج من أختي أديلهايت. لقد كانا يعشقان بعضهما البعض وعاشا بسعادة كزوج وزوجة. ولكن كانت فرحتهم قصيرة. فبعد سنتان، ولما كان توباز يساعد في بناء منزلاً، سقطت عليه عارضة خشبية وقتلته. وغشت أديلهايت حمى قاسية من الحزن والخوف، ولم تتعافى منها. فهي لم تكن قوية وكانت كثيرا ما تعاني من بعض التعويذات الغريبة، حيث لم نكن نعرف إنها مستيقظة أم نائمة. وبعد أسابيع قليلة من وفاة توباز دفنوا المسكينة أديلهايت.
"يقول الناس أن السماء قد عاقبت العم لسوء أفعاله. وبعد وفاة ابنه لم يتكلم مع أي مخلوق. وفجاءة انتقل إلى جبال الألب، ليعيش هنا ضد الناس والسماء.
" أخذنا أنا وأمي ابنة أديلهايت وكان عمرها عاما واحداً فقط هايدي لتعيش معنا. ولما ذهبت إلى ريغاتز، أخذتها معي، ولكن في الربيع جاءت العائلة التي أنجزت لها عملها في العام المنصرم جاءت من فرانكفورت وقررت أن تأخذني معها إلى منزلهم في البلدة. ويسعدني أن أكون في هذا العمل الممتاز."
"والآن تريدين أن تسلمي هذه الطفلة إلى ذلك العجوز المستبد. أتعجب فعلاً أنى لك ذلك، يا ديتا!" قالت باربرة والتوبيخ باديا في صوتها.

" أعتقد أني قد أعطيت الكثير وما يكفي لتلك الفتاة. ولا أعلم أي مكان آخر آخذها إليه، بسبب أنها صغيرة جدا لتأتي معي إلى فرانكفورت. بالمناسبة، باربرة، إلى أين أنتِ ذاهبة؟ لقد بلغنا منتصف الطريق إلى جبال الألب للتو."

صافحت ديتا رفيقتها ووقفت ساكنة بينما كانت باربرة تتقدم نحو الكوخ الجبلي الصغير ذا اللون البني الغامق والذي يقع تماما في الوادي على بعد خطوات من الممر.

كان الكوخ محمي لحسن الحظ من الريح العاتية بوضعه تماما في منتصف الطريق إلى ألم. وبسبب مرور الرياح عليه، لكان من الصعب العيش في حالته المزرية تلك. وحتى في حالته تلك، حيث أن الأبواب والشبابيك تصر بأعلى صوتها وكذلك الروافد الخشبية في السقف تهتز ما أن تهب الريح الغربية القادمة من جانب الجبل. لو كان الكوخ شامخا في قمة ألم لكانت الريح تهب بدون إثارة أي جلبة في موسم العواصف.

هنا يرعى بطرس الماعز، ذلك الفتى ذو أحد عشر ربيعاً والذي يأتي بماعزه يومياً من القرية ويأخذها إلى الجبال حيث الإعشاب القصيرة واللذيذة في المروج الخضراء. ويقفل بطرس راجعاً في المساء مع الماعز الرشيق. وما أن يصفر بحدة في أصبعيه، على كل مالك أو مالكة أن يأتي ويأخذ ماعزه. وعادة ما يكون المالكين من الفتية والبنات الصغار، وبما أن الماعز حيوانات ودودة، فأنهم لا يخافون بعضهم البعض. وكان هذا الوقت الوحيد الذي يقضيه بطرس مع بقية الأطفال، بينما في بقية النهار تكون الحيوانات رفاقه الوحيدون. وفي المنزل تعيش معه أمه وجدته العمياء، ولكنه يقضي وقتا قصيراً في الكوخ يكفيه لتناول الخبز والحليب للفطور وبعض الطعام للعشاء. وبعدها يغط في نوم عميق. وعادة ما يغادر في الصباح الباكر ويأتي في المساء في وقت متأخر، حتى يتمكن من البقاء مع أصدقاءه أطول وقت ممكن. لقد تعرض أبوه لحادث قبل سنوات؛ وكان أسمه بطرس راعي الماعز أيضاً. وكان يطلق على أمه أسم بريجيدا زوجة بطرس راعي الماعز، أما جدته العمياء فقد كان يطلق عليها الكبار والصغار في القرية والمناطق التي تبعد أميالاً أسم الجدة.



انتظرت ديتا عشر دقائق تقريباً لترى فيما لو كان الطفلين يتبعونها مع الماعز. وبما إنها لم تجدهما حتى ألان، تسلقت إلى مكان أعلى لترى أفضل بمنظر يطل على الوادي، وكانت تنتقل من مكان إلى أخر وكانت علامات الجزع بادية على ملامحها.

كان الطفلان في ذلك الوقت ينزلون بصورة متعرجة بطيئة، وكان بطرس خبيرا في إيجاد المنظر المناسب دوما للنظر لماعزه حيث تأكل. وهكذا هربوا من مكان إلى أخر. وكانت الفتاة المسكينة تتبع بطرس بجهد عظيم وكانت تلهث بملابسها الثقيلة. وكانت تشعر بحر شديد وغير مرتاحة لدرجة إنها كانت تتسلق بكل قوتها. ولم تكن تقول شيء سوى النظر إلى بطرس بعين حاسدة، في حين كان بطرس يقفز في المكان ببطيء ببنطاله الخفيف وأقدامه الحافية. حتى إنها كانت تحسد الماعز التي كانت تتسلق فوق الشجيرات والأحجار، وتوطئ بانحراف بأقدامها الهزيلة. وفجاءة، جلست على الأرض وخلعت حذائها وجواربها بنعومة. وما أن نهضت حتى خلعت شالها الثقيل وفستانيها. وهكذا انسلت بدون أي جلبة أو ضوضاء ووقفت بثوب خفيف. وكنوع من البهجة في لحظة الراحة شمرت عن ذراعيها العاريتان حتى الكم. وحتى لا تتعب نفسها بحمل ملابسها، كانت عمتها قد ألبستها كل ملابسها الخاصة بيوم الأحد فوق ملابسها الاعتيادية. رتبت هايدي ملابسها على شكل كومة ثم انطلقت تلتحق ببطرس وماعزه. لقد أصبحت أقدامها ألان اخف من كل الماعز أو بطرس. ولما رآها بطرس لم يكن قد انتبه قبل هذا بأنها ترتدي ذلك الثوب الخفيف ابتسم ابتسامة عريضة. ولما نظر إلى الخلف رأى كومة الملابس على الأرض وابتسم أكثر، حتى بدا أن فمه اتسع من أذنه إلى أذنه الأخرى؛ ولكنه لم يتفوه بأي كلمة.

لما أحست الطفلة بالراحة والحرية بدأت الحديث مع بطرس، وكان عليه أن يجيب عن كل أسئلتها. سألته كم عدد الماعز الذي يرعى، وأين يقودها، وماذا يفعل بها، ومتى يصل إلى هناك، وهكذا.



وفي النهاية وصل الطفلان إلى القمة الجبلية أمام الكوخ. ولما رأت ديتا الشلة الصغيرة تتسلق نادتهما بحدة:

" هايدي، ماذا فعلتِ؟ ما هذا المنظر التي تبدين عليه؟ أين ذهبت كل ملابسكِ وشالكِ؟ وهل ضاع حذائكِ الذي اشتريته لكِ للتو، وتلك الجوارب الجديدة التي حكتها بنفسي؟ أين ذهب كل شيء يا هايدي؟"

أشارات الطفلة بهدوء وقالت:

"هناك."

وتبعت خالتها اتجاه أصبعها واكتشفت كومة صغيرة بنقطة حمراء في الوسط، والتي تبين أنها الشال.

"يا لك من فتاة سيئة الحظ!" قالت ديتا مندهشة. "ما الذي يعنيه كل هذا؟ لماذا خلعتي كل شيء؟"

"فقط لأني لا أحتاجهم،" قالت الطفلة، ولم تبدو نادمة على ما فعلت.

" كيف تكونين حمقاء بهذا الشكل يا هايدي؟ هل فقدتِ عقلكِ؟" واستمرت الخالة بمزيج من الغضب والتوبيخ، "من تعتقدين سيذهب إلى الأسفل هناك لجلب كل تلك الأشياء ثانية؟ إنها على بعد نصف ساعة سيراً. من فضلك يا بطرس، أسرع إلى الأسفل وأجلبها. لا تقف هكذا وتحدق بي كما لو كنت قد تسمرت في الأرض. "

"أني متأخر فعلاً،" أجاب بطرس، ووقف في مكانه لم يتحرك، واضعاً يديه في جيوب بنطاله، لقد شهد انفجار ثورة خالة هايدي.

"ها أنتَ ذا، تقف وتحدق، ولكن ذلك لن يجعلك تتحرك،" قالت ديتا. "سوق أعطيك هذا القرش لو نزلت." ومسكت بهذه اللحظة القرش ولوحت به تحت عينيه. جعل هذا بطرس يبدأ بعجلة من أمره في النزول بصورة مباشرة عبر الممر. ووصل ثانية بوقت قصير مما جعل ديتا تثني عليه وأعطته القرش بلا تأخير. لم يحصل عادة على ذلك الكنز، لذا كان وجهه مشرقاً ورمى القرش بجيبه وهو يضحك.

" لو تريدين الصعود إلى العم هكذا، عليكِ أن تحملي الرزمة حتى نصل." قالت ديتا. كان عليهما أن يستمران في التسلق نحو منحدرا يقع بجانب كوخ بطرس. أخذ الفتى ملابس الفتاة وتبع ديتا، حيث كانت يده اليسرى تحمل الرزمة، واليمنى كانت تلوح بعصا. وكانت هايدي تقفز بجانبه بفرح وبهجة مع الماعز.

وبعد ثلاث أرباع الساعة، وصلوا جميعاً إلى القمة، حيث كوخ العم العجوز فوق الصخرة، حيث تمرح به الريح، ولكنه يستحم بأشعة الشمس. ومن هناك يمكنك أن تلمح

الوادي في الأسفل. وخلف الكوخ كانت هناك ثلاث شجرات من شجر التنوب مع فروعها المتشابكة الضخمة. وفي الخلف أكثر، تشمخ الصخور الرمادية القديمة بفرح. وفوقها ترى المراعي الخضراء الخصبة، حتى تصل إلى التخوم الصخرية لتصل إلى المنحدرات العارية.

حتى يتسنى له مراقبة الوادي، صنع العم لنفسه مصطبة بجانب الكوخ. وهناك كان يجلس، وغليونه بين أسنانه وكلتا يديه تسترخيان على ركبتيه. وكان يراقب بهدوء صعود الفتية مع الماعز وخلفهما الخالة ديتا، حيث سبقها الفتية منذ زمن. وصلت هايدي إلى القمة أولاً، وقدمت يدها إلى العجوز وأبقتها وهي تقول:

"مساء الخير يا جدي!"

"حسناً، حسناً، ما الذي يعنيه هذا؟" أجاب العجوز بصوت أجش. وقد أعطاها يده للحظة واحدة فقط، وألقى عليها نظرة متفحصة طويلة من تحت حاجبيه كثيف الشعر. نظرت هايدي إليه بنظرة مستمرة وتفحصته بفضول، حيث أن شكله كان غريباً جدا يستحق المشاهدة، بلحيته الرمادية المجعدة، وحاجبيه كثيفي الشعر، والتي التقيا في المنتصف كالدغل.

وصلت خالة هايدي في هذا الوقت مع بطرس، الذي كان متلهفا لرؤية ماذا سيحدث.

" أسعدت مساءاً يا عم،" قالت ديتا بينما كانت تتقدم. " أن هذه الفتاة هي ابنة توباز وأديلهايت. لم تستطع تذكرها، حيث أن أخر مرة شاهدتها فيها كان عمرها سنة واحدة فقط."

"لماذا جلبتيها معكِ إلى هنا؟" سألها العم، والتفت إلى بطرس وقال: "أذهب وأحضر لي ماعزي. يا لك من فتى متأخر بالفعل!"

أطاع بطرس واختفى من المكان، ونظر العم إليه بطريقة يسعده بعدها الذهاب.

" يا عم، لقد جلبت لك الفتاة الصغيرة لترعاها." قالت ديتا، " لقد قمت بواجبي طوال السنوات الأربعة الماضية وحان الآن الوقت كي توفر لها الرعاية فيه."

لمعت عينا العجوز غضباً:

"بالفعل!" قال. "وماذا علي إن أفعل بحق الأرض، لو صارت تنتحب وتبكي عليكِ؟ طالما يفعل الصغار ذلك، عندها سأقف بلا حول ولا قوة.."

" عليك أن تحل الأمر بنفسك!"ردت ديتا بحزم، " لما تركت الفتاة بحضني قبل أربع سنوات، كان علي أن أبحث عن كيفية رعايتها بنفسي ببراءة ولم يخبرني أحد ماذا علي فعله. لقد كنت أرعى أمي في حينها وكانت لدي من الأعمال ما يغنيني عنها. لا تلمني لو حاولت

أن اكسب اليوم بعضا من النقود. فلو لم تكن قادرا على رعاية الفتاة، أفعل معها ما تريد. ولو تأذت فأنت المسئول، ولكني متأكدة بأنك لا تريد أن تثقل ضميرك أكثر."

لقد قالت ديتا أكثر مما رغبت من شدة غضبها، حيث أن ضميرها كان يؤنبها. وقف العجوز عند أخر كلمة لها ورمقها بنظرة تراجعت على أثرها بضع خطوات خوفاً. قال لها واضعاً يده بصيغة آمره:

"أذهبي بعيداً! أغربي عن وجهي! وتسكعي أينما كنتِ ولا تريني وجهكِ ثانية!"

لم تحتاج ديتا إلى إن تسمع الأمر مرتين، قالت:

"إلى اللقاء يا هايدي! ووداعا يا عم!" وتوجهت نحو الجبل. ومثل النهر الجاري دفعها غضبها إلى الأمام. وركضت بصورة مروعة إلى الأسفل. ونادى عليها أهالي القرية عند نزولها أكثر مما كانوا ينادون عليها عند صعودها حيث أنهم كانوا متلهفين إن يعرفوا أين وضعت الطفلة. فهم كانوا متطلعين جيدا على الاثنين، ويعرفون تاريخهما أيضا. ولما سمعت من النوافذ أسئلة:

" أين تركتي الطفلة؟"

"أين تركتيها يا ديتا؟"

وغيرها من الأسئلة، وأجابت على تلك الأسئلة وغيرها على مضض.

" هناك في الأعلى مع العم ألم، – مع العم ألم!" واستشاط غضبها أكثر بسبب أن النساء بدأن يتكلم عنها:

"كيف لك أن تفعلي ذلك!"

"الفتاة الصغيرة المسكينة!"

" يا لها من فكرة أن تتركي فتاة لا حول لها ولا قوة هناك!"

وغيرها أكثر وأكثر

" يا عزيزتي المسكينة!"

هربت ديتا بأسرع ما يمكنها وكانت مسرورة عندما لم تعد تسمع أي مناداة عليها فقط بسبب –كي أقول الحقيقة– أنها كانت غير مطمئنه من ذلك الأمر. فقد أوصتها أمها وهي على فراش الموت بأن ترعى هايدي. ولكنها أقنعت نفسها بفكرة إنها لو جنت الكثير من المال سترعى الطفلة أكثر. وكانت مسرورة في الذهاب بعيداً عن أولئك الناس الذين يتدخلون بشؤونها الخاصة، وتطلعت بلهفة وفرح إلى مكانها الجديد.



الفصل الثاني
مع الجد

بعد إن اختفت ديتا، عاد العم وجلس على المصطبة مرة أخرى، نافخاً سحباً كبيرة من دخان الغليون. لم يتفوه بكلمة، ولكنه أبقى عينيه متسمرة على الأرض. وفي ذات الوقت، كانت هايدي تتطلع بعينيها في المكان حولها، وبينما كانت تنظر إلى حظيرة الماعز، دخلت فيها. لا يمكن لها أن ترى أي شيء في الداخل. وبينما كانت تبحث عن أشياء جديدة مثيرة للاهتمام، شاهدت ثلاث من شجر التنور العملاقة خلف الكوخ. وهنا كانت الريح تداعب أغصان تلك الأشجار فصارت قممها تمرح جيئة وذهاباً. وقفت هايدي ساكنة واستمعت. وبعد أن توقفت الريح قليلاً سارت حول الكوخ عائدة إلى جدها، ووجدته تماماً في نفس المكان، وزرعت نفسها أمامه وذراعاها مشبوكان خلف ظهرها وصارت تنظر إليه. نظر الجد نحو الأعلى فوجد الطفلة تقف بلا حراك أمامه.

"ماذا تريدين أن تفعلِ الآن؟" سألها.

"أريد أن أرى ما في داخل الكوخ،" أجابت هايدي.

"تعالي أذن،" وبهذه الكلمات نهض الجد ودخل إلى الكوخ.

"خذي أغراضكِ معكِ،" قال بصيغة آمره.

"لا أحتاجهم بعد ألان." أجابت هايدي.

التفت العجوز إلى الوراء ولمحها بنظرة ثاقبة. كانت عينا الفتاة السوداء تتلألأ متوقعة ما سيحدث لاحقاً.

"لا ينقصها الذكاء،" تمتم في نفسه. وأضاف بصوت أعلى "لماذا لا تحتاجينها بعد الآن؟"

" أريد أن أتجول في المكان مثل الماعز خفيفة القدمين."

" حسناً، يمكنكِ ذلك؛ ولكن أحملي تلك الأشياء وسوف تضعها في الخزانة."

أطاعت الطفلة الأمر. فتح الجد في هذه اللحظة الباب، وتبعته هايدي إلى غرفة فسيحة جميلة، والتي تأخذ أغلب مساحة الكوخ. وفي الزاوية استقرت طاولة وكرسي، وفي الزاوية الأخرى كان هناك سرير الجد. وعبر الغرفة تدلت غلاية فوق الموقد، وفي الجهة المقابلة كان هناك باباً غاطس في الجدار. وكان هذا هو الباب الذي فتحه الجد. لقد كانت

الخزانة، حيث حفظت كل الملابس. وفي أحد الرفوف كانت هناك بعض القمصان، والجوارب والمناشف؛ وفي رف آخر بعض الأطباق والأكواب، والأقداح، إما في أعلى رف يمكن لهايدي أن ترى قرصا من الخبز، واللحم المقدد والجبن. كان الجد يحتفظ في هذه الخزانة بكل ما يحتاجه من أجل البقاء. ولما فتح الجد الخزانة، دفعت هايدي كل ملابسها بعيدا خلف قمصان جدها أبعد ما يمكن ليديها أن تصل إليه. وكانت تنوي عدم الحصول عليها بسرعة في المستقبل. وبعد أن ركزت في النظر حول الغرفة سألت:

" أين سأنام يا جدي؟"

"أينما ترغبين،" أجاب.

كان هذا ما يروق لهايدي تماماً. تفحصت كل زاوية الغرفة ونظرت في كل ركن لتجد ذلك المكان الدافئ الذي ستنام فيه. رأت بجانب سرير الجد سلم. تسلقته، وصلت إلى مخزن حفظ القش، والذي كان مليء بقش طري ذو عطر ندي. وخلال نافذة دائرية صغيرة كانت قادرة من خلالها إن تنظر إلى كل المسافة إلى الأسفل إلى الوادي.

"أرغب بالنوم هنا في الأعلى،" نادت هايدي من الأعلى. "أوه، أن الجو هنا مثير. تعال يا جدي أرجوك، وشاهد ذلك بنفسك."

"أنا أعرف ذلك،" صاح من الأسفل.

"أني أعد فراشي ألان،" نادت الفتاة الصغيرة ثانية وهي تذهب جيئة وآياباً. "أوه، تعال اصعد، واحضر لي ملاءةً، يا جدي، حيث يجب أن يغطي كل فراش ملاءةً."

"هل الأمر كذلك؟" قال العجوز.

وبعد برهة فتح الخزانة وفتش فيها. وفي النهاية سحب قماشاً خشناً من تحت القمصان. هذا القماش يشابه نوعاً ما الملاءة، وتسلق بها إلى العلية. ها قد تم تحضير الفراش الصغير الوافر. وفي الأعلى كان القش مكوم عالياً لكي يكون النائم تماماً أمام النافذة المواجهة.

كان الجد سعيداً جداً بالترتيبات. وكان يرغب بجعل السطح القاسي بعيداً ولا يشعر به لذا ضاعف سمك الفراش. وبعد ذلك تعاون الجد مع هايدي لوضع الملاءة، وثبتت نهايته جيداً. تمعنت هايدي طويلا في فراشها الوافر الطري الجديد وقالت:

"يا جدي، لقد نسينا شيئاً."

"ما هو؟" سأل الجد.

"ليس لي غطاء. عندما أنام انسل تحت بين الملاءة والغطاء."

"ماذا الذي علينا فعله لو لم يكن لدينا غطاء؟" سأل الجد.

"لا تهتم، سوف أقوم بوضع الكثير من القش فوقي ليغطيني،" طمأنته هايدي ثانيةً، وتوجهت بسرعة نحو كومة القش حتى أوقفها العجوز.

"هلا انتظرتِ لحظة،" قال، ثم نزل إلى الأسفل نحو فراشه. وأخذ كيساً كبيراً وثقيلاً من الكتان وناوله إلى الطفلة.

"أليس هذا بأفضل من القش؟" سألها.

قلبت هايدي الكيس من الجانبين بكل قوتها، إلا إنها لم تستطع ثنيه، حيث انه كان أثقل مما تقدر يديها حمله.

وبعد تمام الأمر قالت:

"يا له من فراش جميل صار لي ألان! ويا له من غطاء رائع! كم أتمنى أن يكون المساء قد حل، حتى أذهب إلى النوم في هذا الفراش؟"

"أعتقد أن علينا أكل شيئاً ما أولاً،" قال الجد. "إلا تعتقدين ذلك؟"

لقد نست هايدي كل شيء في غمرة اهتمامها بفراشها؛ ولكن ما أن تم تذكيرها بعشائها حتى لاحظت كم هي جائعة بالفعل. فقد تناولت قطعة من الخبز وكوبا من القهوة في الصباح الباكر قبل رحلتها الطويلة. قالت هايدي باستحسان:

"أعتقد علينا ذلك يا جدي!"

"أذن علينا النزول لو وافقتِ،" قال العجوز، وسار خلفها تماماً.

وما أن وصل قرب الموقد، دفع الغلاية الكبيرة جانباً وتناول غلاية اصغر كانت معلقة بسلسلة. ثم أوقد ناراً بعد أن جلس على كرسيه ثلاثي الأقدام. ولما كان ما في الغلاية يغلي أمسك العجوز بقطعة كبيرة من الجبن بشوكة حديدية طويلة فوق النار وصار يقلبها على النار، حتى صارت جانبها ذهبية اللون. وكان هايدي تشاهده بلهفة. ثم هرعت فجاءة نحو الخزانة. ولما جلب جدها إناءاً ووضع الجبن على الطاولة. وجد إنها قد أعدت بترتيب جميل بطبقين وسكينين وقطعة الخبز في المنتصف. فقد شاهدت هايدي تلك الأشياء في الخزانة، وفهمت إنهما ضروريان عند تناول الوجبة.

"يسعدني أن أرى انك استطعت التفكير بذلك بنفسك،" قال الجد وهو يضع فيه الجبن في أعلى الخبز. "ولكن هناك شيئاً ما مفقود إلى ألان."

رأت هايدي القدر يتصاعد منه البخار فأسرعت إلى الخزانة. وكانت هناك منشفة واحدة فقط على الرف. ولم يربك ذلك تفكير هايدي أبداً، حيث إنها رأت اثنان من الأكواب تقف خلف تلك المنشفة. وعادت بتلك الأشياء الثلاثة إلى الطاولة.

" أنتِ قادرة على مساعدة نفسكِ بحق! ولكن أين ستجلسين؟" سألها الجد، والذي جلس هو على كرسيه الوحيد، فطارت هايدي إلى الموقد وأحضرت الكرسي الصغير ثلاثي الأقدام وجلست عليه.

"ها قد جلستِ ألان، ولكن هذا الكرسي منخفض جداً. في الحقيقة انكِ صغيرة جدا لدرجة تعجزين فيها عن الوصول إلى الطاولة حتى من كرسي هذا. مع ذلك، عليكِ أن تجدي شيء تأكليه في النهاية!"

وبهذه الكلمات ملء الجد الكوب الكبير بالحليب. ووضعها على كرسيه، وقربها اقرب ما يكون من كرسيها، وبهذه الطريقة استطاعت هايدي من أن يكون لها طاولة أمامها. أمرها أن تأكل القطعة الكبرى من الخبز وشريحة من الجبن الذهبية. وجلس هو بدوره في زاوية الطاولة وشرع بتناول عشائه. شربت هايدي بدون توقف، حيث إنها شعرت بظمأ شديد بعد طول الرحلة. وأخذت نفساً عميقاً ، ووضعت كوبها الكبير.

"كيف وجدتِ الحليب؟" سألها الجد.

"لم أتذوق أفضل منه،" أجابته هايدي.

أذن يجب أن تحصلِ على المزيد،" وبهذه الكلمات ملء الجد إناءها الصغير ثانيةً. أكلت الفتاة وشربت بمتعة منقطعة النظير.

وما أن شبعت، خرج الاثنان إلى حظيرة الماعز. وهناك انشغل العجوز بعمله، بينما راحت هايدي تنظر إليه بيقظة، في حين راح الجد يكنس ويعد القش الطري للماعز لتنام عليه. ثم ذهب إلى الورشة الصغيرة في الجانب وصنع كرسياً عالياً لهايدي، وهي واقفة تنظر في دهشة عظيمة.

"ما هذا؟" سألت هايدي جدها.

" أن هذا الكرسي لي. أنا واثقة من ذلك لأنه مرتفع جداً. وكم سريعا كان انجازه!" قالت الطفلة وسط اندهاش وتعجب.

"لقد عرفت ما دار حولها بمجرد وضع عينها عليه،" قال العجوز في نفسه، وهو يسير حول الكوخ مثبتاً مسماراً أو لوح خشب مخلوع هنا وهناك.

تجول في المكان وفأسه ومساميره معه مصلحاً ما يحتاج إلى تصليح. وتبعته هايدي في كل خطوة وشاهدت ما ينجزه، بمتعة ودهشة عظيمتين.

وفي النهاية حل المساء. كانت أشجار التنوب ترفرف وريحاً قوية تحوم وتعصف بقمم الأشجار. سرت تلك الأصوات في قلب هايدي وملأته بالفرح والسعادة. راحت هايدي تتقافز وتلهو وترقص حول المكان تحت الأشجار ، حيث أن تلك الأصوات جعلتها تشعر

وكأن شيئا مدهشا يحدث لها. وقف الجد قرب الباب ينظر إليها سمع فجاءة صفير حاد. وقفت هايدي ساكنة والتحق بها الجد في الخارج. وفي الأسفل من ناحية المرتفعات مرت الماعز واحد بعد الأخر، مع بطرس في وسطها. وكان يصرخ بفرح غامر عندما توجهت هايدي إلى وسط القطيع، تحيي رفاقها القدامى. ولما بلغ الجميع الكوخ، توقفوا في طريقهم، وخرج منهم معزتين جميلتين وهزيلتان، كانت الأولى بيضاء وإما الأخرى فقد كانت بنية. صعدوا جميعاً إلى الجد، والذي كان يحمل في يديه بعضا من الملح لهم، كما يفعل كل ليلة. قامت هايدي بملاطفة الأولى ثم الأخرى وبدا عليها الفرح والمرح.

"هل هذه لنا يا جدي؟ هل نملك هذين؟ هل سيذهبان إلى الإسطبل؟ هل سيبقيان معنا؟" واصلت هايدي أسئلتها بدهشة. وكان من الصعب جدا على الجد أن يجيب بـ"نعم، نعم، بكل تأكيد" بين أسئلتها المتعددة. ولما لعقت الماعز كل الملح قال العجوز:

"ادخلي يا هايدي واحضري إناءكِ والخبز."

أطاعت هايدي وعادت في الحال. حلب الجد إناءا كاملاً من المعزة البيضاء، وقطع قضمة الخبز إلى الفتاة، وأخبرها أن تأكل:

"بعدها يمكنكِ أن تذهبِ إلى الفراش. لو كنتِ بحاجة إلى بعض الأغطية أو القمصان، يمكنكِ أن تجدينها في قاع الخزانة. الخالة ديتا تركت رزمة منها لكِ. والآن تصبحين على خير، علي أن أهتم بالماعز، واقفل عليهما في الليل."

بعد برهة قصيرة من منام الفتاة وقبل أن تشتد ظلمة الليل، كان العجوز قد سعى إلى مخدعه أيضا. فقد اعتاد أن يصحو صباحاً مع شروق الشمس، التي تشرق باكراً في هذا الجانب من الجبال في تلك الأيام الصيفية. لقد كانت الليلة عنيفة وشديدة العواصف؛ كان الكوخ يرتج مع كل عصفة للريح، وكانت كل الألواح الخشبية تصر. هبت الريح عبر المدخنة وكانت أشجار التنوب القديمة تهتز بقوة إلى درجة أن الكثير من الأغصان اليابسة تكسرت وسقطت. وفي منتصف الليل استيقظ الجد، قائلاً لنفسه:

"أني متأكد من إنها خائفة."

وتسلق السلم، وتوجه إلى الأعلى حيث فراش هايدي. في اللحظة الأولى كان كل شيء غاطاً في الظلام، وما هي إلا برهة حتى بزغ القمر من خلف السحب وأرسل بريق نوره عبر سرير هايدي. كانت وجنتاها متقدتان حمرة، وكانت راقدة بسلام حول ذراعاها المدورتان والمكتنزتان باللحم. لقد كانت بلا شك تحلم بأحلام سعيدة، حيث إنها كانت تبتسم في نومها. وقف الجد وراقبها حتى غطت السحب القمر وتركت كل شيء في ظلام دامس. ثم نزل لينام في سريره ثانيةً.



الفصل الثالث

في المراعي

استيقظت هايدي في الصباح الباكر من اليوم التالي بسبب الصفير المرتفع. وبعد أن فتحت عيناها، شاهدت فراشها الصغير والقش بجانبها يسبحان في أشعة الشمس الذهبية. لبرهة غاب عن بالها أين هي، ولكن ما أن سمعت صوت الجد الأجش في الخارج، استعادت ذاكرتها وتذكرت كل شيء. تذكرت كيف أتت إلى الجبل البارحة وكيف تركت اورسولا العجوز، تلك التي ترتعش في كل حين من البرد وتقبع طوال اليوم قرب الموقد. ولما كانت هايدي تعيش مع اورسولا، كانت مجبرة أن تبقى في المنزل لا تغادره، حيث يمكن لعجوز أن تراقبها. ولان اورسولا كانت صماء، فأنها كانت تخشى أن تترك هايدي تلعب في الخارج، لطالما كانت مغتاظة في غرفتها الضيقة وتشتاق إلى اللعب في الخارج. لذا كانت منبتقة ومبتهجة لتجد نفسها في منزلها الجديد وبالكاد تستطيع الانتظار لرؤية الماعز ثانيةً. قفزت من السرير وارتدت ملابسها الخفيفة بوقت قصير ونزلت السلم وهرعت إلى الخارج. كان بطرس موجود فعلاً مع قطيعه في الخارج، بانتظار شفانلي وبارلي ، واللذان كان الجد يحضرهما لتلحقا بالقطيع.

"هل تريدين الذهاب معه إلى المروج الخضراء؟" سألها الجد.

"نعم،" صاحت هايدي، وهي تصفق بيديها.

"أذهبي الآن واغتسلي أولاً، حيث أن الشمس ستضحك عليكِ لما تراكِ قذرة كما أنتِ. كل شيء جاهزاً هناك." أضاف، وهو يشير إلى حوض الماء الواسع الواقف تحت الشمس. فعلت هايدي ما أمرت به، واغتسلت وفركت نفسها حتى توهجت وجنتاها. وفي تلك الإثناء، نادى الجد على بطرس ليأتي إلى الكوخ وان يجلب حقيبته معه. وتبع الفتى العجوز والذي أمره أن يفتح الحقيبة التي تحمل عشائه الفقير. وضع الجد في الحقيبة قطعة من الخبز وشريحة من الجبن، والتي هي ضعف ما لدى الفتى أصلاً في الحقيبة.

"سوف أملأ الإناء بالحليب أيضاً،" قال العم: "حيث أن الفتاة لا تعرف كيف تشرب من الماعز مباشرةً، نفس ما تفعل. سوف تبقى معك طوال النهار. لذا عليك أن تملأ إناءين بالكامل من اجل عشائها. وأنتبه كي لا تسقط فوق الصخور! هل سمعت؟"

وبهذه اللحظة جاءت هايدي تركض.

"يا جدي، هل لا زالت الشمس تضحك علي؟" سألته.

لقد فركت الطفلة نفسها بقوة بالمنشفة الخشنة التي وضعها الجد قرب الحوض والتي جعلت من وجهها ورقبتها وذراعاها حمراء كالسلطعون. قال الجد وهو يبتسم:

"كلا، لا يمكنها أن تضحك عليكِ بعد الآن؛ ولكن عندما ترجعين إلى المنزل في المساء، عليكِ أن تتوجهين إلى الحوض كالسمكة. فعندما يلعب الفرد مع الماعز طوال اليوم تتسخ قدماه. هيا أذهبِ!"

وانطلقا متجهين إلى جبال الألب. كانت السماء ذات الزرقة الغامقة الصافية بلا سحب فوقهم، حيث أن الريح العاتية قد جرت كل السحب الصغيرة في الليل. وكان سفح الجبل الأخضر الندي قد استحم بضوء الشمس الناصع، وتفتحت الكثير من الزهور الزرقاء والصفراء. وكانت هايدي شديدة البهجة وتركض من مكان إلى أخر. في احد الأمكنة رات الكثير من اللوحات الفنية الرائعة من حقول الزهور وفي بقعة أخرى هناك زهور الجنطانيا التي تتألق بين الأعشاب، وفي كل مكان هناك زهور الصخور الذهبية التي تومئ إليها. وفي رحلتها بحثاً عن الكنوز، نست هايدي حتى أمر بطرس والماعز. فقد كانت تركض أمامه لمسافة بعيدة ثم ضلت في احد الجوانب، حيث أن الزهور المتألقة أغرتها هنا وهناك. وبعد أن قطفت باقات عديدة منها كي تأخذها معها إلى المنزل، وضعتها جميعا في مئزرها.

إما بطرس والذي بقيت عيناه تحومان في المكان ببطء، فقد أمضى وقتاً صعبياً في البحث عنها. إما الماعز فقد كانت أسوء، فأنها فقط عن طريق التصفير والصياح والضرب بغصن الأشجار تتجمع سوية ثانيةً.

"يا هايدي، أين أنتِ ألان؟" صاح بغضب.

"هنا،" صاحت من مكاناً ما.

لم يتمكن بطرس من رؤيتها، حيث إنها كانت تجلس على الأرض خلف الركام الصغير، والذي كان مغطى بالزهور. وكان الجو مليئا بعطرها، فقد كانت الطفلة تستنشقها جميعا بنفس عميق.

"اتبعيني ألان!" نادى عليها بطرس." أخبرني الجد أن اعتني بكِ، لا يجب عليكِ أن تسقطي من فوق الصخور."

"أين هي؟" سألت هايدي بخمول.

"في الطريق إلى الأعلى، وعلينا أن نسير إلى مسافة أطول. لو فقط تكونين سريعة، يمكنكِ أن تري النسر وتسمعينه يزعق."

كان هذا مغرياً فعلاً لهايدي، لذا ركضت نحو بطرس، مع مئزراً مليئاً بالزهور.

"لديكِ ما يكفيكِ الآن،" قال معلناً." لو جمعتها كلها اليوم، فلن تبقى أي زهرة للغد."
اعترفت هايدي بذلك إلى جانب أن مئزرها مليء بالزهور فعلاً. ومن تلك اللحظة بقت إلى جوار بطرس. إما الماعز فبعد أن استنشقت عطر العشب الحاد صارت تعدوا بكل سرعتها.

اخذ بطرس معظم وقته من هذا النهار في جرف المنحدر الصخري، والذي كان يبدو وكأنه يبلغ السماء. كما أن الصخور المعلقة على أطرافه تجعله خطيراً، لهذا السبب كان الجد حكيماً في تحذير بطرس.

وبعد أن بلغا وجهتهما، نزع الفتى حقيبته، ووضعها في ثقب صغير في الأرض. حيث أن الريح عاتية تعصف بالأشياء هنا، ولا ينوي بطرس التضحية بحمله الوافر. وبعدها استلقى على العشب التي سخنته الشمس، من شدة تعبه.

خلعت هايدي مئزرها، لفته ووضعته سوية مع حقيبة بطرس. ثم، بعد أن جلست بقرب الفتى، نظرت في المكان حولها. في الأسفل على مسافة بعيدة رأت الوادي يتلألأ، وحقلاً من الزهور الثلجية أمامها في الأعلى. جلست هايدي لفترة طويلة بدون أن تفعل أي شيء، تشاهد بطرس إلى جانبها غارقاً في النوم والماعز تتسلق بين الشجيرات. هب نسيم خفيف على وجنتيها وتلك الجبال الشاهقة جعلتها سويةً تشعر بالسعادة كما لم تفعل من قبل. نظرت إلى قمم الجبال حتى ظنت إنها كلها لها وجوه، وسرعان ما صارت مألوفة لديها، وكأنها أصدقاء قدامى. وفجاءة سمعت صرخة عالية وحادة، ونظرت إلى الأعلى ورأت أكبر طائر وقع على نظرها، يحلق فوق رأسها. يطير بجناحين مفرودين بتحليق على شكل دائرة فوقها.



"استيقظ يا بطرس!" نادت عليه. "انظر إلى الأعلى، يا بطرس، وانظر إلى هذا النسر هناك!"

استيقظ بطرس وسرعان ما صار الاثنان يحملقون بالطائر حابسين أنفاسهما. وكان يحلق أعلى وأعلى نحو السماء الزرقاء، حتى اختفى وراء قمة الجبل.

"أين اختفى؟" سألت هايدي.

" إلى بيته، انه العش،" هكذا أجاب بطرس.



"أوه، هل يعيش فعلاً هناك؟ يا له من شيء جميل! ولكن أخبرني لماذا يصرخ بصوت مرتفع هكذا؟" تساءلت هايدي.

"ذلك ما يجب أن يفعله،" رد عليها بطرس.

"أوه، دعنا نتسلق إلى عشه!" التمست هايدي، ولكن بطرس، عبر لها عن رفضه البادي في صوته فقال: "أوه، يا عزيزتي، ولا حتى الماعز تستطيع التسلق إلى هناك! ثم أن الجد أخبرني أن لا أجعلكِ تسقطين أسفل الصخور، لذا لا يجب عليكِ الذهاب."

بدأ بطرس الآن ينادي بأعلى صوته ويصفر، وسرعان ما صارت كل الماعز متجمعة في الحقل الأخضر. وركضت هايدي إلى وسطها، حيث إنها كانت تحب أن ترى الماعز تتقافز وتدور وتلعب في المكان.

وكان بطرس في هذه اللحظة يعد العشاء لهايدي ولنفسه، بعد أن وضع قطع كبيرة لها إلى جانب قطعة صغيرة له. ثم أحلب بارلي ووضع الإناء الكبير في الوسط. ولما جهز، نادى على الفتاة الصغيرة. ولكن الأمر اخذ وقتاً طويلاً حتى لبت نداءه.

"توقفي عن القفز الآن،" قال بطرس، "واجلسِ أن عشائكِ جاهز."

"هل هذا الحليب لي؟" تساءلت هايدي.

"نعم انه كذلك، وتلك القطع الكبيرة أيضا هي لكِ. وإن انتهيتِ منه سوف اجلب لك المزيد. وبعد ذلك سوف اجلب لي حليباً."

"أي حليب جلبت لي؟" تساءلت هايدي.



"لقد جلبته من ماعزي، تلك المنقطة هناك. ولكن هيا كلِ!" أمرها بطرس ثانيةً.

وأطاعت هايدي، ولما فرغ الإناء، ملئه ثانيةً. قطعت لنفسها قطعة من الخبز وأعطت لبطرس ما تبقى، والتي كانت اكبر مع ذلك من حصته. وناولته أيضا شريحة الجبن بأكملها، ثم قالت:

"يمكنك أن تأكل هذه، لدي ما يكفي!"

كان بطرس غير قادر على الكلام ومتفاجئ، حيث لم تحدث معه وان أعطى لأحد حصته. تردد في أخذ الطعام لاعتقاده أن هايدي غير جادة في العرض، حتى

وضعته هايدي على ركبتيه. وفهم عندها أن الفتاة قصدت ذلك، وقبض على جائزته. وبعد أن أومأ شاكراً إياها، التهم أكثر الوجبات التي تناولها ثراءً في حياته كلها. وكانت هايدي في تلك اللحظات تشاهد الماعز، وتسأل بطرس عن أسمائها.

يمكن لبطرس أن يسميها جميعا لهايدي، حيث أن أسماء تلك الحيوانات هي كل ما يمكن لرأسه أن يحمله. وسرعان ما عرفتهم هايدي، أيضا، حيث إنها كانت تصغي بانتباه. احدهما كان اسمه التركي الضخم، وهو الذي يحاول دوما وضع قرنيه في أجساد الآخرين. ومعظم الماعز تهرب من رفيقهم العنيف. وفقط الشجاع ثيستلفينج الوحيد الذي كان غير خائف، حيث انه يضرب الآخرين بقرنيه ثلاث أو أربع مرات، وهو الأمر الذي أدهش التركي الضخم بكل شجاعته، توقف عن القتال، حيث أن ثيستلفينج يمتلك قروناً حادة وقد التقى به في شبه حرباً ضارية. وهناك معزة صغيرة بيضاء اسمها النطاط الأبيض، والتي استمرت تثغو بطريقة مثيرة للشفقة والتي بدورها استمالت عطف هايدي وراحت تواسيها لأكثر من مرة. ذهبت هايدي للمرة الأخيرة إلى ذلك المخلوق الصغير ورمت بيديها حول عنقها وسألت:

"ما هي مشكلتك؟ يا النطاط الأبيض؟ لماذا تطلب المساعدة دوماً؟" التصق الماعز الصغير بطرف هايدي وهدأت. ولا زال بطرس يأكل، ولكن بينما كان يبتلع كان يقول لهايدي:

"إنها حزينة، بسبب أن المعزة الكبيرة قد تركتنا. حيث إنها بيعت إلى شخص أخر في ماينفيلد قبل يومان فقط."

"ومن كانت المعزة الكبيرة؟"

"أمها، بالطبع."

"وأين جدتها؟"

" لم تمتلك جدة قط."

"وهل لها جد؟"

"ولم يكن لها جد أيضاً."

"يا للصغير المسكين يا النطاط الأبيض!" قالت هايدي، وسحبت المخلوق الصغير بلطف إليها. "لا تحزن بعد الآن، أنظر، سوف اصعد معك كل يوم منذ ألان، ولو كانت هناك أي مشكلة، ما عليك إلا الحضور إلي."

مسح النطاط الأبيض رأسه مقابل كتف هايدي وتوقف عن الثغاء. ولما انتهى بطرس من عشائه التحق بهايدي.

ولاحظت هايدي للتو أن المعزتين شفانلي وبارلي كانتا أجمل معزتين والأنظف بينهما على الإطلاق. لقد كانتا تتجنبان الفضولي التركي الضخم بنوع من الازدراء ويحاولان دوماً الحصول على العشب الأكثر اخضراراً لنفسهما. وذكرت هايدي ذلك لبطرس، والذي أجاب:

"أعلم ذلك! بالطبع أنهما الأفضل، بسبب أن العم يغسلهما ويعطيهما الملح. ولديه أفضل إسطبل على الإطلاق."

وفجاءة قفز بطرس الذي كان مستلقياً على الأرض ووثب خلف الماعز. تبعته هايدي على علم منها بأن شيئاً ما قد حدث. رأته يعدو نحو هاوية خطيرة في الجانب. وقد لاحظ بطرس كيف أن ثيستلفينج كان يقترب رويداً رويداً من تلك البقعة الخطيرة. وحضر بطرس في الوقت المناسب تماماً لمنع المعزة من السقوط على الحافة. ولسوء الحظ، زلت قدم بطرس فوق صخرة نتيجة استعجاله وما كان إلا أن مسك المعزة من قدمها. وثغى ثيستلفينج بغضب بعد أن استفزه بطرس بإيقافه من الذهاب إلى البقعة الممتعة. وطلب بطرس النجدة لعدم مقدرته على النهوض مرة أخرى. وشاهدت هايدي أن بطرس بالكاد يتمسك بقدم المعزة. فالتقطت بعضاً من الأعشاب ذات العطر الزكي وقربتها على انف المعزة، وقال بنعومة:

"تعال، تعال، يا ثيستلفينج وكن رقيقاً. فقد تقع هناك وتكسر ساقك. وهذا سيؤذيك بشدة."

التفتت المعزة وبدأت تلهم العشب الذي كانت هايدي تحمله بيدها. ولما نهض بطرس على قدميه، اعتلى الممر الصخري بمساعدة من هايدي. ولما وضع المعزة في مكان أمين، رفع غصنه ليضرب تلك المعزة معاقباً إياها. تراجعت المعزة بخجل، حيث إنها علمت بما حدث. صرخت هايدي بصوت مرتفع:

"بطرس، كلا، لا تفعل هذا، لا تضربها! أنظر كم هي خائفة."

"يستحق الضرب،" زمجر بطرس، وكان على وشك أن يضرب. إلا أن هايدي قبضت على يده، وصاحت بسخط شديد: "لا يجب عليك أن تؤذيها، دعها تذهب!"

كانت عينا هايدي تتلألأ ، وما أن رأى بطرس تلك الحالة من الحزن الشديد التي بدت عليها رمى الغصن وتوقف عن فعل ما كان ينوي فعله.

"سأتركها تذهب، لو منحتني قطعة من الجبن غداً،" قال، حيث أراد أن يعوض جزءاً من خوفه.

"سوف أعطيك الجبن غداً، ذلك لأني لا أحتاجها،" وعدت هايدي. "وسوف أعطيك قطعة كبيرة من الخبز، لو وعدتني بعدم ضرب أي من الماعز مرة أخرى."

"لا أهتم،" قال بطرس متذمراً، وبهذه الطريقة عبر عن وعده.

وهكذا مضى اليوم، والشمس قد غرقت بالفعل خلف الجبال. نظرت هايدي وهي جالسة على الأرض إلى الزهور الجرسية الزرقاء والأزهار البرية التي كانت تبرق في آخر أشعة للشمس. وبدأت قمم الجبال تلألأ أيضا. وفجاءة نادت هايدي على الفتى:

"أوه، يا بطرس، أنظر! أن هذا القمر فوق يحترق، أيضا. إلا ترى أن السماء كلها تتوهج؟ أوه، يا لجمال الجليد! بطرس، أنا متأكدة أن عش النسر يحترق، أوه، وأشجار التنوب هناك في الأعلى أيضا!"

كان بطرس يقشر الغصن بيده بهدوء، وينظر إلى الأعلى، وقال لهايدي:

"هذه ليست ناراً؛ يبدو الأمر دوما بهذه الصورة."

"وما هي أذن؟" سألت هايدي بتلهف، وهي تتطلع حولها في كل مكان.

"أن الأمر يتحول بهذه الصورة من تلقاء نفسه،" شرح لها بطرس.

"أوه، أنظر! أن كل شيء استحال إلى الوردي ألان! أوه، أنظر، هناك إلى هذا الجبل وعلى قمته الجليد والقمم الحادة. ما هو اسمه؟"

"ليس للجبال أسماء،" أجابها.

"أوه، أنظر، يا لجماله! يبدو الأمر كما لو أن ملايين الزهور تتفتح على جرفه. أوه، إنها تتحول إلى الرمادي ألان. أوه يا عزيزتي! لقد انطفأت النار وكل شيء انتهى. يا له من أمر مريع!" قالت هايدي بحالة من الجزع.

" سوف يتكرر الأمر ثانيةً غدا،" طمأنها بطرس، "تعالي الآن، علينا العودة إلى المنزل."

وما أن نادى بطرس على ماعزه وجمعها، حتى نزلوا جميعا.

"هل سيتكرر الأمر هكذا كلما صعدنا إلى الجبال؟" سألت هايدي بلهفة.

" عادة ما يحصل هذا،" أجابها.

" ماذا عن الغد؟" تساءلت هايدي.

"سيتكرر الأمر غداً، أنا متأكد،" أكد بطرس.

جعل هذا الجوب هايدي تشعر بالسعادة مرة أخرى. وسارت بهدوء متمسكة بطرف بطرس، وهي تفكر بكل الأشياء الجميلة الجديدة التي رأتها. وفي النهاية، ما أن بلغوا الكوخ، وجدا أن الجد ينتظرهما عند المصطبة تحت شجر التنوب. ركضت هايدي نحو الجد وتبعتها المعزتان، حيث أنهما تعرفان سيدهما. نادى بطرس عليها:

"تعالي في الغد مرة أخرى! عمتِ مساءاً!"

مدت هايدي يدها لبطرس وأكدت له مجيئها، وبعد أن أحيطت بالماعز من كل مكان، عانقت النطاط الأبيض للمرة الأخيرة.

اختفى بطرس، وعادت هايدي إلى جدها.

"أوه يا جدي! لقد كان الأمر جميلاً! لقد رأيت النار والزهور في الصخور! ورأيت الآف الزهور وجلبتها لك!"

وبتلك الكلمات رمت هايدي الزهور خارج مئزرها. ولكن، أوه، يا لمنظرها المأساوي. حتى إنها لم تتعرف إليها بعد الآن.

"ماذا حل بهما يا جدي؟ لقد بدت مختلفة!" تعجبت هايدي بخوف.

"خلقت لتعيش تحت الشمس لا أن تحبس تحت المئزر،" قال الجد.

"أذن علي أن لا اقطف منها المزيد بعد ألان! أرجوك يا جدي أخبرني لماذا يصرخ النسر بصوت مرتفع،" سألت هايدي.

"أولا أذهب واستحمي، بينما أذهب إلى الحظيرة لجلب الحليب لكِ. وبعدها سندخل سوية إلى الداخل وسوف أخبركِ كل شيء خلال تناولنا للعشاء."

وفعلت كل ما مطلوب منها، ولما جلست هايدي على كرسيها المرتفع وأمامها الحليب، سألت نفس السؤال.

"ذلك لأنه يسخر من الناس الذي في الأسفل، والذي يجلسون في تلك القرى ويغيض احدهم الأخر. وهو ينادي عليهم "لو فقط تصعدون إلى الأعلى وتعيشون مثلي، فسوف تشعرين بشعور أفضل بكثير!" قال الجد تلك الكلمات الأخيرة بصوت أجش، حتى أن هايدي تذكرت صوت النسر نفسه.

"لماذا ليس للجبال أسماء، يا جدي؟" سألت هايدي.

"كل الجبال لها أسماء، ولو وصفتي لي أشكالها، أخبركِ باسمائها."

وصفت هايدي العديد منها للعجوز الذي راح يسميها لها. وراحت الطفلة تخبره بكل شيء حدث في هذا اليوم، وبالخصوص النار العجيبة. وسألته عن سبب حدوثها.

"الشمس هي المسببة،" شرح لها. "وهي تقول طبتم مساءاً يا جبال، وهي ترمي بأشعتها الجميلة عليها، كي لا تنساها حتى حلول الصباح."

كان هايدي مسرورة كل السرور بذلك الشرح، حتى إنها صار من الصعب عليها الانتظار حتى تتكرر تلك التحية مرة أخرى. وحان الموعد الآن للذهاب إلى الفراش، وغطت هايدي بنوم عميق طوال الليل. حلمت بالنطاط الأبيض الصغير في كل مكان بسعادة في الجبال البراقة مع الكثير من الزهور المتلألئة المتفتحة حولها.



الفصل الرابع
في كوخ الجدة

في الصباح التالي جاء بطرس مرة أخرى مع ماعزه، وذهبت معه هايدي إلى المراعي الخضراء. وتكرر حدوث ذلك في كل يوم، وبهذه الحياة الصحية نمت هادي أقوى وأقوى، وحرقت الشمس بشرتها أكثر. وسرعان ما حل الخريف، وصارت الريح تهب بين الجبال، وقال الجد لها:

"عليكِ المكوث في المنزل هذا اليوم يا هايدي؛ حيث أن الريح ستنسف أي كائن صغير مثلكِ وترميه في الوادي بعصفة واحدة."

لقد كان بطرس يشعر بالضيق والحزن في كل مرة لا تذهب معه هايدي، حيث انه لا يرى سوى سوء الحظ أمامه، فهو يعجز عن ما معرفة ما يفعله ليقضي به وقته، بالإضافة إلى انه يحرم من عشائه الوافر. واعتادت الماعز على هايدي في هذا الوقت، حتى إنها لا تتبع بطرس إذا كانت هايدي معه.

لكن هايدي لم تمانع البقاء في المنزل، حيث إنها أكثر شيء عشقته رؤية الجد بفأسه والمنشار بيده. في بعض الأحيان يقوم الجد بإعداد بعضا من الجبن الدائري في تلك الأيام، ولم تكن هناك متعة مناظرة لمتعة هايدي عندما تشاهده يمزج الزبدة بيديه العاريتين. وعندما تعصف الريح عبر شجر التنوب في تلك الأيام العاصفة، تركض هايدي نحو الأجمة فرحة وسعيدة بتراقص الأغصان. وفقدت الشمس نشاطها، وصار لازماً على الطفلة أن ترتدي حذائها وجواربها مع ثوباً صغيرا أخر.

وصار الجو ابرد شيئاً فشيئاً، ولما كان بطرس يأتي في الصباح، كان عليه أن ينفخ في يديه، حيث كان متجمد. وفي النهاية لم يعد بطرس قادراً على المجيء بعد الان، بسبب تساقط الثلج طوال الليل بكثافة. وقفت هايدي عند النافذة، تشاهد الثلج يتساقط. واستمرت تثلج حتى وصل الثلج إلى النوافذ؛ ولا زالت تثلج بدون توقف، حتى أن النوافذ لم تعد تفتح، وأغلقت كلها. ولما استمر الأمر عدة أيام اعتقدت هايدي أن الثلج سيغطي الكوخ بأكمله. وتوقف الثلج في نهاية الأمر، وراح الجد يحفر الطريق بواسطة المجرفة ليبعد الثلج عن الباب والنوافذ، واضعاً إياه على شكل أكوام هنا وهناك. وبعد الظهر كان الاثنان يجلسان عن الموقد لما سمعا ضجيج خطوات في الخارج وفتح الباب. لقد كان هذا بطرس، والذي جاء متلهفا لرؤية هايدي. دمدم:

"مساء الخير،" توجه نحو النار. كان وجهه متوهج، وكان على هايدي أن تضحك لما رأت الشلالات تجري من على وجهه، حيث أن كل الثلج والصقيع قد ذاب من شدة الحر.

سأل الجد بطرس عن كيفية الوصول إلى المدرسة. وكانت هايدي مهتمة بالأمر حتى إنها سألت مئات من الأسئلة. المسكين بطرس، والذي لم يكن متحدثا، وجد نفسه في صعوبة بالغة في الإجابة عن تساؤلات الفتاة الصغيرة، ولكن في النهاية استطاع أن يجد الوقت الكافي في تجفيف ملابسه.

وإثناء المحادثة، كانت عينا الجد تتلألئان، وفي النهاية قال للفتى:

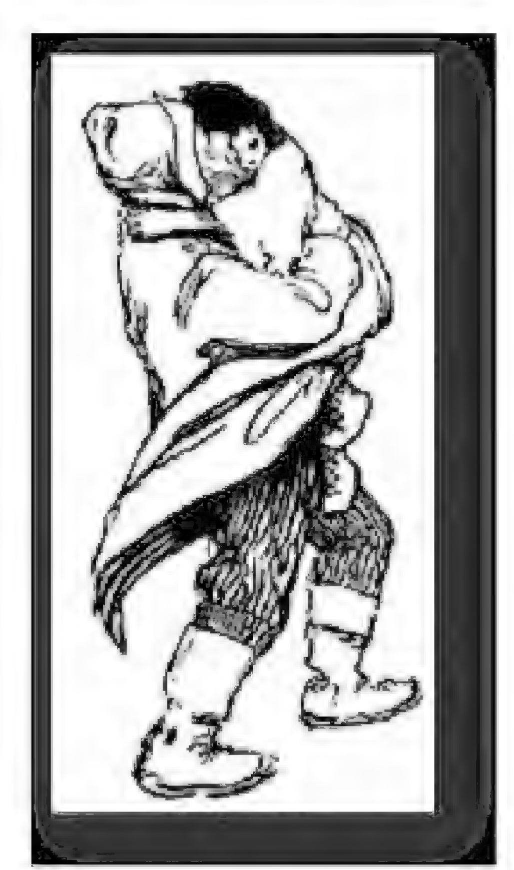
"والآن بعد وقوفك طويلاً تحت النار، عليك أن تتقوى، تعال وتناول العشاء معنا."

وبهذه المناسبة أعد الجد وجبة وفيرة تلبي شهية بطرس. وبدا الليل يحل، وعلم بطرس انه حان الوقت للرحيل. ودع الجد وشكره والتفت إلى هايدي وقال:

"سوف أتي في الأحد القادم، أن استطعت. بالمناسبة، يا هايدي أن جدتي سألتني أن أخبركِ بأنها تود أن تراكِ."

سرعان ما أعجبت هذه الفكرة هايدي، وكانت أول كلماتها في الصباح التالي هي:

"جدي، علي النزول إلى الجدة. فهي تتوقع أن تراني."



بعد مرور أربعة أيام، أشرقت الشمس وصار الصقيع المتجمد المكوم يفرقع تحت الإقدام. وكانت هايدي تجلس على طاولة العشاء، وتتوسل إلى الرجل العجوز أن يسمح لها بتلك الزيارة، حتى نهض، وجلب لها غطاءا ثقيلاً، وقال لها أن تتبعه. وخرجا في الجليد المتلألئ، ولم يكن هناك أي صوت يسمع، وكانت أشجار التنوب تحمل الثلج الفضي الذي يلمع تحت أشعة الشمس. وكانت هايدي خلال رحلتها تعدو هنا وهناك.

"جدي، تعال إلى هنا! أوه، أنظر إلى تلك الأشجار! كلها مغطاة بالفضة والذهب،" نادت على جدها، والذي كان قد خرج للتو من ورشته مع مزلجة واسعة.

وضع الجد الفتاة الصغير في المزلجة بعد أن لفها جيداً بالغطاء، وتمسك بها بقوة وانطلقا بسرعة. وما أن انطلقا بتلك السرعة حتى صرخت هايدي فرحاً، حيث بدت وكأنها تطير مثل العصفور. وتوقفت المزلجة تماماً أمام كوخ بطرس، وقال الجد:

"أدخلي. وعودي عند حلول المساء."

ولما فك الغطاء عنها رجع قافلاً إلى منزله بالمزلجة.

ما أن فتحت هايدي الباب حتى وجدت نفسها في مطبخ صغير مظلم، ودخلت في باب أخر، حتى دخلت إلى غرفة ضيقة. وكانت امرأة تجلس قرب الطاولة، مشغولة في ترقيع معطف بطرس، والتي سرعان ما ميزته هايدي. بينما كانت امرأة عجوز محدودبة الظهر تجلس في الزاوية، قالت هايدي وهي تقترب نحو العجوز:

"كيف حالكِ، يا جدتي،؟ ها قد جئت ألان، وأتمنى أن لا أكون قد جعلتكِ تنتظرين طويلاً!"

رفعت العجوز رأسها وسعت إلى الحصول على يد هايدي، وتحسسته بتمعن، وقالت:

"هل أنت الطفلة الصغيرة التي تعيش مع العم؟ وهل أسمكِ هايدي؟"

"نعم،" أجابت هايدي." لقد أحضرني جدي معه في المزلجة."

"كيف حدث هذا؟ أن يداكِ دافئتين كالخبز المحمص! يا بريجيدا، هل أتي العم فعلاً مع الفتاة؟"

نهضت بريجيدا، والدة بطرس، وصارت تنظر إلى الطفلة. وقالت:

"لا أعرف لو كان قد فعل حقاً. فهي حتماً لا تعرف."

قالت هايدي بحسم وهي تنظر إلى الأعلى:

"بلا أني اعلم، لقد لفني جدي بغطاء لما نزل إلى هنا."

"لقد كان بطرس محقا بأي حال،" قالت الجدة. "لقد اعتقدنا أن الطفلة لا تقاوم العيش معه أكثر من ثلاث أسابيع. يا بريجيدا، كيف تبدو الفتاة."

"لديها جسم أديلهايت الجميل وعيناها السوداء، وشعر توباز والعجوز المجعد. أعتقد أن الفتاة تشبه الاثنان."

بينما كانت المرأتين تتحدثان استوعبت هايدي كل شيء. ثم قالت:

"يا جدتي، أنظري إلى مصراع النافذة في الأعلى. أنه غير ثابت. لو فقط جدي كان هنا، فسوف يصلحه. أن لوح النافذة الزجاجي على وشك السقوط! فقط أنظري إليه."

"يا لكِ من فتلة لطيفة جداً،" قالت الجدة بعطف. "يمكنني أن أسمع ذلك، ولكن لا يمكنني أن أراه، يا فتاتي. أن هذا الكوخ يصدر العديد من الصرير والقعقعة، ولما تهب

الرياح العاتية فانها تعبر من كل مكان. في يوماً ما سيقع البيت بأكمله ويتناثر إلى قطع فوق رؤوسنا. فلو كان بطرس يعرف كيف يصلحه! فليس لدينا أي شخص غيره."

"لماذا لا يمكنكِ رؤية المصراع، يا جدتي؟" سألت هايدي.

"يا طفلتي، أنا لا أرى أي شيء." قالت العجوز وهي تنتحب.

"هل ستتمكنين من رؤية أي شيء لو فتحت النافذة وجعلت الضوء يدخل؟"

"كلا، ولا حتى عندها. لا يمكن لآي أحد أن يريني النور ثانيةً."

"ولكن ترين حتماً لو خرجتِ في الخارج على الجليد، حيث كل شيء هناك براق. تعالِ معي، يا جدتي. سوف أريكِ!" حاولت هايدي وهي تأخذ العجوز من يدها أن تقودها إلى الخارج. كانت هايدي خائفة وفي كل لحظة تزداد قلقاً.

"اتركيني هنا فقط، يا فتاتي. كل شيء بالنسبة لي مظلماً وعيناني العاجزتان لا يمكنهما أن تريان النور أو الجليد."

"ولكن يا جدتي، هل تبصرين في الصيف، حيث تشع الشمس لتوديع الجبال، وتجعلهما تحترق؟"

"لا يا فتاتي، لا يمكنني رؤية الجبال الجميلة بعد ألان. علي العيش في الظلام، دائماً."

وانفجرت هايدي بالبكاء وبدأت تنتحب بصوت مرتفع.

"هل لأحد أن يجعلكِ تبصرين؟ هي يمكن لأحد فعل ذلك، يا جدتي؟"

حاولت الجدة بقدر الإمكان أن تريح الفتاة، فقد جرح قلبها رؤية الفتاة في ذلك الغم الشديد. وكان من الصعب على هايدي أن تتوقف عن البكاء ما أن بدأت، بسبب أنها نادراً ما تبكي. قالت الجدة:

"يا هايدي، دعيني أخبركِ بشيء ما. أن الأشخاص غير القادرين على الرؤية، يعشقون الاستماع إلى الكلمات الودودة. أجلسي قربي، وأخبريني كل شيء عن نفسكِ. أخبريني عن جدكِ، حيث مر وقت طويل منذ أن سمعت شيئاً عنه. لقد كنت أعرفه جيداً."

وسرعان ما مسحت هايدي عيناها، فقد أتتها فكرة مذهلة.

"يا جدة، سوف أخبر جدي عن ذلك، وأنا متأكدة من انه قادر على إرجاع النور أليكِ. يمكنه أصلاح المنزل الصغير ويوقف الصرير."

بقيت العجوز صامتة، وراحت هايدي بحيوية فائقة وصف حياتها مع الجد. وكانت ألامرأتين تقولان بين الحين والأخر بينما كانتا تصغيان بلهفة:

"هل سمعتِ ما قالته عن العم؟ هي أصغيتِ؟"



وفجاءة قطع طرقاً شديدا على الباب حكاية هايدي، ومن غير بطرس قد يكون الزائر. وسرعان ما رأى هايدي. ثم ابتسم، وفتح عيناه على وسعهما. وصرخت هايدي:

"مساء الخير يا بطرس!"

"هل هو الوقت المعتاد لرجوع بطرس!" قالت جدة بطرس بتعجب. "كيف طار الوقت بسرعة، يا صغيري بطرس، كيف صارت قراءتك الآن؟"

"لا زالت نفسها،" أجاب الفتى.

"أوه يا عزيزي، كنت أتأمل أن تتحسن في النهاية. أنت ألان في الثانية عشر، يا ولدي."

"ولماذا قد يكون هناك أي تغير؟" سألت هايدي باهتمام بالغ.

"أني أخشى انه غير قادر على تعلمها ابدً. هناك على الرف كتاب قديم لتلاوة الصلوات بأناشيد شجية. لقد نسيتها كلها، حيث أني لم اعد اسمعها بعد ألان. وتقت إلى أن أجعل بطرس قادراً على قراءتها لي يوماً، ولكنه سوف لن يكون قادراً على فعل ذلك!"

توقفت والدة بطرس من عملها في هذه اللحظة وقالت:

"علي أن أشعل نوراً. فالعصر قد شارف على الانتهاء وبدأت تظلم."

وما أن سمعت هايدي تلك الكلمات حتى بدأت بالتوديع وهي تنشر ذراعيها، وقالت:

"عمتم مساءاً. علي الذهاب الآن حيث أنها بدأت تظلم."

صاحت الجدة بقلق:

"انتظري يا طفلتي، لا تصعدي إلى هناك لوحدكِ! أذهب معها يا بطرس، وأنتبه كي لا تسقط الفتاة. ولا تجعلها تبرد، هل تسمعني؟ هل مع هايدي أي شال؟"

" ليس لدي واحد، ولكن سوف لن اشعر بالبرد،" أجابت هايدي، وهي تخرج من الباب.

ركضت بسرعة إلى درجة أن بطرس بالكاد كان قادراً على اللحاق بها. نادت الجدة بقلق:

"يا بريجيدا، اركضي خلفها واحضري لها شالا دافئا، سوف تتجمد في هذه الليلة الباردة. أسرعي!"

أطاعت بريجيدا الأمر. ولكن لم يتسلق الطفلان إلا مسافة قصيرة حتى شاهدا الجد يتقدم بخطوات نشيطة ووقف إلى جانبها.

"يسعدني انكِ حافظتي على وعدكِ، يا هايدي،" قال؛ ووضعها في الغطاء، وانطلق إلى أعلى التل، حاملاً الطفلة بين ذراعيه. وجاءت بريجيدا في الوقت المناسب لترى ذلك، وأخبرت الجدة بما رأته.

"الحمد لله، الحمد لله!" قالت العجوز. "أمل أن تأتي ثانيةً؛ لقد جعلتني أتحسن! يا لقلبها الطيب، والعطوف، وكم كان حديثها لطيفا." واستمرت الجدة في الكلام طوال الليل: "لو فقط يسمح لها بالقدوم ثانية! لدي شيئاً ما أتطلع إليه في هذا العالم ألان، الحمد لله!"

لم تطيق هايدي الانتظار حتى تصل إلى الكوخ. فقد كانت تحاول الحديث طوال الطريق، ولكن لا يمكن سماع أي صوت عبر هذا الغطاء الثقيل. وما أن دخلا إلى الكوخ حتى بدأت:

"يا جدي، علينا أن نأخذ بعض المسامير والفأس إلى هناك في الغد، حيث أن مصراع النافذة، في منزل الجدة على وشك السقوط، والكثير من الأماكن تصر. كل شيء غير مستقر في المنزل."

"هل الأمر كذلك؟ من قال علينا فعل ذلك؟"

"لم يخبرني أحد، ولكني أعلم،" أجابت هايدي. "كل شيء على وشك السقوط في المنزل، حتى أن الجدة المسكينة قالت لي بأنها تخشى من انهيار المنزل يوماً ما. ويا جدي، لا يمكنها أن ترى النور. هل يمكنك أن تساعدها لتبصر ثانيةً؟ كم هو مريع أن تشعر بالخوف من الظلام ولا يوجد من يساعدك! أوه، أرجوك يا جدي، افعل شيئاً ما لمساعدتها! أعرف أنك تعلم ذلك."

كانت هايدي متمسكة بجدها، وتتطلع إليه بعيون مليئة بالثقة. وقال في النهاية وهو ينظر إلى الأسفل:

" حسناً، يا طفلتي، سوف نرى ما سنفعله في عدم جعله يصر ثانيةً. يمكننا فعل ذلك في الغد."

وطارت هايدي فرحاً بتلك الكلمات حتى إنها صارت ترقص حول الغرفة.

"سوف نفعل ذلك في الغد! سوف نفعل ذلك في الغد!"

وحافظ الجد على وعده، وأخذ هايدي من يدها في اليوم التالي مع بعض التعليمات قبل الذهاب. وبعد أن اختفت هايدي، تجول حول المنزل ليتفحصه.

من شدة فرحة العجوز برؤية هايدي مرة أخرى تركت نول الغزل ونادت:

"ها هي الفتاة ثانيةً! لقد جاءت مرة أخرى!"

قبضت الطفلة على يدي العجوز المنتشرين، وجلست على كرسي واطئ قرب قدمي الجدة وشرعت في الثرثرة. وفجاءة سمع عصف فعنيف في الخارج، قلبت العجوز نول الغزل من يدها من شدة خوفها:

"يا الله، ها قد جاء في النهاية. أن الكوخ ينهار!"

"يا جدة، لا تخافي،" قالت الفتاة، بينما كانت تعانق الجدة. "أن جدي يقوم بتصليح كافة الألواح ويعيد تثبيت كل شيء لكم."

"هل هذا ممكن؟ لم ينسانا الله بعد كل هذه الفترة. يا بريجيدا، هل سمعتِ؟ أن هذه بكل تأكيد مطرقة. أدعيه للدخول الآن. حيث يجب علي أن اشكره."

خرجت بريجيدا، ورأت الجد وهو منهمك في وضع ألواح جديدة للجدار. تقدمت إليه وقالت له:

"أن أمي وأنا نرغب بشدة بإلقاء التحية عليك. نحن مدينون لك لهذه الخدمة، وترغب الأم في رؤيتك. لدينا القليل لترد لك به خدمتك لنا، كيف لنا أن نشكرك؟"

"هذه الكلمات كافية،" قاطعها. "أعلم ما تعتقدين أني عليه. أدخلي، يمكنني أن أجد ما أصلحه بنفسي."

أطاعت بريجيدا، حيث أن العم له طريقة في الكلام لا تسمح للآخرين بالاعتراض. كان الجد يصلح بالمطرقة طوال العصر في كل أنحاء المنزل، حتى انه تسلق السقف، حيث كان هناك نقص كثير. وفي النهاية كان عليه أن يتوقف، بسبب أن أخر مسمار قد هرب من جيبه. وأزف الظلام في نفس الوقت، وكانت هايدي مستعدة للرحيل معه، ومسكت يده بشدة.

اختفى الشتاء. ودخلت أشعة الشمس إلى عينا المرأة العمياء، وقللت من ظلام نهارها. وكانت العجوز في كل يوم تسترق السمع على وقع خطوات هايدي. ولما كان الباب يفتح وتدخل الفتاة تصرخ العجوز بتعجب:

"الحمد لله، لقد جاءت ثانيةً."

كانت هايدي تحب أن تتحدث عن حياتها وكان ذلك يجعل الجدة تبتسم وتضحك، وهكذا يحلق الوقت بسرعة. في السابق، كانت العجوز تتحسر بقولها:

"بريجيدا، الم ينتهي النهار بعد؟"

ولكن الان، تقول بتعجب بعد كل مرة تغادر بها هايدي:

"كم سريعاً انتهى هذا النهار. إلا تعتقدين ذلك، أيضا يا بريجيدا؟"

وما كان على ابنتها إلا أن توافقها الرأي، حيث أن هايدي قد أسرت قلبها منذ فترة طويلة.

"حفظ الله الطفلة!" كانت الجدة تدعو بذلك دائما. "أمل من الجد أن يكون لطيفاً معها في كل حين، كما هو ألان. هل تبدو هايدي بصحة جيد، يا بريجيدا؟"

كانت تلك أسئلتها المعتادة والتي كانت تلقى إجابات شافية.

وصارت هايدي كذلك مولعة بالجدة، وعندما أصبح الجو جميلا، كانت تزورها في كل يوم في هذا الشتاء. وكلما تذكرت هايدي أن الجدة عمياء، تزداد حزناً؛ وكان جل راحتها في قدومها سعادة للجدة. وأصلح الجد تقريباً كل المنزل؛ حتى انه كان يحمل معه كمية كبيرة من الخشب، والذي يستعمله لأغراض نافعة. وأقسمت الجدة انه لم تعد تسمع أي صرير، وبهذا، والشكر لطيبة الجد، استطاعت أن تنام بصورة أفضل في هذا الشتاء من أي سنة مضت.



الفصل الخامس

الزائران

مضى شتاءين تقريبا. وكانت هايدي سعيدة جدا؛ حيث أن الربيع قادم مرة أخرى، مع تلك الريح اللطيفة، والتي ترج أغصان شجرة التنوب. وقريبا ستكون قادرة على الخروج إلى المراعي، حيث الزهور الزرقاء والصفراء التي تحييها في كل خطوة. ها قد بلغت الثامنة من العمر، وقد تعلمت العناية بالماعز، والتي كانت تركض خلفها كالجراء. أرسل معلم القرية عدة مرات رسائل بيد بطرس بأنها يجب أن تلتحق بالمدرسة، إلا أن العجوز لم يعر أي اهتمام لتلك الرسائل وأبقاها إلى جانبه كما هي. وذات صباح جميل من أيام آذار، ذاب الجليد من على المنحدرات، بدا يتلاشى بسرعة. كانت قطرات الجليد تتناثر على الأرض، والتي بدت وكأنها مستعدة للربيع. كانت هايدي تركض جيئة وذهابا قبالة الباب، حتى رأت فجاءة رجل عجوز، يرتدي الملابس السوداء، يقف إلى جانبها. قال بلطف بعد أن شاهدها خائفة:

"لا يجب أن تخافي مني، حيث أني أعشق الأطفال. أعطيني يدكِ، وأخبريني أين جدكِ."

"انه في الداخل، يقوم بصنع بعض الملاعق الخشبية،" أجابت هايدي، وهي تفتح الباب أثناء كلامها.

لقد كان راعي الأبرشية العجوز في القرية، والذي كان صديقاً للجد منذ سنوات. وبعد أن دخل، تقدم إلى العجوز قائلا:

"صباح الخير، يا جاري!"

نهض العجوز، مندهشاً، ودعا الزائر إلى الجلوس، قال:

"صباح الخير، يا سيدي القس! اجلس على هذا الكرسي الخشبي، لو كان يكفيك."

جلس القس وقال:

"لقد مضى وقتاً طويلاً منذ أن التقينا، يا جاري. لقد جئت اليوم للحديث معك بخصوص مسألة. يمكنك أن تخمن ما هي."

نظر القس إلى هايدي، والتي كانت تقف قرابة الباب.

"أسرعي وراقبي الماعز،" قال الجد، "واحضري لهم بعض الملح؛ يمكن أن تبقي حتى أعود."

اختفت هايدي من المكان.

"كان يجب على الفتاة أن تحضر إلى المدرسة في العام المنصرم،" واصل القس كلامه، "هل وصلك تبليغ المعلم؟ ما الذي تنوي فعله بالفتاة؟"

"لا أريدها أن تذهب إلي المدرسة،" قال العجوز، غير مهتم.

"ماذا تريد الفتاة أن تصبح؟"

"أريدها أن تكون حرة وسعيدة كالعصفور!"

" ولكنها إنسان، وحان الوقت لتعلم شيئاً ما. جئت اليوم لنتحدث بالموضوع، لذا عليك إعداد خططك. على الفتاة أن تحضر إلى المدرسة في الشتاء القادم. تذكر ذلك."

"لن أفعل، يا حضرة القس!" أجاب.

"هل تعتقد بعدم وجود طريقة أخرى؟" أجاب القس، بحدة هذه المرة.

"هل تعتقد بأني سأجعل تلك الفتاة الرقيقة تذهب إلى المدرسة في كل يوم عاصف وسيء!" قال مهتاجا. " أن المدرسة على بعد ساعتان سيرا على الأقدام، ولا يجب علي أن ادعها تذهب؛ اعلم عندما تعصف الريح فأنها تنتزعني من مكاني لو سرت في الخارج. هل تعرف أديلهايت أمها؟ كانت تسير أثناء نومها، ، ودائمة الإغماء. لم يجبرني أحد على جعلها تذهب إلى المدرسة. ويسعدني أن أقف في المحكمة محاربا من اجل ذلك."

" أنت محق تماماً،" قال القس بلطف. "لا يمكنك أن ترسلها إلى المدرسة من هنا. لماذا لا تنزل إلى هناك في الأسفل وتعيش بيننا؟ أنك تحيى حياة أغرب من الخيال هنا؛ أتعجب كيف يمكنك أن تدفأ الفتاة في الشتاء."

"أنها فتية وعندها أغطية ممتازة. أعلم جيدا أين يمكنني أن احصل على حطب كافٍ. أني أجعل الموقد مشتعل طوال الشتاء. أني لا أحيى في القرية، حيث أني وأهل القرية يكره أحدنا الأخر. ومن الأفضل أن نبقى بعيدين عن بعضنا."

"أنت مخطأ، أني أؤكد لك! أجعل سلامك مع الله أولا، عندها تشعر بقدر الكبير من السعادة."

وقف القس، ورفع يده، وقال بمودة:

"سوف أكون معتداً بك في الشتاء المقبل، يا جاري. سوف نستقبلك بحرارة وبسرور، تصالح مع الله والإنسان."

ولكن أجاب الجد بقسوة، بينما كان يصافح العجوز بيده:

"أشكرك لك عطفك، ولكن سوف تنتظر للاشيء. "

" الله معك،" قال القس، وتركه بحزن.

كان العجوز سيء المزاج في ذلك اليوم، ولما طلبت منه هايدي متوسلة أن تذهب إلى الجدة، تمتمت فقط: "ليس اليوم." وفي اليوم التالي بالكاد أنتهيا من عشائهما لما أتى زائرا أخر. كانت خالة هايدي ديتا؛ كانت ترتدي قبعة ذات ريش وفستان بذيل كنس كل ما على أرضية الكوخ. بينما كان الجد ينظر إليها بصمت، بدأت الخالة تثني عليه وعلى احمرار وجنتا الفتاة. أخبرته بأنها لم تكن تنوي أن تترك هايدي كل هذه الفترة، حيث إنها علمت بأنها قد تعيق طريقه. لقد كانت تعد مكاناً أخر للفتاة، وفي النهاية حانت الفرصة المدهشة. فلها علاقات طيبة جدا مع سيدتها، التي تمتلك واحدا من أكبر المنازل في فرانكفورت، ولديها ابنة مقعدة. وان تلك الفتاة المسكينة التصقت بكرسيها المتحرك، وتود لو أن لها رفقة في دروسها. سمعت ديتا من سيدتها برغبتها بفتاة طيبة القلب وهادئة لتكون رفيقة والصديقة لتلك الفتاة المريضة. فذهبت هي إلى ربة المنزل وأخبرتها كل شيء عن هايدي . فرحت السيدة بتلك الفكرة المذهلة، وأخبرتها أن تجلبها في الحال. وها قد جاءت اليوم، وهي فرصة طيبة لهايدي.

"لا يعرف أحد ما الذي سيحدث في مثل تلك الظروف، ومن يستطع الجزم—"

"هل انتهيتِ؟" قاطعها العجوز في النهاية.

"لماذا، الكل يعرف أني أتحدث إليك بأروع شيء. لا يوجد رجل في المقاطعة كلها إلا ويشكر الله على تلك الفرصة."

"أحضريهم إلى فردا أخر، ولكن ليس لي." قال العم، ببرود.

أجابت ديتا وهي غاضبة:

"هل ترغب بسماع ما اعتقده؟ هل تعرف كم عمرها؟ إنها في الثامنة وتجهل كل شيء. اخبروني بأنك رفضت إرسالها إلى الكنيسة أو المدرسة. أنها ابنة أختي الوحيدة، ولا يجب أن أتحمل ذلك، حيث أني مسئولة عن كل شيء. أنك لا تهتم بها، أنى لك أن تكون غير مهتم بمثل هذا القدر. عليك أن تفسح المجال للآخرين أو علي أن اخبر الناس ليساندوني. لو كنت مكانك، لا يجدر بي أن أوصل الأمر إلى المحاكم، هناك بعض الأشياء التي يجب أن تسخن والتي لا تأبه في سماعها."

"اهدئي!" صرخ العم بعيون يقذف اللهب. "خذيها ودمريها، ولكن لا تحضريها أمام عيناي مرة أخرى. لا أريد أن أراها بقبعة مليئة بالريش وكلمات بذيئة كتلك التي تتكلمين بها."

ذهب بخطى واسعة.

" لقد اغضبتيه! " قالت هادي بنظرة غاضبة.

"سوف لن يطول الأمر. ولكن الآن تعالي، اين كل أشيائكِ؟" سألت ديتا.

"سوف لن آتي،" أجابت هايدي.

"ماذا؟" قالت ديتا بانفعال. ولكن سرعان ما غيرت نبرة صوتها، وواصلت بطريقة ودية أكثر: "تعالي ألان، انكِ لا تفهميني. أني أخذك إلى أجمل مكان رأيته في حياتكِ." بعد أن التقطت ملابس هايدي قالت مرة أخرى، "تعالي يا طفلتي، وخذي قبعتكِ. هي ليست جميلة ولكن ليس لدينا خيار."

"سوف لن آتي،" ردت هايدي.

"لا تكوني غبية وعنيدة، مثل الماعز. أصغي ألي، لقد طردنا الجد وعلينا أن ننفذ ما أمر، او سيتعالي غضبه. سوف ترين كم هي جميلة فرانكفورت، ولو لم تعجبكِ، يمكنكِ أن تعودي إلى الديار ثانية، وعندها يكون الجد قد غفر لنا."

"هل لي أن أعود الليلة إلى دياري؟" سألت هايدي.

"تعالي ألان، لقد أخبرتكِ بأنك قادرة على العودة. فلو وصلنا إلىماينفيلد هذه الليلة، يمكننا أن نستقل القطار في الغد. وهذا سيعيدك إلى الديار بأقصر وقت!"

حملت ديتا رزمة الملابس وقادت هايدي إلى أسفل الجبل. وفي طريقهما قابلا بطرس، والذي تغيب عن المدرسة في هذا اليوم. اعتقد الفتى أن البحث عن أغصان شجر البندق وظيفة انفع من تعلم القراءة. حيث انه في حاجة دائمة لتلك الأغصان، ولقد جعل من يومه يوماً ناجحا، حيث جمع رزمة كبيرة منها وحملها على كتفه. ولما وقع بصره على ديتا وهايدي سألهما عن وجهتهما.

"ني ذاهبة إلى فرانكفورت مع خالتي ديتا،" أجابت هايدي؛ "ولكن أولا علي أن أرى جدتي. حيث إنها تنتظرني."

"أوه، لقد تأخر الوقت. يمكنكِ أن تريها عندما تعودي إلى الديار ثانيةً، ولكن ليس الآن،" قالت الخالة ديتا، وهي تسحب هايدي معها، حيث أنها كانت خائفة في أن الجدة تؤخر الطفلة.

ركض بطرس نحو الكوخ، وضرب الطاولة بعصاه. قفزت الجدة من شدة الخوف وقالت له ما الذي يعنيه هذا.

"لقد أخذوا هايدي بعيداً،" قال بطرس بغم.

"من فعل ذلك، يا بطرس؟ وأين ذهبت؟" سألت الجدة بحزن. رأت بريجيدا ديتا وهي تسير قبل برهة على الممشى الحجري، وسرعان ما فهمت المسالة. فتحت الجدة العجوز النافذة بيديها المرتعشتين ونادت بأعلى ما يمكنها:

"يا ديتا، يا ديتا، لا تأخذي بالطفلة بعيداً. لا تأخذيها منا."

وما أن سمعت هايدي ذلك حتى صارعت من أجل حريتها. وقالت:

"علي الذهاب إلى الجدة، أنها تنادي علي."

ولكن ديتا لم تسمح لها بالذهاب. وشجعتها بقولها لهابأنها ستعود قريباً جداً. واقترحت على هايدي أيضا بأن تجلب للجدة هدية جميلة عند عودتها.

أعجبت تلك الفكرة هايدي وتبعت الخالة ديتا بدون أي جلبة. وسألت بعد برهة:

"ما الذي علي أن أجلبه للجدة؟"

"ربما عليكِ أن تجلبي لها بعضاً من الخبز الرقيق الأبيض، يا هايدي. حيث أني أعتقد أن الخبز الأسمر قاسياً على تلك الجدة المسكينة ولا تستطيع أكله."

"نعم، أعلم ذلك، يا خالة، فهي تعطيه دوماً لبطرس." أجابت هايدي مؤكدة. "علينا أن نذهب بسرعة ألان، علينا بلوغ فرانكفورت اليوم، وبعدها علي العودة إلى هنا في الغد مع الخبز الأبيض.

صارت هايدي تجري ألان، وكان على ديتا اللحاق بها. وكانت مسرورة جداً لأنها عليها الهرب من الأسئلة التي قد يوجهها إليها أهالي القرية. وكان الأهالي يرون أن هايدي تسحب خالتها معها، لذا كانت تقول:

"لا يمكنني أن أتوقف، إلا ترون كيف تسرع هذه الطفلة؟"

"هل هي تهرب بعيداً عن العم؟"

"كم عجيب بقاءها حية لحد ألان!"

"يا لوجناتها الحمراوين،"

وغيرها من الأسئلة. وسرعان ما اختفتا وجعلوا القرية خلف ظهورهما.

منذ ذلك الوقت فصاعداً بدا العم في غاية الغضب كلما نزل إلى القرية. وكان كل أفراد القرية شديدي الخوف منه. حتى أن النساء كانت تحذر أطفالها منه ليبقوا بعيدين عن أنظاره.

وكان نادراً ما يزور القرية، وعندها يأتي فقط ليبيع الجبن أو يشتري بعضا من مؤنه. وعادة ما ينوه الأهالي عن حسن حظ هايدي عندما تركته. خصوصا وإنها كانت تجري مسرعة، والذي يدل على انه كانت في غاية السعادة لتركه.

ولم يكن هناك من يتحدث عنه بإخلاص سوى الجدة العجوز. فمتى ما يزورها أحد من النسوة، سرعان ما تخبره عن عنايته الفائقة والطيبة مع هايدي. كما إنها أخبرتهم كيف أصلح كوخها الصغير. وبلغت تلك الإخبار كل القرية وبالطبع، نصف الأهالي صدقوا بها، بسبب أن العجوز لم تكن مستقرة وعجوز. وعادت الجدة تبدي أيامها بالحسرات ثانية.

"لقد مضت كل السعادة برحيل هايدي. يا ليتني اسمع صوت هايدي لمرة واحدة قبل أن أموت. " هذا ما كانت تبوح به الجدة العجوز، يوماً بعد يوم.



الفصل السادس

فصل جديد وأشياء جديدة

في منزل غاية الجمال في مدينة فرانكفورت، عاشت فتاة مريضة تدعى كلارا سمسم[1]. لقد كانت تجلس على كرسي متحرك مريح جدا، ويمكن أن ينتقل من غرفة إلى غرفة. كانت كلارا تقضي معظم وقتها في الدراسة، حيث أن هناك العديد من صفوف الكتب المرتبة على رفوف على الجدار. وكانت تلك الغرفة تستعمل كغرفة للمعيشة كما إنها نفسها التي تتلقى بها الدروس.

لكلارا وجه شاحب نحيل، مع عينان زرقاوان تبرقان، والتي كانت مركزة على الساعة في هذه اللحظة بنفاذ صبر. وقالت في النهاية:

"أوه، يا آنسة روتن ماير، هل حان الوقت ألان؟"

كانت السيدة المخاطبة هي مدبرة المنزل، والتي عاشت مع كلارا منذ أن توفت والدتها. والآنسة روتين ماير ترتدي عادةً زيا رسميا مع قبعة طويلة. إما والد كلارا، فهو في رحلة طويلة بخصوص صفقة كبيرة، فقد ترك كافة أمور إدارة المنزل لتلك السيدة شريطة أن تحقق كافة طلبات الفتاة وكل ما تتمناه.

بينما كانت الفتاة تنتظر، وصلت ديتا من الباب الأمامي ومعها هايدي. وكانت تسأل سائق العربة الذي قام بتوصيلهما في ما إذا كانت قادرة على الصعود إلى الطابق الثاني.

"هذا ليس من شأني،" تمتم سائق العربة، " ما عليكِ إلا قرع الجرس وطلب كبير الخدم."

سرعان ما وقف سيباستيان كبير الخدم أمامها، وكان رجل يرتدي معطفا بأزرار نحاسية كبيرة.

"هل لي أن أرى الآنسة روتن ماير؟" سألت ديتا.

"هذا ليس من شأني،" قال كبير الخدم. "اقرعي الجرس لتنادي الخادمة تينيت." قال تلك الكلمات واختفى.

قرعت ديتا الجرس مرة أخرى. فظهرت فتاة تعتمر قبعة بيضاء شديدة البياض قادمة من ممر السلم. وقفت الخادمة في منتصف الطريق وسألت بصوت مزدر:

"ماذا تريدين؟"

---

1) اسمه الحقيقي Sesame وتعني اللغة العربية سمسم، ولشدة نغمة الاسم على الأذن ارتأيت أن اسميه هكذا. (المترجم)

اعادت ديتا رغبتها. وأخبرتها تينيت أن تنتظر حتى تعود. ولم تأخذ وقتا طويلا حتى دعي الاثنان إلى الدخول.

وتبعت الاثنتان الخادمة، حتى وصلتا إلى غرفة الدراسة. بقيت ديتا ممسكة بقوة بيد هايدي وبقيتا إلى جانب الباب.

نهضت الآنسة روتن ماير ببطء، وتقدمت نحو القادمتين. ولم يبدو عليها الارتياح من هايدي، والتي كانت ترتدي قبعة وشال وكانت تنظر إلى ملابس السيدة، بتعجب بالغ.

"ما هو أسمك؟" سألت السيدة.

"هايدي،" أجابت الطفلة.

"ماذا؟ هل هذا اسم مسيحي؟ ما هو اسمك عن التعميد؟" تساءلت السيدة.

"لم اعد أتذكر ذلك،" أجابت الطفلة.

"يا له من جواب! ما الذي يعنيه هذا؟" قالت مدبرة المنزل، وهي تطرق براسها. "هل هذه الطفلة جاهلة، يا آنسة ديتا؟"

"علي الحديث مع الفتاة، لو سمحت يا سيدتي. " قالت ديتا، بعد أن وبخت هايدي على جوابها غير المسئول. "لم تعش الفتاة في مثل هذا البيت الجميل، وتجهل كيف تتصرف. وآمل أن تغفر لها السيدة هذا التصرف. أسمها أديلهايت على اسم أمها شقيقتي."

"أوه حسناً، هذا أفضل. ولكن يا آنسة ديتا، أن الفتاة أصغر بالنسبة إلى عمرها. أعتقد أني أخبرتكِ بأني أرغب بفتاة يبلغ عمرها أثنا عشر عاماً كعمر كلارا، لتشاركها الدراسة. كم عمر أديلهايت؟"

"أنا آسفة، ولكني أخشى أن عمرها اقل بقليل مما توقعت. أنها تبلغ العاشرة من عمرها."



"لقد قالت لي الجدة بأن عمري الثامنة،" قالت هايدي في تلك اللحظة. وبختها ديتا مرة أخرى، ولم تعرف الفتاة السبب، حتى إنها لم تتحرج.

"ماذا، ثمان سنوات فقط!" استفهمت الآنسة روتن ماير بسخط. "كيف لنا أن نساير عمرها؟ ماذا تعلمت؟ أي كتب درستِ؟"

"لم ادرس أي كتاب،" قالت هايدي.

"ولكن كيف تعلمتِ القراءة؟"

"لا أجيد القراءة، وبطرس كذلك،" ردت

هايدي بسرعة.

"بحق الله! لا يمكنكِ القراءة؟" صاحت السيدة بدهشة. "أيعقل هذا؟ ماذا درستِ بعد؟"

"لم أدرس شيئاً،" أجابت هايدي بصدق.

"يا آنسة ديتا، كيف تجرأتِ بأن تجلبي هذه الطفلة؟" قالت مدبرة المنزل ما أن هدأت.

لم يكن من سهل إخافة ديتا، قالت:

"أنا آسفة، وكلني اعتقدت بأن تلك الطفلة تناسبكم. فهي طفلة صغيرة، حيث أن الأطفال أكبر سناً مزعجين وليس مثلها. علي الذهاب ألان، حيث أن سيدتي تنتظرني. وسوف أتي في أسرع وقت ممكن كي أرى كيف تسير الأمور مع الطفلة."

وبانحناءة غادرت الغرفة وما هي إلا خطوات سريعة وقليلة صارت في الأسفل.

تبعتها الآنسة روتن ماير وحاولت أن تنادي عليها، حيث أنها رغبت بطرح مجموعة من الأسئلة على ديتا.

كانت هايدي لا زالت تقف في نفس مكانها. وكانت كلارا تشاهد المشهد، ونادت على الطفلة لتأتي إليها.

اقتربت هايدي من الكرسي المتحرك.

"هل تحبين أن نطلق عليكِ هايدي أم أديلهايت؟" سألتها كلارا.

"أسمي هايدي وليس غير ذلك،" هكذا أجابت هايدي.

"أذن سأناديكِ باسم هايدي، حيث أني أحببته،" قالت كلارا، "لم اسمع بهذا الاسم من قبل. ويا لشعركِ المجعد! هل يبدو دوماً هكذا؟"

"اعتقد ذلك."

"هل تحبين القدوم إلى فرانكفورت؟" سألت كلارا ثانيةً.

"أوه، كلا، لذا سأذهب إلى منزلي غداً، ويجب أن أحضر الخبز الأبيض اللذيذ لجدتي،" وضحت هايدي.

"يا لكِ من فتاة فضولية،" قالت كلارا. "لقد جئتِ إلى فرانكفورت فقط من أجل البقاء معي، إلا تعرفين ذلك؟ يجب أن نأخذ دروسنا سوية، وأعتقد انه من الممتع جداً تعلمكِ القراءة. في العموم يبدو اليوم وكأنه غير منتهي، حيث أن السيد كانديدات يأتي في العاشرة ويبقى حتى الثانية. هذه فترة طويلة، وهو يتثاءب لمرات عديدة بنفسه، ويتعب كثيراً. كذلك أن الآنسة روتن ماير وهو يتثاءبان طوال الوقت خلف كتبهما. ولكن ما أن افعل ذلك، حتى

تعطيني زيت سمك القد وتقول لي بأني مريضة. لذا علي أن ابتلع تثاءبي، بسبب أني أكره هذا الزيت. ويا لها من متعة بالغة ألان، في أن أتعلم القراءة!"

أطرقت هايدي برأسها شكا من تلك المناظر.

"على كل فرد أن يتعلم كيف يقرأ، يا هايدي. أن السيد كانديدات صبوراً جداً وسوف يوضح لكِ كل شيء. في البدء، سوف لن تفهمي ما يقوله، حيث من الصعب إدراك ما يعطيه. ولكن سرعان ما تتعلمين مع ذلك، ثم تدركين تماماً ما يشرحه."

عندما أدركت الآنسة روتن ماير أنها عاجزة عن مناداة ديتا، عادت إلى الطفلتان. لقد كانت مهتاجة جداً، حيث إنها اعتقدت إنها مسئولة عن قدوم هايدي ولا تعرف كيف تنهي هذه الخطوة غير السعيدة. وأسرعت في النهوض ثانيةً للذهاب إلى غرفة الطعام، وانتقدت كبير الخدم، وأعطت أوامرها إلى الخادمة. فتح سياستيان الأبواب المطوية وهو غير قادر على عرض غضبه بصورة فوضوية. رأى هايدي وهي تنظر إليه بقصد إثناء توجهه إلى كرسي كلارا، قالت في النهاية:

"انك تشبه بطرس."

كانت الآنسة روتن ماير مروعة بتلك الملاحظة، فأرسلتهم جميعا إلى غرفة الطعام. وبعد أن دفعت الخادمة كرسي كلارا المتحرك جلست بقربها. وتحركت هايدي قبالة السيدة. وبهذه الطريقة تجمعوا حول طاولة كبيرة. ولما رأت هايدي الخبز على إناءها، التفت نحو سياستيان وأشارت إلى الخبز وسألت:

"هل لي أن أخذ تلك؟"

كان لهادي ثقة كبيرة في كبير الخدم وبالخصوص على حساب التشابه الذي اكتشفته. أوما كبير الخدم، ولما رأى هايدي تضع الخبز في جيبها، بالكاد استطاع أن يتوقف عن الضحك. تقدم نحو هايدي في هذه اللحظة وجلب إناءا فيه سمك محمص. ولم تتحرك الفتاة لفترة طويلة؛ ثم أدارت عيناها نحو كبير الخدم، وقالت:

"هل علي أن آكل هذا؟"

أوما سياستيان، وتلاها فترة صمت.

"ولماذا لم تعطيها لي؟" سألت الطفلة بصمت، وهي تنظر إلى إناءها.

بالكاد حافظ كبير الخدم على هدوءه، وأمر أن يترك الإناء على الطاولة ويغادر الغرفة.

وما أن ذهب، حتى شرحت الآنسة روتن ماير لهايدي بالعديد من الإشارات التي تساعدها على تناول الطعام من على الطاولة. وأخبرتها أن لا تتكلم مع سياستيان ما لم يكن

الأمر مهما. وتم تعليم الفتاة لاحقاً كيف تبادر بالكلام إلى الخدم ومربية الأطفال. وما أن جاء السؤال حول كيفية مناداة كلارا، حتى قالت الفتاة الكبيرة:

"بالطبع يمكن أن تنادي باسمي كلارا."

وهكذا تبعت عدة تعليمات حول كيفية التصرف في شتى الأوقات، منها عندما تغلق الباب بقسوة، وعندما تذهب إلى السرير، ومئات الأشياء الأخرى. وكانت عينا هايدي تغلقان حيث إنها استيقظت في الساعة الخامسة صباحاً، وما أن اتكأت على كرسيها حتى غطت في النوم. وعندما انتهت الآنسة روتن ماير من الإرشادات، قالت:

"أمل انكِ ستتذكرين كل شيء، يا أديلهايت، هل فهمتي؟"

"لقد غطت هايدي في النوم منذ وقت طويل." قالت كلارا وهي بغاية المتعة.

"يا له من شيء بغيض أن أتحمل هذه الطفلة." وضحت الآنسة روتن ماير، وهي تقرع الجرس بكل قوتها.

وما أن وصلتا الخادمتان، حتى كان من الصعوبة عليهما رفع هايدي إلى سريرها.



الفصل السابع
الآنسة روتن ماير ويومها العصيب

عندما فتحت هايدي عيناها في صباح اليوم التالي، لم تتعرف على مكان وجودها. فقد وجدت نفسها في سرير ابيض مرتفع في غرفة فسيحة. وبعد أن جالت بعينيها أرجاء الغرفة لاحظت الستائر البيضاء الطويلة أمام النافذة، وعدة كراسي، وأريكة مغطاة بقماش الكريتون القطني؛ وفي الزاوية شاهدت مغسلة معلقة مع الكثير من الأشياء المعلقة فوقها.

وفجاءة تذكرت هايدي كل ما جرى في اليوم السابق. قفزت خارج السرير، وارتدت ملابسها في عجلة من أمرها. لقد كانت متلهفة جداً لرؤية السماء في الأعلى والأرض في الأسفل، كما كانت تفعل في منزلها. ويا لها من خيبة أمل لما وجدت أن النوافذ عاليا جداً حتى إنها لم تتمكن من رؤية أي شيء عدا جدران ونوافذ المنازل المقابلة. حاولت أن تفتح النوافذ، وجربت واحدة بعد الأخرى، ولكن بلا جدوى. شعرت الطفلة المسكينة إنها كالعصفور الذي حبس في قفص متألق للمرة الأولى. وفي النهاية كان لزاماً عليها أن تستلم. وجلست على كرسي واطئ، وهي تفكر بالجليد الذائب في المنحدرات والزهور الممهدة للربيع والتي كانت تحييها بمرح.

فجاءة فتحت تينيت الباب وقالت بفظاظة:

"الفطور جاهز."

لم تأخذ هايدي ذلك بمحمل الجد، حيث أن وجه الخادمة كان مجهما وبغيضاً بالفعل. وكانت تنتظر بفراغ صبر ما سيحدث لاحقاً، ولما دخلت الآنسة روتن ماير عنوة إلى الغرفة قالت:

"ما هي المشكلة، يا أديلهايت؟ إلا تفهمين، تعالِ لتناول الفطور."

وتبعت هايدي السيدة بسرعة إلى غرفة الطعام، حيث حيتها كلارا بابتسامة. وكانت تبدو اسعد من ذي قبل، حيث إنها توقعت حدوث أشياء جديدة هذا اليوم. وبعد انتهاء الفطور بدون أي مشاكل، سمح للطفلتين الذهاب إلى المكتبة وسرعان ما تركتا لوحدهما.

"كيف لي إن أرى الأرض في الأسفل؟" سألت هايدي.

"افتحي النافذة وانظري إلى الأسفل." ردت عليها كلارا، وهي مستمتعة بالسؤال.

"ولكن من المستحيل فتحها،" قالت هايدي بحزن.

"أوه، كلا. فقط لا يمكنكِ ذلك، وأنا عاجزة عن تقديم المساعدة لكِ، ولكن لو سألتِ سيباستيان العون فسوف يقوم بالأمر."

انتعشت هايدي. فقد شعرت المسكينة كما لو كانت سجينة في غرفتها. سألت كلارا هايدي في هذه اللحظة كيف كان يبدو منزلها، وأخبرتها بسرور عن حياتها في الكوخ.

حضر المحاضر في ذات الوقت، ولكنه لم يطلب منهما الذهاب إلى غرفة الدراسة كالمعتاد. لقد كانت الآنسة روتن ماير مهتاجة بسبب قدوم هايدي وكل ما تبعه من تعقيدات. حيث أنها كانت المسئولة عن ذلك، بسبب أنها رتبت كل شيء. وأعلمت المدرس بالقضية غير السعيدة حيث إنها رغبت منه أن يساعدها للسيطرة على الطفلة. ومع ذلك، كان السيد كانديدات حريصاً جداً في أطلاق الأحكام في تلك القضايا، ولا يخشى من تدريس البدائيين.

وما إن علمت إن المحاضر لم يقف إلى جانبها، حتى دعته يدخل لوحده إلى غرفة الدراسة، حيث إن الأبجدية ترعبها. وبينما كانت تحل بعض المشاكل، سمعت ضوضاء مخيفة ناتجة عن سقوط شيئاً ما في الغرفة المجاورة، تبعتها صرخة تطلب من سباستيان النجدة. هرعت إلى الداخل ورمت رزمة الكتب التي كانت بيدها وعلى رأسها ملاءة الطاولة. جرت بقعة على طول الغرفة من الحبر. أما هايدي فقد اختفت.

"هناك،" قالت الآنسة روتن ماير بتعجب وهي تقبض على يديها. "كل بقعة في هذه الغرفة ملطخة بالحبر. هل حدث هذا من قبل؟ لم تجلب هذه الطفلة لنا إلا المتاعب."

كان المحاضر يقف، وهو ينظر إلى الدمار الحاصل، عدا كلارا التي كانت مبتهجة بما حصل، وقالت:

"لم تفعل هايدي ذلك عن قصد، ولا يجب عليها أن تعاقب. ولكنها كانت متعجلة في القدوم فمسكت ملاءة الطاولة وسحبتها إلى الأسفل. فهي لم تشاهد أي عربة في حياتها، فهي لما سمعت قعقعة العربة قفزت كالمجنونة."

"الم أخبرك، يا سيد كانديدات أنها جاهلة بآداب السلوك؟ فهي لا تعرف بأن عليها الجلوس بهدوء أثناء إلقاء الدروس. ولكن أين ذهبت؟ ماذا سيقول السيد سمسم لو هربت؟"

وعندما نزلت الآنسة روتن ماير إلى الأسفل بحثاً عن الطفلة، رأتها تقف في الباب الخارجي تطالع الشارع.

"ماذا تفعلين هنا؟ كيف لكِ أن تهربي بهذه الطريقة؟" قالت الآنسة روتن ماير بعنف.

"سمعت شجرة التنوب تصدر أصواتاً، ولكني لم اعد أراها أو حتى أن اسمعها." أجابت هايدي وهي تنظر بحيرة وقلق نحو الشارع.

فقد ذكرتها ضجة العربة عندما مرت بريح الشمال في جبال الألب.

"شجر التنوب؟ يا له من غباء! لسنا في الغابات! تعالي معي ألان لتري ما فعلتيه."

وما أن رأت هايدي مقدار الدمار التي خلفته حتى اندهشت بشدة حيث إنها من عجلتها لم تلاحظ ذلك.

"هذا سوف لن يحدث ثانيةً،" قالت السيدة بصرامة. "عليكِ الجلوس بهدوء خلال فترة الدرس؛ ولو نهضت مرة أخرى، سوف أربطكِ بالكرسي. هل سمعتِ؟"

فهمت هايدي، ووعدت إن تجلس بهدوء خلال فترة دروسها من آلان وصاعداً. وبعد إن نظف الخدم الغرفة، كان الوقت قد تأخر، ولم يكن هناك مزيداً من الوقت للدراسة. ولم يكن هناك وقت لأحد للتثاؤب في هذا النهار.

في الظهيرة، وفي خلال فترة استراحة كلارا، تُركت هايدي لوحدها. زرعت نفسها في الصالة وانتظرت كبير الخدم مع تلك الأواني الفضية. وما أن بلغ رأس السلم، قالت له:

"هلا سألتك سؤالاً؟" ورأت كبير الخدم يبدو عليه الغضب، فطمأنته بقولها بأنها لا تنوي القيام بأي ضرر.

"حسناً، يا آنسة، ما هو السؤال؟"

"أسمي ليس بآنسة، لماذا لا تطلق علي اسم هايدي؟"

"لقد أخبرتني الآنسة روتن ماير بأن أناديكِ بهذا الاسم."

"هل فعلت؟ حسناً أذن، عليك فعل ذلك. لدي ثلاث أسماء إلى ألان."قالت الطفلة بحسرة.

"كيف أخدمكِ؟" سألها سيباستيان.

"هلا فتحت النافذة لي؟"

"بكل تأكيد،" أجاب.

جلب كبير الخدم كرسياً لهايدي، حيث أن النافذة كانت مرتفعة جداً ولا تقدر الرؤية من خلالها.

"لكني لا أرى شيئاً غير الشارع الحجري. هل هذا هو نفس المنظر من الجهة المقابلة من المنزل؟"

"نعم."

"أين علي ان أذهب لأرى كل شيء في الأسفل؟"

"في أعلى برج الكنيسة. هل رأيتِ ذلك المكان ذو القبة الذهبية؟ من هناك يمكنكِ أن تري كل شيء."

وبسرعة نزلت هايدي عن الكرسي وهرعت أسفل السلم. فتحت الباب، ووجدت نفسها في الشارع، إلا إنها لم تعد ترى البرج ألان. تسكعت من شارع إلى أخر ولم تتجرأ

على الكلام مع أي شخص. وبعدما تجاوزت زاوية، رأت صبي وكانت آلة موسيقية على ظهره وحيوان غريب على يديه. أسرعت هايدي إليه وسألته:

"أين البرج ذو القبة الذهبية؟"

"لا أعرف،" هكذا أجاب.

"من يمكنه أن يخبرني أذن؟"

"لا أعرف."

"هلا أريتني كنيسة أخرى ذات برج؟"

"بالفعل يمكنني."

"أذن تعال واريني إياها."

"ماذا ستعطينني لو فعلت؟" قال الصبي، وهو يترك ما يحمل.

لم يكن في جيب هايدي سوى بعض الصور للزهور. فقد أعطتها كلارا تلك الصور هذا الصباح، لذا كانت مكرهة أن تضحي بها. إلا أن الإغراء الخاص برؤية الوديان كانت عظيمة جداً، مع ذلك، عرضت عليه تلك الصور كهدية. أطرق الصبي برأسه لقناعة هايدي.

"ماذا تريد أيضاً؟"

"المال."

"ليس لدي المال، ولكن كلارا لديها بعضاً منه. كم علي إن أعطيك؟"

"عشرون فلساً."

"حسناً، ولكن تعال."

بينما كانا يتمشيان في الشارع، اكتشفت هايدي ما كان يحمله الصبي، حيث لم تكن قد شاهدت مثله من قبل. وما أن وصلا إلى برج في كنيسة قديمة كانت هايدي في حيرة ما أمرها فيما تفعله الان، ولكن عندما اكتشفت جرساً سحبته بكل قوتها. وافق الصبي أن ينتظر هايدي وان يهديها إلى طريق العودة إلى منزلها شريطة أن تعطيه ضعف المبلغ.

فرقع مصراع الباب من الداخل وفتح رجل عجوز الباب. وقال بصوت غاضب:

"كيف تتجرئين على قرع الجرس طلباً لي؟ إلا تعرفين بأن الجرس هو فقط لمن يرغبون برؤية البرج."

"ولكني أريد هذا،" قالت هايدي.

"ما الذي تريدين رؤيته؟ هل أرسلك احد؟" سأل العجوز.

"كلا، ولكني ارغب بالرؤية من هناك."

"عودي إلى المنزل ولا تحاولي ذلك مجدداً." وبهذه الكلمات كان حارس البرج ناوياً على غلق الباب، إلا أن هايدي مسكت ذيل معطفه، وتوسلت إليه بان يدعها تدخل.

نظر حارس البرج في عينا الفتاة، والتي كانتا في هذه اللحظة مليئتان بالدموع.

"حسنا، تعالي معي، لو كنت مهتمة بهذا القدر،" قال، وأخذها من يدها.

وتسلق الاثنان الكثير من الدرجات، والتي كانت تضيق كلما صعدا طوال الوقت. ولما وصلا إلى القمة، رفع العجوز هايدي إلى النافذة المفتوحة.

لم ترى هايدي شيئاً سوى بحرا من المداخن، والسقوف، والأبراج، وغرق قلبها.

"أوه يا عزيزي، انه مختلف عما تصورته،"قالت.

"يا الهي! أنى لتلك الفتاة أن تعرف أي شيء عن المناظر؟ سوف ننزل في الحال وعليكِ أن توعديني بأن لا ترني الجرس لرؤية البرج ثانيةً."

وفي طريقهما مرا قرب العلية، حيث وجدا قطة رمادية كبيرة تحرس جرالها في سلة. وكانت تلك القطة تمسك بنصف دزينة من الفئران يومياً لنفسها، حيث أن البرج كان مليئا بالجرذان والفئران. نظرت إليها هايدي بدهشة، وكانت مبتهجة لما فتح العجوز السلة.

"يا لها من قطط صغيرة فاتنة، يا لهم من صغار جذابون!" قالت مبتهجة لما رأت تلك الصغار تزحف في المكان، وتتقافز وتتعثر.

"هل يعجبكِ أن احتفظتِ بواحدة؟" سألها العجوز.

"لي، احتفظ بها؟" سألت هايدي حيث إنها لم تصدق ما سمعته.

"نعم بالطبع. يمكنكِ أن تحتفظِ بأكثر من واحدة لو كان لديك المكان لها،" قال العجوز، وقد وجد مكاناً أفضل لتلك القطط الصغيرة.

وكم كانت سعادة هايدي بالغة! فبالطبع كان هناك مكاناً فسيحاً في المنزل الضخم، وستسعد كلارا لو رأت تلك الصغار الفاتنات.

"كيف لي أن أخذها معي؟" سألت الطفلة، بعد أن حاولت بيأس ان تمسك أحداها.

" يمكنني أن أجلبها لكِ إلى المنزل، فقط لو أخبرتني اين تسكنين،" قال صديق هايدي الجديد، وهو يلاطف القطة الكبيرة، والتي كانت تعيش منذ سنوات معه.

"أجلبها إلى منزل السيد سمسم؛ حيث يوجد هناك كلباً ذهبياً عند عتبة الباب، مع جرس في فمه."

عاش العجوز في البرج منذ فترة طويلة وتقريباً يعرف الجميع، إما سيباستيان فقد كانت له معه صداقة خاصة.

"أعرف،" قال العجوز. "ولكن لمن علي أن أرسلها؟ هل أنتي تقربين للسيد سمسم؟"

"كلا. أرسلها إلى كلارا، سوف تحبها بكل تأكيد، أني متأكدة من ذلك."

وبالكاد استطاعت هايدي أن تفارق تلك الأشياء الرائعة، لذا قام العجوز بوضع قطة في كل جيب من جيوبها لكي يساعدها. وسرعان ما اختفت بعدها.

كان الفتى ينتظر بفارغ الصبر وما أن ودعت حارس البرج، سألت الفتى:

"هل تعرف الطريق إلى منزل السيد سمسم؟"

"كلا،" كان هذا جوابه.

وقامت بوصف المكان على قدر ما تستطيع، حتى تذكر الفتى المنزل. وانطلقا، حتى وجدت هايدي نفسها تقرع الجرس. وما أن وصل سياستيان حتى قال:

"أسرعي يا هايدي!"

دخلت هايدي وترك الفتى في الخارج، حيث لم يلحظ سياستيان حتى وجوده.

" أدخلي بسرعة، يا سيدتي الصغيرة،" قال وهو يحثها. "أن كل البيت في انتظارِكِ في غرفة الطعام. في حين أن الآنسة روتن ماير تبدو كأنه مدفع على وشك الانفجار. أنى لكِ أن تهربي بهذه الطريقة؟"

جلست هايدي بهدوء على كرسيها. ولزم الجميع الصمت، وساد المكان صمت رهيب. بدأت في النهاية الآنسة روتن ماير بصوت رزين وقاسي:



"سوف أتكلم معكِ لاحقاً، يا أديلهايد. كيف لكِ أن تغادري المنزل من غير أن تقولي لأحد؟ أن سلوككِ دليل على الإهمال الشديد في أن تفكري في التجوال في المدينة بوقت متأخر!"

"ميو!" كان هذا الجواب.

"أنا لم افعل،" بدأت هايدي--- "ميو!"

قذف سيباستيان الطبق من على الطاولة واختفى.

"هذا يكفي،" حاولت روتن ماير أن تقول ذلك، إلا أن صوتها خنقه الغضب. "انهضي وغادري الغرفة."

نهضت هايدي. وبدأت من جديد. "لقد فعلت-"

"ميو! ميو! ميو!"

"هايدي،" قالت كلارا في هذه اللحظة، "لماذا تكررين قول (ميو)، مادامتِ ترين أن الآنسة روتن ماير غاضبة؟"



"لم أفعل ذلك، أنها تلك القطط الصغيرة،" وضحت.

"ماذا؟ قطط؟ قطط صغيرة؟" صاحت مدبرة المنزل." يا سيباستيان، يا تينتي، خذوا تلك الوحوش بعيداً!"

وهكذا هربت إلى المكتبة، وأغلقت على نفسها هناك، حيث إنها كانت تخاف القطط الصغيرة كأكثر شيء في حياتها. وما أن انتهى سيباستيان من ضحكته، حتى دخل الغرفة. لقد توقع هذه المتعة، ما أن شاهد هايدي مع القطط عندما دخلت. لقد ساد السلام على المكان في هذه اللحظة؛ ورفعت كلارا القطط الصغيرة على حضنها، وكانت هايدي تجلس قربها على ركبتيها. ولعبتا مع تلك المخلوقات الودودة سوية. وعد كبير الخدم في أن يعتني بالضيوف الجدد ويجهز لهما فراشاً في سلة.

وبعد فترة طويلة، ولما حان موعد النوم، فتحت الآنسة روتن ماير الباب بحذر.

"هل ذهبت بعيداً؟" سألت.

"نعم." أجاب كبير الخدم، وبالحال جعل القطط الصغيرة في مكان بعيد.

وتأجلت المحاضرة التي كانت الآنسة روتن ماير ترغب بإلقائها على هايدي إلى اليوم التالي، حيث أن السيدة كان مجهدة من الرعب. فقد ذهب الجميع إلى النوم بسلام، وكان الأطفال سعداء في مجرد التفكير أن القطط تتمتع بفراش وفير.

الفصل الثامن

فوضى عارمة في منزل السيد سمسم

قرع جرس الباب بعنف بعد وصول المدرس بوقت قصير في صباح اليوم التالي حتى أن سيباستيان اعتقد أن الزائر هو السيد سمسم بنفسه. وكم كانت دهشته كبيرة لما رأى فتى شوارع قذر مع آلته الموسيقية على ظهره، يقف تماماً أمام الباب!

"ماذا يعني طرقك للجرس بهذه الطريقة؟" قال كبير الخدم.

"أرغب برؤية كلارا؟"

" ألا تستطيع أن تقول الآنسة كلارا على الأقل، أيها الفتى القذر؟" قال سيباستيان بقسوة.

"أنها تدين لي بأربعين فلساً." قال الفتى.

"أنك مجنون! كيف عرفت أن الآنسة كلارا تعيش هنا؟"

"لقد أرشدتها إلى الطريق ليلة أمس ووعدتني أن تعطيني أربعين فلسا."

"أي غباء هذا! أن الآنسة كلارا لم تخرج أبداً. الأفضل أن تذهب الان قبل أن ارسلك إلى الخارج بطريقتي."

إلا أن الفتى مع ذلك لم يتحرك قيد أنملة، وقال:

"لقد رايتها. الفتاة ذات الشعر المجعد، والعيون السوداء وتتحدث بطريقة مضحكة."

"أه،" قال سيباستيان ضاحكاً في سره. "تلك كانت الآنسة الصغيرة."

سحب الفتى إلى المنزل وقال له:

"حسناً يمكنك أن تتبعني. أنتظر عند الباب حتى أنادي عليك. وعندها يمكنك أن تعزف شيئا ما لكلارا."

طرق على باب غرفة الدراسة وقال عند دخوله:

"هنا فتى يود ان يقابل الآنسة كلارا."

اندهشت كلارا لهذه المقاطعة وقالت:

"هلا دخل يا سيد كانديدات؟"

إلا أن الفتى كان قد دخل فعلاً، وبدأ بالعزف. كانت الآنسة روتن ماير في الغرفة المجاورة عندما سمعت الأصوات. فتساءلت عن مصدرها؟ وهرعت إلى غرفة الدراسة ورأت فتى الشوارع يعزف إلى الأطفال المتلهفين.

"قف! قف!" صاحت، ولكن بلا جدوى، حيث أن صوت الموسيقى ابتلع صوتها.

وفجاءة قفزت قفزة عظيمة حيث كانت تزحف بين قدميها سلحفاة سوداء. وما أن صرخت على سياستيان حتى سمع صوتها. ودخل كبير الخدم بسرعة، حيث انه شاهد كل ما جرى من خلف الباب، ويا له من مشهد رائع! صاحت الآنسة روتن ماير وهي ملتصقة رعباً بكرسي:

"اخرج الفتى! خذه بعيداً!"

أطاع سياستيان الأمر ودفع الفتى خلفه. ثم قال:

"خذ هذه الأربعون فلساً من الآنسة كلارا وأربعون أخرى لعزفك لها. لقد أحسنت صنعاً يا ولدي."

وبهذه الكلمات أغلق الباب خلفه. ووجدت الآنسة روتن ماير انه يجب أن تبقى في غرفة الدراسة كي لا تتجدد هذه الفوضى. وفجاءة كان هناك طرقاً أخر على الباب. ظهر سيباستيان بسلة كبيرة، والتي كانت مهداة إلى كلارا.

"من الأفضل أن نكمل دروسا قبل فتحها،" قالت الآنسة روتن ماير. إلا أن كلارا التفت نحو المعلم، وسألت:

"أوه أرجوك، يا سيد كانديدات، إلا يجب أن نلقي عليها نظرة خاطفة، لنعرف ما فيها؟"

"أخشى انك سوف لن تفكري في أي شيء أخر،" بدأ المعلم حديثه. وفي هذه اللحظة شيئا ما في السلة مربوط بصورة غير محكمة، تحرك، واحد، اثنان، ثلاثة، ولا زالت العديد من القطط الصغيرة تتقافز إلى الخارج، وتوزعت في أرجاء الغرفة بسرعة عالية. وتقافزت فوق جزمة المعلم وصارت تعض بسرواله، وتسلقت ثوب روتن ماير وتعثرت حول قدميها. ماءت وركضت، وتسببت بذلك بفوضى عارمة. صاحت كلارا بفرح:

"أوه، أنظروا إلى تلك المخلوقات الرائعة، وانظروا كيف تقفز! يا هايدي، انظري إلى تلك الواحدة، والى تلك، وشاهدي تلك التي هناك؟"

وتبعت هايدي تلك المخلوقات في أرجاء المنزل، بينما كان المعلم في صدمة. وما أن استعادت ربة المنزل وعيها بعد موجة من الخوف، نادت على الخدم. وسرعان ما وصل الخدم وأعادت القطط الصغيرة إلى مكانها في الفراش الجديد بأمان.

لم يكن هناك وقتا ولا حتى للتثاؤب في ذلك اليوم!

وما أن اختلت الآنسة روتن ماير بالطفلة مساءاً وكأنها وجدت المجرم، حتى بدأت حديثها بقسوة.

"يا أديلهايد، لا توجد إلا عقوبة واحدة لكِ. سوف أقوم بحبسكِ في القبو، حتى تتعظ من أفعالكِ الشائنة. برفقة كل تلك الجرذان."

لم يكن القبو يخيف هايدي أبداً، حيث في منزل جدها كان هناك قبواً مليئاً بالحليب الطازج، والجبنة الفاخرة، كما أن الجرذان لم تكن موجودة هناك.

إلا أن كلارا صرخت برعب:

- "يا آنسة روتن ماير، عليكِ أن تنظري رجوع أبي، وعندها سيتولى هو عقوبة هايدي."

لكن الآنسة ردت على مضض:

"حسناً، يا كلارا، ولكن علي أن أتكلم قليلا مع السيد سمسم."

وبتلك الكلمات غادرت الغرفة. منذ أن حلت الطفلة ضيفة على المنزل حتى بدأ كل شيء يتقهقر، وكانت السيدة محبطة، على الرغم من عدم حدوث أي حوادث في الأيام القليلة التي تلت.

على العكس من كلارا، فقد استمتعت برفقة الطفلة، حيث كانت تقوم دوماً بأشياء مضحكة ومسلية. ففي دروسها لم تكن تستطيع أن تتلوا حروفها بصورة متسلسلة. فهي لا تعني لها أي شيء مطلقاً، عدا أنها تذكرها بالماعز والنسور. كانت الفتاتان تقضيان معظم وقتيهما سوية خلال المساء، وكانت هايدي تسلي رفيقتها بالحكايات الخاصة بحياة الريف، حتى تفاقم حنينها لدرجة إنها قالت:

"علي العودة إلى منزلي فوراً. علي الذهاب غداً."

غير أن كلمات كلارا المعسولة والحلم في الحصول على تلك الفطائر للجدة حافظت على صبر الفتاة. كانت تترك في كل مساء بعد تناول العشاء لوحدها لعدة ساعات. وكانت تشغل تفكيرها صور المراعي الخضراء في الوطن، والزهور العطرة عند الجبال، وكانت تجلس في الزاوية حتى ازدادت رغبتها ولم تعد تطيق الحنين إلى كل تلك الأشياء. لقد أخبرتها خالتها بوضوح إنها قادرة على العودة، فقط لو رغبت بذلك، لذا قررت في أحد الأيام أن تعود إلى الكوخ الجبلي. وحزمت كل الخبز بشالها وهي على عجلة من أمرها. ولبست قبعتها القديمة المصنوعة من القش. وانطلقت. إلا أن الفتاة المسكينة لم تكن قادرة على الذهاب بعيدا. حيث أنها واجهت الآنسة روتن ماير عند الباب، والتي صارت تنظر بدهشة صامتة نحو الفتاة.

"إلى ماذا تخططين؟" انفجرت بالكلام. "ألم أمنعكِ من الخروج؟ تبدين كالمتشردة!"

" قصدت منزلي ليس إلا،" همست الفتاة خوفاً.

" ماذا، أتريدين الهروب من المنزل؟ ما الذي سيقوله السيد سمسم؟ ما الذي لم يروق لكِ هنا؟ الم تتلقي معاملة أفضل بكثير مما تستحقين؟ هل حظيتِ من قبل بطعام كهذا، أو خدمة كهذه أو غرفة كهذه؟ أجيبي!"

"كلا"، هكذا ردت.

" ألم أعلم ذلك؟" تابعت الآنسة روتن ماير بغضب. "يا لكِ من طفلة جاحدة، انكِ بليدة، ولا تنفعين بشيء!"

إلا أن هايدي لم تعد تتحمل أكثر. فصاحت بصوت مرتفع:

" أوه، أريد العودة إلى المنزل. ما الذي سيفعله النطاط الأبيض بدوني؟ والجدة تنتظر عودتي كل يوم. وسوف يموت تيستلفينج لو لم يحصل بطرس على الجبن، وعلي أن أرى الشمس مرة أخرى، وان أتمنى ليلة سعيدة للجبال. أني للنسر أن يزعق لو رأى كل هؤلاء الناس في فرانكفورت!"

"يا للرحمة، أن الفتاة حقاً ومجنونة!"

أبدت الآنسة روتن ماير استغرابها وهي تصعد إلى الأعلى. وعند صعودها انفجرت غاضبة على سيباستيان والذي صادف أنه كان نازلاً في تمام تلك اللحظة.

"أحضر إلي تلك الطفلة التعسة إلى الأعلى!" نادت عليه، وهي تمسح برأسها.

"حسناً يا سيدتي، والشكر لكِ." أجاب كبير الخدم، وهو يطرق برأسه أيضاً، حيث انه صادف يوماً أسوء من يوم الآنسة روتن ماير.

وما أن نزل كبير الخدم، حتى رأى هايدي تقف عند الباب والدموع تملأ عيونها البراقة، ويرتعش كامل جسدها. سألها بمرح:

"ما الذي حصل، يا صغيرتي؟ لا تحملي أي ضغينة، وابتهجي. لقد صدعت راسي للتو، ولكن لا يجب علينا اليأس. أوه، لا! هيا، تعالي معي إلى الأعلى، لقد امرت بذلك!"

صعدت هايدي إلى السلم ببطء. ولما شاهد سيباستيان تغيرها، قال لها:

"لا تستسلمي! لا تحزني هكذا! لقد أبديتي شجاعة بالغة حتى هذه اللحظة، لم أسمعكِ تصرخين من قبل. اصعدي معي، وما أن تذهب السيدة حتى نرى القطط الصغيرة ونطمأن عليها. أنها تجري بكل مكان كأنها قطط برية!"

أومأت بحزن، واختفت في غرفتها.

راقبت الآنسة روتن ماير عند العشاء هذه المساء بثبات، ولكن لم يحدث شيء. جلست الفتاة هادئة كالفأرة. حتى إنها بالكاد لامست طعامها. عدا فطيرة صغيرة.

وعند حديثها مع المعلم في صبيحة اليوم التالي، أخبرت الآنسة روتن ماير مخاوفها فيما يدور بخلد هايدي. إلا أن المعلم كان يعاني من مشاكل بما يكفيه، حيث أن هايدي لم تعلم الأبجدية طوال تلك الفترة.

كان هايدي بحاجة ملحة لبعض الملابس، لذا قامت كلارا بمنحها بعضا مما لديها. كانت الآنسة روتن ماير مشغولة جداً في توضيب خزانة الملابس الخاصة بالفتاة لما عادت فجأة.

" يا أديلهايد، قالت بصوت باعث للازدراء، " ما هذا الذي وجدته؟ كومة كبيرة من الخبز في خزانة ملابسكِ! لم أسمع قط بمثل هذا! نعم يا كلارا، هذا صحيح."

ثم قامت بأخبار تينتي وأمرتها بأن تجمع كل الخبز وان تحضر معها تلك القبعة القديمة المصنوعة من القش التي وجدتها.

"لا، لا تفعلي! علي أن أحتفظ بقبعتي! وأما الخبز فهو لجدتي،" صاحت هايدي بيأس.

"أبقي مكانكِ، بينما نقوم برمي النفايات بعيداً،" قالت السيدة بصرامة.

رمت هايدي بنفسها إلى الأسفل قرب كرسي كلارا ونحبت مكسورة الفؤاد.

"لا يمكنني ألان أن اجلب الخبز! أوه، لقد كان ذلك الخبز لجدتي!" انتحبت هايدي.

"هايدي لا تبكي ابداً،" توسلت إليها كلارا. "أصغي إلي! لما تعودين إلى منزلكِ يوماً ما، سوف أعطيكِ الخبز بقدر ما تشائين، وأكثر. سوف يكون طرياً وأفضل بكثير من هذا الخبز الفاسد التي كنتِ تخزنين. أن هذا الخبز غير صالح للأكل، يا هايدي. توقفي الآن، أرجوكِ، لا تبكي أكثر!"

ولم تهدأ هايدي إلا بعد مرور وقتاً طويلاً. ولما سمعت نصيحة كلارا، صاحت:

" هل ستعطينني الخبز بقدر ما أشاء؟"

عند العشاء، كانت عينا هايدي غارقتان وبالكاد كانت قادرة على التوقف عن البكاء. قام سيباستيان بعمل بعضاً من الإشارات الغريبة التي لم تفهمها. ماذا يقصد؟

وبعد ذلك، وما أن صعدت إلى سريرها، وجدت قبعتها القديمة المصنوعة من القش مخبأة تحت شرشفها. هكذا كان سيباستيان قد أحتفظ بها لهايدي وهذا ما كان يحاول أن يخبرها به! حضنها بشدة من أثر الفرحة، وغلفتها بمنديلها وخبأتها في أبعد زاوية من خزانتها.



الفصل التاسع

سيد المنزل يسمع بالأفعال الغريبة

بعد بضعة أيام حدثت في منزل السيد سمسم ثورة عارمة، حيث وصل سيد المنزل للتو. وكان الخدم يأخذون الأمتعة واحدة بعد الأخرى إلى الأعلى، حيث أن السيد سمسم أعتاد على جلب الكثير من الأشياء الممتعة معه.

وما أن دخل إلى غرفة ابنته، حتى لجأت هايدي بخجل إلى ابعد زاوية. رحب بكلارا بعطف بالغ، وكانت في غاية البهجة لما رأته، حيث كانت تحب أباها بكثرة. وبعدها نادى على هايدي:

"أوه، انه فتاتنا الصغيرة السويسرية. تعالي وصافحيني! هذا صحيح. هل أنتما صديقان مخلصان، يا بنتاي، تعالي واخبريني الآن؟ أنتما لا تتشاجران سوية، ماذا؟"

"أوه، كلا، أن كلارا لطيفة دوماً معي،" أجابت هايدي.

"لم تكن هايدي على رغبة بالعراك أبداً، يا أبتي." نوهت كلارا بسرعة.

"هذا رائع، يسرني سماع ذلك،" ونهض الأب بتلك الكلمات. "علي أن أتناول عشائي الآن، حيث أني جائع جداً. سوف أعود حالاً وسوف أريكما ما جلبته معي."

في غرفة الطعام، وجد الأب الآنسة روتن ماير وهي تراقب المائدة بعبوس.

"لا يبدو عليكِ السرور بمجيئي، يا آنسة روتن ماير. ما هي القضية؟ يبدو أن كلارا بصحة جيدة." قال لها.

"أوه، يا سيد سمسم، لقد خاب أملنا بشدة،" قالت السيدة.

"ماذا تقصدين؟ " سأل السيد سمسم وهو يشرب شرابه بهدوء.

" لقد كنا قد قررنا، كما تعلم، أن نجلب رفيقة لكلارا. وبما انك تعلم طبيعتي، فقد توقعت أن أجلب فتاة نبيلة، نقية، فكرت في تلك الفتاة السويسرية، وكنت أمل أن نجد حياة ندية كالريح الندي، ولكنها لم تلامس الأرض أبداً."

" ولكني أعتقد أن حتى أطفال سويسرا قد خلقوا ليلامسوا الأرض. وإلا كان لزاماً عليهم أن يكونوا ذوو أجنحة."

" أعتقد انك تعلم ما أعنيه. لقد خاب أملي جدا، حيث أن تلك الفتاة كانت قد جلبت أكثر الحيوانات رعباً إلى المنزل. يمكن لسيد كانديدات أن يخبرك بذلك!"

" لا يبدو على الفتاة أنها مريعة. ولكن ماذا تعنين؟"

"لا يمكنني أن افسر الأمر، حيث لا يبدو عليها إنها بكامل قواها العقلية في بعض الأحيان."

كان السيد سمسم قد بدأ يقلق حول الأمر في النهاية عند دخول المعلم.

" أوه، يا سيد كانديدات، آمل انك ستفسر الأمر. أرجوك، تناول كوباً من القهوة معي وأخبرني حول رفيقة ابنتي. وأوجز في الشرح، لو سمحت!"

إلا أن ذلك كان محال بالنسبة إلى السيد كانديدات، والذي كان عليه أن يحي السيد سمسم في البداية. وبعدها بدأ بطمأنة مضيفه حول الفتاة، وهو يشير أليه بأن تعليمها قد أهمل طوال هذه الفترة. إلا أن المسكين السيد سمسم، ولسوء الحظ، لم يعرف الجواب لسؤاله، وكان عليه أن يصغي لتوضيحات متشعبة عن شخصية الطفلة. وفي النهاية نهض السيد سمسم، وقال:

"أعذرني يا سيد كانديدات ولكن علي الآن أن أطمأن على ابنتي كلارا."

وجد الفتاتان في غرفة الدرس. التفت نحو هايدي والتي كانت قد وقفت لحظة دخوله، وقال:

" تعالي أيتها الصغيرة، واجلبي لي كوباً من الماء البارد."

"ماءاً بارداً؟"

" بالطبع ماءاً بارداً،" رد عليها.

ولما ذهبت هايدي، جلس بالقرب من كلارا، ومسك يدها.

" اخبريني، يا صغيرتي كلارا،" سألها، "أرجوكِ اخبريني بوضوح اي حيوانات جلبت هايدي إلى المنزل؛ هل هي مختلة عقلياً؟"

وصارت كلارا في هذه اللحظة تعيد سرد كافة الحوادث الخاصة بالقطط الصغيرة والسلحفاة، وتوضح كلام هايدي الذي أخاف السيدة. ضحك السيد سمسم من كل قلبه وسأل كلارا لو كانت تتمنى أن تبقى هايدي معها.

" بالطبع، يا أبتي، طالما هي هنا، تحدث أشياء مسلية يومياً؛ تفتقر هي للذكاء، ولكنها ترافقني دوماً."

"جيد جداً، جيد جداً، يا كلارا! ها قد عادت صديقتكِ ثانيةً. هل جلبتي الماء البارد المنعش؟" سألها السيد سمسم.

سلمت هايدي القدح إلى السيد وقالت:

" نعم باردا ومنعشا من الينبوع."

" لم تذهبي إلى الينبوع لوحدكِ يا هايدي؟" قالت كلارا.

" بلا بكل تأكيد، ولكن كان علي أن اجلبه من مكان بعيد، وكان هناك الكثير من الناس عند الينبوع الأول والثاني. وكان علي أن أذهب إلى ينبوعاً في شارع أخر، ومنه جلبت هذا الماء.وقد أرسل رجلاً نبيلاً ذو شعر ابيض تحياته إليك يا سيد سمسم."

ضحك أبو كلارا وسألها:

" من كان ذلك الرجل النبيل؟"

" لما مر قرب الينبوع وشاهدني مع القدح هناك، وقف ساكنا وقال: 'أرجوكِ أعطيني كي أشرب، حيث أنكِ تحملين قدحاً؛ لمن تأخذين هذا الماء؟، عندها قلت له: 'أني آاخذه إلى السيد سمسم.،فضحك بصوت مرتفع وابلغ تحياته إليك، أملاً أن تتمتع بشرابك."

"أني مندهش من يكون؟ كيف يبدو ذلك الرجل النبيل؟"

" له ضحكة ودودة ويرتدي سلسلة ذهبية بحجر أحمر مربوطة بتلك السلسلة النحيفة الذهبية. كما أن هناك رأس حصان على عكازه."

" أوه، أنه الطبيب، ___" " أنه طبيبي القديم،" وضح الأب والبنت بنفس الوقت.

في المساء أخبر السيد سمسم الآنسة روتن ماير بأن هايدي ستبقى، حيث أن الفتاتان كانتا مولعتان ببعض وأنه وجد هايدي طبيعية ولطيفة للغاية.

" ارغب في أن تعامل الفتاة بغاية اللطف،" أضاف السيد سمسم بحسم. " لا يجب أن تعاقب على أفعالها غير الاعتيادية. أن أمي قادمة في غضون وقت قريب لتبقى هنا، وسوف تساعدكِ في تدبير أمر الطفلة، حيث لا يوجد في هذا العالم أجمع مما لا تقدر أمي في التعامل معه، كما تعلمين، يا آنسة روتن ماير."



"بالطبع، أني اعلم ذلك، يا سيد سمسم،" ردت السيدة، إلا إنها كانت مسرورة جداً في النهاية.

بقى السيد سمسم أسبوعان، بسبب أن أعماله تطلبت وجوده في باريس. وطمان الأب ابنته بقوله لها بأن أمه قادمة قريباً. بالكاد كان السيد سمسم قد غادر، حتى أعلن عن وصول الجدة في اليوم التالي.

كانت كلارا تتطلع لتلك الزيارة وأخبرت هايدي الكثير عن الجدة العزيزة والتي صارت هايدي تطلق عليها هذا الاسم أيضا، رغم رفض الآنسة كلارا بذلك حيث أنها اعتقدت بأن هايدي غير مشمولة بتلك الألفة.

الفصل العاشر

جدة

ساد في المساء التالي ترقب عظيم في المنزل. فقد وضعت ترنتي قلنسوة جديدة، ووضع سيباستيان مسند قدمين أمام كل كرسي تقريباً، أما الآنسة روتن ماير فقد سارت بأبهة عظيمة في كل أرجاء المنزل وهي تراقب وتفتش في كل شيء.

وما أن توقفت العربات، انساب الخدم إلى الأسفل، تتبعهم الآنسة روتن ماير بخطوات رزينة. وأرسلت هايدي إلى غرفتها بانتظار أوامر جديدة، ولكن سرعان ما فتحت ترنتي الباب وقالت لها بنبرة جافة:

"توجهي نحو غرفة الدراسة!"

وبطبيعة الجدة المعهودة ولطفها سرعان ما صادقت الطفلة وقربتها إليها كما لو كانت تعرفها منذ زمن طويل. وكانت تطلق على الفتاة اسم هايدي وهو الأمر الذي أشعر الآنسة روتن ماير بالخزي.

"لو كانت هناك فتاة أسمها هايدي، فسأناديها بهذا الاسم."

وسرعان ما أدركت الآنسة روتن ماير بأن عليها أن تحترم طريقة الجدة ورأيها. وكانت السيدة سمسم لا تنتظر دقيقة منذ دخولها حتى تحيط علماً بكل مجريات الأمور في المنزل. وفي الظهيرة التي تلت، كانت كلارا قد ذهبت لتأخذ قسطا من الراحة. بينما أغلقت الجدة عينيها لمدة خمس دقائق، حتى فتحت عينيها وتوجهت نحو غرفة الطعام. وشكاً منها بأن الآنسة روتن ماير قد تكون نائمة توجهت إلى غرفة مديرة المنزل وطرقت بعنف على بابها. وبعد برهة من الزمن، كان أحدهم يسير باضطراب في داخل الغرفة، ثم خرجت الآنسة روتن ماير بوجه مرتبك وهي تتطلع بالزائر غير المتوقع.

" روتن ماير، أين الطفلة؟ وكيف تقضي أوقاتها؟ أريد أن اعرف،" قالت السيدة سمسم.

"أنها تجلس في غرفتها، ولا تحرك ساكناً؛ وليس لديها أدنى رغبة في فعل أي شيء مفيد، وهذا يفسر قيامها ببعضٍ من تلك التصرفات الاعتباطية والتي يعجز أن يذكرها المرء بأدب أمام الآخرين."

" كان علي أن افعل الشيء نفسه، لو كنت قد تركت وحيدة مثلها. أرجوكِ اجلبيها إلى غرفتي حالاً، علي أن أريها بعضاً من الكتب الرائعة التي جلبتها معي."

" هنا تكمن المشكلة. ما الذي يجب أن تفعله بتلك الكتب؟ خلال هذه الفترة الطويلة كلها لم تتعلم حتى الأبجدية حيث من المستحيل أن ندخل أي معرفة إلى رأسها. ولو لم يكن السيد كانديديات صبوراً كالملاك، لتوقف عن تعليمها منذ فترة طويلة."

"يا للغرابة! لا تبدو لي الفتاة وكأنها تعجز عن تعلم الأبجدية،" قالت السيدة سمسم. "أرجوكِ اجلبيها إلي، يمكننا التمعن بها على الأقل."

كانت مديرة المنزل تود قول المزيد، إلا أن الجدة قد غادرت الغرفة بالفعل وتوجهت إلى غرفتها. وكان تفكر في كل ما سمعته عن هايدي، وصارت تفكر كيف تعالج المسألة.

جاءت هايدي إلى الغرفة وهي تنظر بعيون ملئها العجب على تلك الصور الرائعة في الكتب الكبيرة، والتي كانت الجدة تريها إياها. وفجأة صرخت بصوت مرتفع، بسبب أنها شاهدت في الصور قطيع مسالم يرعى في المروج الخضراء. وفي منتصف الصورة كان يقف الراعي، وهي متكأ على عكازه. وكانت الشمس المشرقة تهدي كل من حولها أشعتها الذهبية. وبعيون متوهجة التهمت المنظر التهاماً، ولكن سرعان ما بدأت بالنحيب بمرارة.

أخذت الجدة العجوز يدي هايدي ووضعتها على يديها وقالت لها بلطف زائد:

"تعالِ، يا طفلتي، لا يجب عليكِ البكاء. هل يذكركِ هذا بشيء ما؟ عليكِ التوقف الآن، وسوف أقص عليكِ قصة هذه الليلة. فهناك الكثير من القصص اللطيفة في هذا الكتاب، التي يستطيع الناس قراءتها أو سردها. جففِ دموعكِ الآن، يا عزيزتي، وهل لي أن أسألك سؤالاً؟ قف، وانظري إلي الآن! والآن ها نحن سعداء مرة أخرى!"

وبعد أن هدأت الفتاة في النهاية قالت الجدة:

"أخبريني الآن كيف تسير دروسكِ. ماذا تعلمتِ؟"

"لا شيء،" قالت هايدي بحسرة، "وأنا اعرف رغم ذلك بأني لم أتعلم أكثر."

"ما هو الشيء الذي تعجزين عن تعلمه؟"

" أعجز عن تعلم القراءة، فهو أمر صعب."

"وماذا بعد؟ ومن أعلمكِ بهذه المعلومة؟"

"لقد أخبرني بطرس بذلك، فقد كان يحاول مراراً إلا انه لم يفعلها، فالقراءة صعبة جداً."

" حسناً، أي نوع من الفتيان هو؟ يا هايدي، لا يجب عليكِ أن تؤمنِ بكل ما يقوله لكِ بطرس. فاني على ثقة بأنكِ تغرقين في الأفكار في مكان أبعد من السيد كانديدات عندما يريك الأحرف."

" لا فائدة،" قالت هايدي بنبرة كما لو إنها تذعن للأمر الواقع.

"علي أن أقول لكِ شيئاً، يا هايدي." قالت العجوز الطيبة في الحال. " لم تتعلمي القراءة بسبب أنكِ آمنتِ بما قاله بطرس. وعليكِ أن تؤمني بي الآن، وأبشركِ بأنكِ ستتعلمينها بسهولة وبوقت قصير، كالبقية الباقية من الأطفال مثلكِ وليس مثل بطرس. ولما تكونين قادرة على القراءة، سوف أعطيكِ هذا الكتاب. لقد شاهدتِ الراعي في المروج الخضراء ومن ثم ستكونين قادرة على اكتشاف كل الأشياء الغريبة التي حصلت له. نعم، يمكنكِ أن تسمعي كامل القصة، وما فعله بماعزه وخرافه. ويسركِ أن تعرفي أليس كذلك، يا هايدي؟"

سمعت هايدي كل ما قالته الجدة بانتباه، وقالت بعينين براقتان.

"يا ليتني استطيع القراءة فقط!"

" سوف لن يستغرق الأمر فترة طويلة. تعالِ ألان فلنذهب إلى كلارا." وعندها غادرتا إلى غرفة الدراسة.

ومنذ اليوم الذي حاولت فيه هايدي التعلم حتى حل عليها تغير عظيم. وقد أدركت هايدي إنها سوف تجرح مشاعر أصدقائها لو حاولت العودة إلى المنزل ثانية. وعلمت في هذه اللحظة بأنها لن تستطيع المغادرة، حيث أن خالتها ديتا قد وعدت، لهم كلهم، وبالخصوص كلارا، وأبيها مع العجوز، والذي ستصور بأنها بغيضة. إلا أن العبء بدأ يكبر بقلبها وفقدت شهيتها وبدأت تبدو أكثر شحوباً. ولم تستطع النوم ليلاً بصورة جيدة من شدة الحنين إلى الجبال والزهور وشروق الشمس. ولم تشعر بالسعادة في أحلامها فقط. وعندما تستيقظ في الصباح، كانت تجد دوماً نفسها في فراشها العالي الأبيض، بعيدة عن المنزل. وكانت تغط في بكاء لفترة طويلة بعد أن تدفن رأسها في الوسادة.

لاحظت السيدة سمسم تعاسة الفتاة، غير أنها ظنت أنها بعد مرور بضع أيام ستتغير. إلا أن التغيير لم يأتي وكانت عينا هايدي حمراوان حتى في الصباح الباكر. ولهذا السبب دعت الفتاة إلى غرفتها في أحد الأيام وقالت لها بعطف كبير بصوتها:

"اخبريني يا هايدي، ما هي مشكلتكِ؟ ما الذي يجعلكِ بهذا الحزن؟"

ولكن بسبب رغبة هايدي بعدم الظهور كجاحدة قالت بحزن:

"لا يمكنني إخباركِ."

"كلا؟ إلا تقدرين إخبار كلارا أيضاً؟"

" أوه، كلا، لا يمكنني أخبار أي شخص،" قالت هايدي ويبدو عليها الحزن الأمر الذي جعل قلب السيدة العجوز ينفطر من الأسى.

" علي أن أقول لكِ شيأً ما، أيتها الطفلة الصغيرة،" واصلت العجوز كلامها، "لو كنتِ حزينة إلى درجة أنكِ لا تقولين لأحد، عليكِ أن تتوجهي الله في الجنة. يمكنكِ أن تخبريه بكل شيء يقلقكِ، ولو دعوناه لاستجاب ولأبعد عنا همنا. هل تفهميني، يا طفلتي؟ إلا تصلين كل يوم؟ إلا تفكرين بالله لنعمته وتسألينه الحفظ من الشيطان؟"

"أوه، كلا، لم افعل ذلك،" أجابت الطفلة.

"الم تصلِ أبداً؟ هل تفهمين قصدي؟"

لم أصلي إلا مع جدتي الأولى، ولكن كان هذا منذ فترة طويلة، حتى أني نسيت كيف أصلي."

"إلا ترين يا هايدي، افهم الآن سبب تعاستكِ. كلنا بحاجة إلى شخصاً ما يساعده، وفقط فكري في جمال المسألة، عندما تتوجهين إلى الله وقد ضايقنا هماً وتسبب لنا بالألم. يمكننا أن نناجي الله في كل شيء وندعوه أن يزيل عنا الهم، حيث يعجز الآخرين عن فعل هذا لنا. يمكنه أن يلهمنا السعادة والفرح."

ابتهجت هايدي بتلك الأسرار، وسألت:

"هل يمكننا أن نخبر الله بكل شيء؟"

"نعم يا هايدي كل شيء."

سحبت الطفلة يدها من يد الجدة، وقالت:

"هل لي أن أذهب الآن؟"

"" نعم، يمكنكِ ذلك،" كان هذا رد الجدة، ولما سمعت هايدي الرد، انطلقت إلى غرفتها. وجلست على مقعدها وطوت يديها قرب قلبها وأخلصت قلبها لله داعية إياه أن يعينها في الذهاب إلى منزل جدها.



وبعد أسبوع، سأل السيد كانديدات رؤية السيدة سمسم، كي يخبرها شيئاً ما حدث بصورة غير طبيعية. وبعد إن دعته السيدة إلى غرفتها، بدأ بالحديث:

"يا سيدة سمسم، شيئاً ما حدث، لم أكن أتوقعه،" وبكلمات أكثر أعلمت الجدة وهي فخورة بأن هايدي تعلمت فجأة القراءة بصورة صحيحة وعجيبة، وهو أمر نادر مع المبتدئين.

"الكثير من الأشياء الغريبة تحدث في هذا العالم،" نوهت السيدة سمسم، في الوقت الذي توجها فيه إلى غرفة الدرس ليطلعوا على إنجازات هايدي الجديدة.

كان هايدي تجلس بالقرب من كلارا، وتقرأ القصة؛ وكان يبدو عليها التعجب على العالم الغريب الذي فتح أبوابه أمامها. وعند العشاء وجدت هايدي الكتاب الكبير ذو الصور الجميلة على طبقها، ونظرت بشك نحو الجدة، ورأت الجدة تومئ فقط.

"ألان هذا الكتاب صار لكِ، يا هايدي." قالت العجوز.

"للأبد؟ حتى لو ذهبت إلى منزلي؟" تساءلت هايدي، مع فرح غامر.

"طبعا، للأبد!" طمأنتها الجدة. "في الغد سنبدأ بقراءته."

" ولكن يا هايدي، لا يجب أن تذهبي إلى منزلكِ، اقصد ليس لسنوات طويلة،" استفسرت كلارا، "وخصوصاً بعد مغادرة الجدة. يجب أن تبقي معي."

وصارت هايدي تنظر بكتابها قبل أن تخلد إلى النوم في تلك الليلة، وأصبح هذا الكتاب أعز كنوزها. وصارت قادرة على النظر إلى الصور الرائعة وقراءة كل القصص بصوت مرتفع لكلارا. وكانت الجدة تصغي بهدوء وتفسر في بعض الأحيان شيئاً هنا وشيئاً هناك، وتجعل من الأمر شيئاً أفضل بكثير من السابق. أحبت هايدي صورة الراعي على بقية الصور؛ وكانت تحكي قصة الابن المسرف، وكانت الفتاة تقرأ وتقرأ حتى حفظتها على ظهر قلب. ومنذ أن تعلمت هايدي القراءة ومنذ أن امتلكت الكتاب، كانت الأيام تمضي بسرعة، وحان موعد رحيل الجدة.

الفصل الحادي عشر

هايدي تفلح في أشياء وتخيب في أشياء أخرى

كانت الجدة ترسل بطلب هايدي يومياً بعد العشاء، في الوقت الذي تأخذ فيه كلارا قسطاً من الراحة، وتختفي الآنسة روتن ماير في غرفتها. كانت تتحدث إلى هايدي وتحاول إمتاعها بشتى الوسائل، وكانت تبين لها كيفية خياطة الملابس لدماها الجميلة الصغيرة التي جلبتها. ومن غير أن تعي تعلمت هايدي الخياطة وصار تعد الآن أجمل الفساتين والمعاطف للدمى من مواد غاية في الجمال التي أعطتها الجدة لها. واعتادت هايدي أن تقرأ للجدة، وكلما أعادت قراءة القصة كلما صارت أجمل لها. وكانت الفتاة تعيش حياة الأبطال في القصص وكان تسعد في كل مرة تعيد فيها قراءة القصة. ولم تكن هايدي رغم كل شيء تشعر بالسعادة السابقة أو تبرق عينيها بالمرح المعهود.

وفي نهاية الأسبوع المقرر لرحيل السيدة سمسم، كانت الجدة قد دعت هايدي إلى غرفتها. ودخلت هايدي إلى الغرفة مع كتابها المحبوب، وطرحت الكتاب جانباً وقالت:

"تعالي يا طفلتي، وأخبريني لما أنتِ حزينة. هل تعانين من نفس الهموم؟"

"نعم،" ردت هايدي.

"هل أفضيتِ بها إلى الله؟"

"نعم."

"هل صليتِ إلى الله كل يوم ودعوتِ بأن يجعلكِ سعيدة مرة أخرى، وأن يزيح همومكِ؟"

"أوه، كلا، لم أعد أصلي."

"ما الذي اسمعه، يا هايدي؟ لماذا لم تصلِ؟"

"لم يعد الأمر ينفع، حيث أن الله لم يسمعني. ولا أتعجب." أضافت، "حيث أنه لو كان الناس يصلون في فرانكفورت كل حين، فهو لن يسمعهم جميعاً. فأنا على يقين بأنه لم يسمعني."



"أحقا؟ ما سبب تأكدكِ؟"

"بسبب أني صليت ودعوت بذات الشيء مرات ولأسابيع والله لم يلبي لي دعائي."

"ليس بهذه الطريقة تجري الأمور،

يا هايدي. إلا تفهمين، أن الله في السموات، وهو الخالق الذي يعلم ما نحتاجه أفضل من أي كائن، فلو دعينا الله بسؤال فيه شر لنا، فسوف يعطينا ما هو أفضل، فلو اعتمدنا على الله فسوف لن نفقد حبه لنا. أني على ثقة بأن ما دعيتِ به الله ليس ذي نفع لكِ في هذه الفترة؛ فقد سمع دعائكِ، حيث أنه القادر على سماع صلوات وأدعية كل الناس في العالم في نفس الوقت، حيث هو الله العظيم وليس بفاني مثلنا. لقد سمع دعائكِ وقال في نفسه ((نعم، ستحصل هايدي على ما دعت به، فقط في الوقت المحدد.)) إما ألان، وبينما الله ينظر إلى الأسفل أليكِ ويسمع صلاتكِ، تفقدين أنتِ ثقتكِ وتبعدين عن الله. لو كان الله لا يسمع صلاتكِ بعد ألان، فسوف ينساكِ أيضا وسيدعكِ تذهبين. إلا تريدين الرجوع إلى الله يا هايدي، وتسألينه المغفرة؟ صلِ إليه كل يوم، وضعي أملكِ فيه، عسى أن يعيد هذا البهجة والسرور إليكِ."

سمعت هايدي هذا الكلام بأذن صاغية، فقد كانت لها ثقة عمياء بهذه السيدة، والتي تركت كلماتها الأثر العميق في نفسها. قالت هايدي وهي مليئة بالندم:

"سوف أذهب ألان وأسال ربنا أن يغفر لي، ولن أنساه أبداً!"

"هذا صحيح، يا هايدي؛ أني متأكدة من انه سيساعدكِ، لو فقط وثقتِ به." نصحتها السيدة.

توجهت هادي إلى غرفتها في هذه اللحظة وصلت إلى الله بكل إخلاص عسى أن يغفر لها ويستجيب لها ما تدعوه.

وحان اليوم المقرر للرحيل، إلا أن السيدة سمسم رتبت كل شيء بطريقة جعلت من الأطفال تدرك بصعوبة إنها مغادرة فعلاً. ولما رحلت عاد كل شيء فارغاً وهادئاً، وصار الأطفال غير عارفين بكيفية القضاء على الوقت.

في اليوم التالي، جاءت هايدي إلى كلارا عند الظهيرة وقالت لها:

"هل صار لزاماً علي أن أقرأ لكِ كل يوم، يا كلارا؟"

أيدت كلارا، وبدأت هايدي. إلا إنها لم تواصل القراءة بعد برهة حيث كانت القصة تروي كيف توفت الجدة. صاحت فجأة بصوت مرتفع:

" والآن توفت الجدة!"وصارت تبكي بطريقة تبعث على الشفقة.فكل ما كانت تقرأ هادي كان بالنسبة لها حقيقة، وها هي ألان تعتقد أن الجدة في القصة هي جدتها في وطنها. وارتفع صوت بكاءها أكثر وأكثر.

"ها هي الجدة المسكينة تموت ولن استطيع أن أراها بعد ألان، ولن تحصل على الفطير الأبيض!"

حاولت كلارا أن توضح لها الخطأ التي وقعت فيه، إلا أن هايدي كانت تعسة جداً. وقد تصورت في نفسها مدى الرعب لو كان جدها سيموت أيضا وهي بعيدة عنه أيضا. فكيف سيكون الكوخ وحيداً وفارغا وكم ستشعر بالوحدة!

استرقت الآنسة روتن ماير السمع إلى الحديث كله، واقتربت الآنسة من الطفلة المنتحبة وقالت بنفاذ صبر:

"يا أديهايد، لقد صرختِ بما فيه الكفاية إلى ألان. لو سمعتكِ مرة أخرى تثيرين هذه الفوضى سوف أخذ منكِ كتابكِ ولن تريه إلى الأبد!"

شحب وجه هايدي لسماعها هذا، حيث كان الكتاب أغلى كنوزها. فأسرعت في تجفيف دموعها، وخنقت العبرة في صدرها. ولم تبكِ هايدي بعد ذاك أبداً؛ وكانت عادة ما تخفي عبراتها بصدرها وكانت تغير ملامحها بطريق غريبة جداً كي لا تبكي بصوت مرتفع. وكان كلارا تراقبها في العادة في غاية الدهشة، غير أن الآنسة روتن ماير لم تلحظ الفتاتان ولم تجد العذر والمناسبة لتطلق تهديداتها. ومع ذلك، كانت تعاسة الفتاة تزداد يوماً بعد يوم، ونحف جسمها جداً وشحب وجهها حتى بدأ سياستيان يقلق. وحاول أن يشجعها عن الطاولة لتسعد نفسها في اختيار ألذ الأطباق إلى نفسها، غير أن إنها لم تمتلك الرغبة بلعها أو أن تلمس أي لقمة أخرى. وفي المساء كانت تبكي بصمت، وكاد قلبها ينفجر من شدة الحنين إلى الوطن.

وهكذا، مر الوقت ببطء. ولم تعد هايدي تعرف فصل الصيف من الشتاء، حيث أن الجدران في الخارج لا تتغير أبداً. ولم تكن تخرج إلا نادراً، حيث أن كلارا كانت عاجزة عن السير إلا لمسافة قصيرة. ولم يكونوا يروا إلا الشوارع والمنازل والناس المزدحمة، لا حشائش ولا شجر التنوب ولا أي اثر للجبال. وجاهدت هايدي بثبات ضد أحزانها ولكن بعفة. مر الخريف ثم الشتاء، وعلمت هايدي أن الأوان قد حان لبطرس أن يصعد إلى الألب مع ماعزه، حيث تبدأ الزهور بالبريق مع ضوء الشمس وتشتعل الجبال جميعاً. وكانت تجلس في أبعد ركن من غرفتها وتضع كلتا يديها قبالة عينيها، كي لا ترى انعكاس الشمس التي تبرق على الجدار. وكانت ستبقى هنا، والحنين يأكل بقلبها، حتى تناديها كلارا لتأتي.



الفصل الثاني عشر
منزل السيد سمسم مسكون!

كانت الآنسة روتن ماير تتجول لعدة أيام حول المنزل. ولما كانت تتجول من غرفة إلى غرفة عبر الممر، كانت كثير ما تلتفت بسرعة خاطفة إلى الخلف كما لو كانت تخشى أن يكون شخصاً ما يتبعها. فلو كان عليها أن تتوجه إلى غرفة الضيوف الأنيقة في الطابق العلوي أو أن تنزل إلى الطابق السفلي حيث تقع الغرفة الدائرية الكبيرة، كانت تخبر تينيتي لترافقها. لكن الغريب في الأمر هو أنه لا احد من الخدم يتجرأ على الطواف وحيداً إلى أي مكان وكان لكل واحد منهم العذر في سؤال الأخر ليأتي معه، وطبعا طلبه يكون مجاباً. الطاهية، التي كانت في المنزل منذ سنوات طويلة، كانت تطرق برأسها وتتمتم:

"يا الهي لقد عشت طوال تلك الفترة لأرى هذا!"

لقد كان يحدث شيئا غريباً غير طبيعي في المنزل. كل صباح، وما أن ينزل الخدم إلى الأسفل، يجدون الباب الأمامي مفتوح على مصراعيه. في البدء أعتقد الجميع أن المنزل قد تعرض إلى السطو، إلا انه لم يُفقد شيء. ويحدث الأمر كل صباح على الرغم من مضاعفة الأقفال التي وضعت على الباب. وفي النهاية تشجع كل من يحيى وسباستيان وحضّرا نفسيهما لنوبات حراسة خلال فترة الليل ليعرفا من كان الشبح. وتسلحا بالسلاح والبارود وأعدا غرفة في الطابق السفلي. في البدء كانا يتحدثان، غير أن النعاس سرعان ما هجم عليهما، واتكئا على كرسيهما. ولكن لما طرق ناقوس الكنيسة القديمة معلناً الساعة الواحدة، استيقظ سباستيان وأيقظ معه رفيقه، وطبعاً لم تكن المسألة مريحة في البداية. وفي النهاية، مع ذلك، صار يحيى بكامل عقله، وتوجها سويةً إلى الصالة. وفي ذات الوقت، أطفأت ريحاً قوية النور الذي كان يحمله يحيى بيده. تراجع فضرب سباستيان الذي كان يقف خلفه مباشرةً، سحب كبير الخدم نحو الغرفة، وأغلق على عجل وخوف متاريس الباب. ولما شعلا النور مرة أخرى، لاحظ سباستيان أن يحيى كان شاحب كالميت، ويرتعش مثل الورقة الرقاقة. سأل سباستيان الذي لم يرى أي شيء بقلق:

" ماذا حصل؟ ماذا رأيت؟"

"لقد كان الباب مفتوحاً، وشيئا ابيض كان يقف عند السلم؛ وصعد واختفى بلحظة،" ثرثر يحيى.

صعدت قشعريرة باردة على ظهر كبير الخدم. وجلسا بلا حراك حتى حل الصباح، وبعدها، أغلقا الباب وصعدا ليقرا بكل ما شاهداه إلى الآنسة روتن ماير. وكانت مدبرة المنزل

بدورها، التي كانت تنتظر بلهفة، قد سمعت الحكاية وأسرعت بالكتابة إلى السيد سمسم. وأخبرته بأن الرعب قد شل أصابعها وان شيئا مريعاً كان يحدث كل يوم في المنزل. ثم تلا الحكاية رؤية الشبح. أجاب السيد سمسم بأنه غير قادر على ترك عمله، ونصح الآنسة روتن ماير بأن تكتب إلى أمه كي تبقى معهم، حيث أن السيدة سمسم ستستطيع بكل سهولة تولي أمر الشبح. شعرت الآنسة روتن ماير بأنها قد جرحت مشاعرها من تلك الرسالة، حيث لم يؤخذ بنظر الاعتبار منصبها. وأجابت السيدة سمسم بأنه غير قادرة على المجيء أيضاً. لذا قررت مدبرة المنزل أن تخبر الأطفال بكل ما جرى. وكانت كلارا بعد أن سمعت القصة المرعبة، قررت في الحال أنها سوف لن تبقى للحظة واحدة لوحدها بعد الآن، وأملت أن يأتي أبوها في الحال إلى منزله. قررت مدبرة المنزل على أن تبقى مع الفتاة المغشي عليها من الرعب، بينما كانت هايدي التي تجهل ما هو الشبح، بقيت ساكنة بلا حراك. أرسلت رسالة أخرى إلى السيد سمسم، وأخبروه بأن تأثير الصدمة على الفتاة قد تكون جدية على تركيبتها العقلية. واخبروه بما قد يحدث من حوادث سيئة لو لم يخلصوا مدبرة المنزل من كل هذا الرعب.

وكان هذا الذي جعل السيد سمسم يأتي. وبعد أن وصل توجه إلى غرفة ابنته، وكان سعيداً بأن يراها بصحة جيدة كما تركها. وكانت كلارا سعيدة لرؤية أباه أيضاً.

"ما هي الخدع الجديدة الممتعة التي أتحفكم بها الشبح، يا آنسة روتن ماير؟" سأل السيد سمسم والبريق في عينيه.

"هذه ليست مزحة، يا سيد سمسم،" أجابت السيدة بجدية. "أني متأكدة بأنك لن تضحك في الغد. أن تلك الحوادث التي تجري تشير إلى حدوث شيئاً ما مرعب وسري في المنزل منذ أيام متواصلة."

"هل الأمر كذلك؟ هذا جديدٌ علي،" أشار السيد سمسم. "ولكن هل من فضلك أن لا تشكِ بأسلافي؟أرجوكِ نادي على سيباستيان؛ أرغب بالحديث معه على انفراد"

علم السيد سمسم أن الاثنان لم يكونا على وفاق، لذا قال لكبير الخدم:

" تعال، يا سيباستيان، وأخبرني بأمانة، هل لعبت دور الشبح لتخيف الآنسة روتن ماير طوال هذه الفترة؟"

"كلا، أقسم، يا سيدي؛ لا يجب عليك التفكير بذلك،" رد سيباستيان بصراحة." الأمر لا يروق لي البتة."

"حسناً، سأريك أنت ويحيى كيف تبدو الأشباح في النهار. عليكما أن تشعرا بالعار من نفسيكما، وأنتما رجلان قويان هكذا! اذهب الآن إلى صديقي القديم الطبيب كلاسين في

الحال، وأخبره بأن يأتي إلي عند الساعة التاسعة مساءاً. وأخبره بأني جئت من باريس مخصوصاً للأخذ برأيه. واني أريد منه أن يقضي الليل طوله معي. هل تفهمني يا سياستيان؟"

"نعم بالفعل! سأفعل ما تأمرني يا سيد سمسم." وتوجه السيد سمسم إلى غرفة كلارا فقط ليجعلها تطمأن.

وتماماً في الساعة التاسعة مساءاً وصل الطبيب كلاسين. وعلى الرغم من أن لون شعره كان رمادياً إلا انه كان يتمتع بوجه نضر، وكانت عيناه تبعثان المرح واللطف. وما أن رأى صديقه، حتى ضحك بصوت مرتفع وقال:

"حسناً، حسناً، أنك تبدو بحالة صحية جيدة على أن تكون مريضاً بحاجة إلى مراقبة طوال الليل."

"صبراً يا صديقي العجوز،" أجاب السيد سمسم. "أخشى أن الشخص الذي علينا مراقبته طوال الليل يبدو أسوأ، ولكن علينا أن نقبض عليه أولاً."

"ماذا؟ أذن أحدهم مريض في هذا المنزل؟ ما الذي تعنيه؟"

"أسوأ بكثير، يا دكتور، أسوأ بكثير. هناك شبحاً في المنزل. أن منزلي مسكون."

وبينما كان الطبيب يضحك، واصل السيد سمسم كلامه:

"أني أدعو ذلك، تعاطفاً؛ وأتمنى أن تسمعك الآنسة روتن ماير. فهي مقتنعة بأن السيد سمسم العجوز يتجول في المنزل، يحاول التكفير عن بعض الأفعال المشينة."

"كيف شرع بالظهور؟" سأل الطبيب مفترضاً.

وضح السيد سمسم الظروف. فأما أن يكون هناك بعض الخدم الذين يحاولون المزاح في غيابه، أو أنها مجموعة من اللصوص اللذين يحاولون إرعاب الناس وبعدها يسرقون منزله شيئا فشيئاً.

وبعد الانتهاء من هذا التوضيح، دخلا إلى الغرفة التي استعملها الخادمان للمراقبة قبلاً. وبعد شراب بعض القناني من العصير الموضوعة على الطاولة ومن ثم أشعلا شمعدانان ليضيئا بنور رائع. وكان هناك مسدسان جهزا للحالات الطارئة.

تركا الباب مفتوح جزئياً، حيث أن النور الكثير قد يبعد الشبح. ومن ثم، بعد أن جلسا براحة، صارا يقضيان وقتهما بالثرثرة، ويشربان عصيرهما من حين إلى أخر.

"يبدو أن الشبح قد تجسس علينا ومن المحتمل انه لن يأتي،" قال الدكتور.

"علينا أن نتحلى بالصبر. فهو قادم بين الحين والأخر." رد صديقه.

وصارا يتحدثان حتى حلت الساعة الواحدة ليلاً. كان كل شيء هادئاً. ولا حتى صوتاً واحداً يأتي من الشارع. وفجأة رفع مقبض الباب.

" صه! يا سمسم، إلا تسمع شيئا ما؟"

وبينما كان الاثنان يستمعان، كان المقبض محرر، واستدار المفتاح، وفتح الباب. قبض السيد سمسم على مسدسه.

" أمل إنك لست بخائف؟" قال الطبيب ونهض.

"بل أني حريص!" همس السيد سمسم، وقبض على الشمعدان باليد الأخرى. وتبعه الطبيب ومسدسه بيده اليمين، وهكذا دخلا إلى الصالة.

وقف عند المدخل شبح ابيض بلا حراك، أضاء القمر جزءا منه.

"من هناك؟" صاح الطبيب، وتقدم نحو الشبح. التفت الشبح وأطلق صيحة خافتة. وهناك كانت تقف هايدي، بقدمين عاريتان وبرداء نوم ابيض، وبدا عليها الارتباك بسبب الضوء الخافت والأسلحة. كانت ترتعش من شدة الخوف، بينما وقف الرجلين ينظرون بدهشة.

"يا سمسم، أنها الفتاة الصغيرة حاملة الماء،" قال الطبيب.

"يا طفلتي، ما الذي يعنيه هذا؟" سأل السيد سمسم. "ما الذي تنوي فعله؟ لماذا نزلتِ إلى هنا؟"

قالت هايدي وهي شاحبة من شدة الخوف:

"لا أعرف."

تقدم الطبيب إلى الأمام في هذه اللحظة.

"يا سمسم، أن هذه الحالة من اختصاصي. أرجوك، اذهب واجلس بينما أخذها إلى الفراش."

وضع مسدسه جانباً، وأخذ الفتاة المرتعشة إلى الأعلى.

"لا تخافِ، فقط اهدئي! كل شيء سيكون بخير. لا ترتعبي."

وما أن وصلا إلى غرفة هايدي، حتى وضع الطبيب الفتاة الصغيرة على الفراش، وغطاها بصورة جيدة. وسحب كرسياً قرب الموقد، وأنتظر هايدي حتى تهدأ وتتوقف عن الارتجاف. ثم أخذ يدها في يده، وقال بلطف:

"ها قد أصبح كل شيء على ما يرام مرة أخرى. أخبريني إلى أين تنوين الذهاب؟"

" لم اشأ الذهاب إلى أي مكان،" طمأنته هايدي. "لم اذهب بنفسي، بل كنت هناك من قبيل الصدفة."

"احقاً؟ أخبريني، بماذا كانت تحلمين؟"

"أوه، أني أشاهد الحلم ذاته في كل ليلة. أفكر دوما بجدتي مرة أخرى، ويمكنني أن اسمع رفيف أوراق شجر التنوب. أني أفكر دوماً بجمال النجوم هناك، ثم أقوم لأفتح باب الكوخ. وأوه، يا له من شيء عجيب! ولكن، ما أن استيقظ حتى أجد نفسي دوماً في فرانكفورت." وكان على هايدي أن تحارب البكاء المنبثق من حنجرتها.

" هل يؤلمك رأسكِ أم ظهركِ، يا طفلتي؟"

"كلا، بل أشعر وكأن حجراً كبيراً قد ألصقني هنا."

"كما لو أنكِ قد تناولتِ شيئا يختلف معك؟"

"أوه، كلا، ولكن كما لو كنت أريد البكاء بشدة."

"أها، وعندها تبكي بشدة، أليس كذلك؟"

" أوه، كلا، ليس علي فعل ذلك، حيث أن الآنسة روتن ماير قد منعتني من البكاء."

"وهكذا قمتِ ببلع كل النحيب والبكاء، أليس كذلك؟ هل تودين البقاء هنا."

"بالطبع،" وكانت شاحبة، وغير متأكدة من الجواب.

"أين تعيشين مع جدكِ؟"

" في أعالي جبال الألب."

" ولكن إلا تعتقدين بأن الوضع هناك في عزلة؟"

"أوه، كلا، انه غاية الجمال!" – ولكن لم تتجرأ هايدي على قول المزيد. حيث أن العودة، والدهشة، في تلك الليلة وكل حالات الحزن المكبوت قد سيطرت على الفتاة. وأندفع الدمع منهمراً على وجنتا الطفلة، وبدأت بالنحيب بصوت مرتفع.

وقف الطبيب، وطمأنها:

" لا يؤذيكِ البكاء؛ سوف تذهبين إلى النوم سريعاً، ولما تنهضين، كل شيء سيكون على خير ما يرام." وغادر الغرفة.

التحق الطبيب بصديقه القلق في الأسفل، وقال:

"يا سممسم، أن الفتاة تسير أثناء نومها. وبدون قصد أرعبت كل طاقمك. أضف على ذلك، أنها تعاني من الحنين إلى الوطن وهذا ما جعل جسدها الصغير يضمر. علينا العمل بسرعة. العلاج الوحيد للفتاة هو إعادتها إلى نسيم الجبال. وهذه وصفتي وعليها أن تذهب في الغد."

"ماذا، مريضة، تسير إثناء نومها، وجسدها يضمر، في منزلي! لا يشك أحد في ذلك! وهل تريد مني أن أرسل الفتاة وهي بهذه الحالة. وهي التي جاءت بكامل قواها الصحية؟

كلا، يا طبيب، اسأل أي شيء إلا هذا. ساعدها وصف لها العلاج المناسب، ولما تتعافى أرسلها.

" يا سمسم،" رد الطبيب بجدية، "فكر فقط بما تفعل. نحن لا نشفيها بالمساحيق والأقراص. جسد الفتاة واهن، ولو أبقيتها هنا، سوف لن تتعافى مرة أخرى. ولكن لو أعدتها إلى نسيج الجبال حيث اعتادت فسوف تتعافى بسرعة مرة أخرى."

وما أن سمع السيد سمسم ما قيل له، حتى قال:

"لو كانت تلك نصيحتك لي، علينا أن نقوم برد فعلنا حالاً؛ وهذا هو الحل."

وبتلك الكلمات أخذ السيد سمسم يد صديقه وسارا ليتكلما أكثر بالموضوع. وما أن حل كل شيء، أخذ الطبيب الأذن، حيث أن الصباح قد حل وبدأت الشمس بالشروق وتمر عبر الباب.



الفصل الثالث عشر
في أعالي الألب في مساء صيف

صعد السيد سمسم السلم في اهتياج كبير، وطرق على باب مدبرة المنزل. وسالها أن تتعجل، حيث يجب القيام بكل التحضيرات لرحلة. أطاعت الآنسة روتن ماير التعليمات وسط تذمر شديد، حيث لم تبلغ الساعة الآن الرابعة والنصف فجراً. ارتدت ملابسها على عجل، على الرغم من صعوبة ذلك كونها متوترة ومندهشة. وتم إعطاء ما تبقى من خدم الأوامر نفسها، وأعتقد الجميع أن سيد المنزل قد استولى عليه الشبح وها هو يقرع الجرس طلباً للمساعدة. ولما نزل الجميع بنظرات رعب، كانوا جميعاً متعجبين لرؤية السيد سمسم، وهو في مزاج جيد وعلى خير حال ويعطي الأوامر.استلم يحيى الأوامر ليعد الخيل واخبرت تينيتي أن تجعل هايدي مستعدة للمغادرة، بينما كان سيباستيان قد أمر بأحضار خالة هايدي. أمر السيد سمسم مدبرة المنزل أن تحزم الحقيبة بكل ما أوتيت من سرعة لهايدي.

مرت على الآنسة روتن ماير خيبة أمل عظيمة، حيث كان المفترض إنها تعلم أو يخبرها السيد سمسم بهذا الغموض الكبير. غير أن السيد سمسم كان من الواضح أنه في مزاج لا يسمح له بالحديث أطول، فذهب إلى غرفة أبنته. كانت كلارا قد ايقظتها الضوضاء العارمة وكانت تصغي بانتباه. وأخبرها ابوها بما جرى وكيف أن الطبيب أمر أن ترجع هايدي إلى موطنها، بسبب أن حالتها الصحية تسوء. فقط تسلق السقف أو تعرض نفسها إلى الخطر الاكبر، لو لم تعالج بالحال.

كانت مفاجئة كلارا مؤلمة وحاولت منع أباها من تنفيذ هذه الخطة. إلا إنها بقيت ثابتة، مع ذلك، ووعدت بأن تأخذها إلى سويسرا بنفسها في الصيف القادم، فقط لو كانت جيدة الآن. استسلمت الفتاة وطلبت أن يتم حزم حقيبة هايدي في غرفتها. شجعها السيد سمسم بأن يحضرا سوية ملابس جيدة لصديقتها الصغيرة.

وصلت خالة هايدي في الوقت المناسب. ووجدت الكثير من الاعذار عندما أخبروها أن تأخذ ابنة أختها إلى موطنها، وبينت تلك الاعذار إنها لا ترغب في تنفيذ هذه المهمة. وكانت ديتا تتذكر جيداً كلمات العم عند فراقهما. صرفها السيد سمسم، وأمر استدعاء سيباستيان. تم أخبار كبير الخدم بأن يتهيأ للسفر مع الفتاة. عليه أن يذهب أولاً إلى بازل ويقضي ما تبقى من اليوم هناك في فندق محترم ودله السيد عليه. وفي اليوم التالي يتم إرسال الفتاة إلى موطنها.

"اصغي الي جيدا، يا سياستيان،" قال السيد سمسم، "وافعل تماماً ما أخبرك به. أني أعرف فندقا في بازل، ولو أعطيتهم بطاقتي سوف يعطوك غرفاً جميلة وجيدة. أذهب إلى غرفة الطفلة واقفل النوافذ، حتى لا تنفتح إلا بالقوة. وعندما تذهب هايدي إلى الفراش، أقفل الغرفة من الخارج، بسبب أن الطفلة تسير اثناء نومها وقد تؤذي نفسها في هذا الفندق الغريب. فقد تستيقظ وتفتح الباب هل تفهم؟"

"أوه! أوه! أذن كانت هي؟" قال كبير الخدم متعجباً.

"نعم، كانت هي! أنت جبان، ويمكنك أن تخبر يحيى بأنه أيضا جبان. أيها المغفلان، هل تخافان؟" وبهذه الكلمات ذهب السيد سمسم إلى غرفته ليكتب رسالة إلى جد هايدي.

شعر سياستيان بالعار وقال في نفسه بأنه كان عليه أن يقاوم يحيى وان يكتشف الأمر بنفسه.

ارتدت هايدي معطفها الأحمر المخصص لأيام الأحد ووقفت تنتظر أي أوامر أخرى.

نادى السيد سمسم عليها في هذه اللحظة:

"صباح الخير، يا سيد سمسم،" قالت وهي تدخل إلى غرفته.

"ما رايكِ بالأمر، أيتها الصغيرة؟" سألها. نظرت إليه بدهشة.

"لا يبدو عليكِ انكِ تعرفين أي شيء عن الموضوع،" ضحك السيد سمسم.

فلم تخبر تينيتي الطفلة أي شيء حيث اعتقدت إنه ليس من مستواها أن تتحدث إلى هايدي القروية.

"اليوم ستذهبين إلى موطنكِ."

"موطني؟ "كررت هايدي بصوت منخفض. عليها أن تلهث بسبب دهشتها العظيمة.

"هل ترغبين بسماع شيئا حول الأمر؟" سألها السيد سمسم مبتسماً.

"أوه، نعم، أود ذلك،" قالت الطفلة بخجل.

"جيد، جيد،" قال السيد سمسم الطيب. "أجلسي وكلي فطورا كبيراً الآن، حيث أن عليكِ أن تسيري مسافة طويلة إلى الامام."

لم تتمكن الفتاة من ابتلاع اشهى الاطباق، على الرغم من أنها كانت تود ذلك مطيعة الأوامر. كان الأمر بالنسبة لها وكأنه حلم.

"أذهبي إلى كلارا، يا هايدي، حتى تصل العربة،" قال السيد سمسم بلطف.

كانت هايدي ترغب ذلك بشدة، وركضت في هذه اللحظة إلى غرفة كلارا، حيث كانت هناك حقيبة كبيرة.

"يا هايدي، أنظري إلى كل تلك الأشياء التي حضرتها لكِ. هل تحبينها؟" سألتها كلارا.

كانت هناك الكثير من الأشياء الجميلة في الحقيبة، غير أن هايدي قفزت من الفرحة فقط لما أكتشفت سلة صغيرة مع اثنا عشر فطيرة بيضاء أعدت للجدة الضريرة. ونست الفتاتين أن موعد الفراق قد حل، ما أن اعلن عن وصول العربة. ولم تكن هايدي قد أخرجت كل كنوزها من غرفتها إلى الآن. كان كتاب الجدة قد أعد بطريقة لائقة، أما الشال الأحمر فقد تركته الآنسة روتن ماير خلفها. ثم أرتدت قبعتها الجميلة، وتركت الغرفة بعد أن ودعت كلارا. ولم يكن هناك الوقت الكافي لفعل كل هذا حيث كان السيد سمسم ينتظر ليضع هايدي في العربة. وكانت الآنسة روتن ماير تنتظر عند السلم لتودع تلميذتها النجيبة حتى لمحت رزمة حمراء في يد هايدي، فأخذتها منها ورمتها على الأرض. نظرت هايدي بتوسل إلى حاميها السيد سمسم وشاهد الأخير كم هو ثمين كنزها، فاعادها إليها. شكرته الفتاة السعيدة عند مغادرتها على كل ما هو صالح فعله معها. وأرسلت رسائل الشكر إلى الطبيب الطيب العجوز، والتي تعتقد بأنه السبب الرئيسي في ذهابها.

وبينما كانت هايدي توضع في العربة طمأنها السيد سمسم بأنه مع كلارا سوف لن ينسوها أبداً. تبعها سياستيان مع سلتها مع حقيبة كبيرا وفيها مؤنها. نادى عليهما السيد سمسم:

"رحلة سعيدة!" وانطلقت العربة بعيداً.

لم تدرك هايدي ما هي وجهتهم حتى ركبت هايدي القطار. لقد علمت الآن فقط إنها ستذهب وترى جدها وجدتها مرة أخرى، وسترى أيضا بطرس وماعزه. كانت مخاوفها تتركز في أن الجدة الضريرة المسكينة قد ماتت بينما كانت هي بعيدة.

وكانت أكثر الأشياء تتطلع إليها من رحلتها تلك، هي أعطاء الجدة الضريرة تلك الفطائر البيضاء الطرية. وبينما كانت تتمع بكل تلك الأشياء غطت في نوم عميق. وفي بازل، حملها سياستيان وهناك كان عليها أن يقضيا الليلة.

وبدءا في الصباح الباكر رحلتهما مرة أخرى، وأخذت منهم الرحلة ساعات عديدة حتى وصلا إلى ماينفيلد. وبينما كان سياستيان، تمنى أن يسافر لساعات طويلة أكثر بالقطار على أن يتسلق الجبال. كان الجزء الأخير من الرحلة خطيراً جداً، حيث يبدو كل شيء نصف بري في هذا البلد. ونظر حوله، وأكتشف عربة صغيرة يجرها حصان هزيل. وكان رجل مفتول العضلات ينقل الحقائب التي كانت في القطار إلى العربة. تقدم سياستيان نحو الرجل وسأله بعضاً من المعلومات عن التسلق القادم الخطير إلى الألب. وبعد قليل حسم الأمر، سيأخذ الرجل هايدي مع حقيبتها إلى القرية وان يرى من هناك أحداً ما لينقلها إلى الأعلى.

وبلا كلام يخرج من فم هايدي، قالت في النهاية:

"يمكنني أن اجد طريقي من القرية إلى الأعلى لوحدي. أني أعرف الطريق." شعر سياستيان بالراحة وقرب هايدي إليه، وقدم إليها لفة أوراق ورسالة إلى جدها. ووضعت تلك النقود القيمة في قعر السلة، كي لا تفقدها.

وعدت هايدي أن تأخذ حذرها وتراقب النقود، وحملت إلى العربة. وتصافح الصديقان القديمان وافترقا. جلس سياستيان بنوع من وخز الضمير لتركه الفتاة لوحدها، في المحطة ينتظر القطار العائد.

لم يكن السائق سوى خباز القرية، والذي لم يرى هايدي أبداً إلا انه سمع الكثير عنها. كان يعرف والداها وخمن بالحال إنها تلك الفتاة التي تعيش مع العم في الم. وكان الفضول يقتله ليعرف لماذا عادت إلى موطنها مرة أخرى، وبدأ الحديث:

"هل انتِ هايدي، الطفلة التي تعيش مع العم في الم؟"

"نعم."

"لماذا عدتِ إلى المنزل ثانيةً؟ هل سرت الأمور بسوء كثيراً؟"

"أوه، كلا، لم ينال أحد في فرانكفورت الرعايا مثلي."

"اذن، لماذا عدتِ؟"

"بسبب أن السيد سمسم جعلني اعود."

"سحقاً! ولماذا لم تبقين؟"

"بسبب أني رغبت بأن أرى جدي في الألب أكثر ما تمنيت شيء في العالم."

"ربما تفكرين في شيء أخر لما تصلين إلى هناك،"دمدم الخباز. "انه غريب وعليها أن تعرف هذا." قال في نفسه.

لم يتحدثا بعد الآن، وبدأت هايدي ترتعش من هول الدهشة لما ميزت الأشجار والطريق والقمم الشامخة للجبال. فكرت في نفسها بانه أحياناً لا ترغب في الوقوف ساكنة، بل عليها أن تقفز إلى الأسفل وان تركض بكل قوتها. وصلا القرية والساعة تدق الخامسة. وبالحال تجمعت النسوة والاطفال حول العربة، حيث كانت العربة والمسافرة الصغيرة محط اعجاب الكل. وما أن أنزلت هايدي، وجدت نفسها محط أسئلة الكل من كل جانب. ولكن ما أن رأوا خوفها تركوها تذهب بسلام. أخبرهم الخباز أن الفتاة وصلت مع رجل محترم غريب، وأكد لكل الناس بأن الفتاة أحبت جدها من كل قلبها، وجعل الناس يقولون ما يشاؤون عنه.

كانت هايدي في ذلك الوقت تركض عبر الممر، وكانت تتوقف بين الحين وأخر، حيث أن سلتها كانت ثقيلة وكانت تقطع أنفاسها. وكانت فكرتها:

"فقط لو كانت الجدة لا زالت تجلس في زاويتها المعهودة في كرسيها الهزاز! – أوه، لو كانت قد ماتت!"

ولما شاهدت الفتاة الكوخ في النهاية، بدأ قلبها ينبض بسرعة. وكلما ركضت أسرع كلما دق قلبها أكثر وفي النهاية فتحت الباب بيد مرتعشة. وركضت نحو وسط الغرفة، وكانت غير قادرة على اطلاق أي صوت، إلا إنها كانت مقطوعة الانفاس.

"أوه، يا رب،" صاح صوت من الزاوية. "لقد كانت هايدي تاتي بهذه الطريقة. أوه، فقط لو كنت قادرة على احتضانها مرة قبل أن أموت. من القادم؟"

"ها انذا! يا جدتي، أنا هنا!" صاحت الفتاة، ورمت بنفسها على ركبتيها أمام الجدة العجوز. قبضت على يد الفتاة وذراعها وضمتها إليها بقوة بدون أن تكون قادرة على الكلام من الفرح. كانت الجدة متفاجئة جداً لدرجة إنها جلست تمسح على شعر الفتاة صامتة مرات ومرات كثيرة.

"نعم، نعم،" قالت في النهاية، " انه شعر هايدي، وهذا هو صوتها العذب. أوه يا رب، أني أحمدك على تلك السعادة." ومن خارج عيونها العمياء خرجت دموع الفرح وتساقطت على يدا هايدي.

"إنها أنتِ فعلاً، يا هايدي؟ هل عدتِ حقاً ثانيةً؟"

"نعم، يا جدتي،" أجابت الطفلة. "لا يجب عليكِ البكاء، لقد جئت وسوف لن أتركك أبداً. الآن لا يجب عليكِ أن تأكلي ذلك الخبز الأسمر القاسي بعد الآن ولكن لفترة قصيرة. أنظري ماذا جلبت معي لكِ."



وضعت هايدي واحدة من تلطك الفطائر البيضاء في حضن الجدة.

"أوه، يا طفلتي، يا لها من نعمة قد جلبتي معكِ!" صاحت المرأة العجوز. "ولكنكِ أكبر نعم الله لي، يا هايدي!"

ثم مسحت على شعرها وخدودها الطرية وقالت بتوسل:

"قولي كلمة واحدة فقط، فربما أتمكن من سماع صوتكِ."

بينما كانت هايدي تتكلم، وصلت أم بطرس، وقالت بدهشة:

"بكل تأكيد، إنها هايدي. ولكن كيف يكون هذا؟"

وقفت الفتاة لتصافح بريجيدا، والتي لم تكن تميز قبعة ومعطف هايدي.

"يمكنكِ أن تأخذي قبعتي، أني لست بحاجة إليها بعد الآن؛ لا زلت أملك قبعتي القديمة." قالت هايدي، وسحبت قبعتها القديمة المصنوعة من القش. وكانت هايدي تتذكر ما قاله الجد إلى ديتا حول قبعتها ذات الريش؛ ولهذا السبب أحتفظت بقبعتها القديمة بحرص. وفي النهاية قبلت بريجيدا الهدية بعد الكثير من التمنع. وفجأة خلعت هايدي فستانها وربطت شالها حول خصرها. وأخذت يد الجدة، وقالت:

"إلى اللقاء، علي أن اذهب إلى منزلي ورؤية جدي الآن، ولكن سوف أتي في الغد. إلى اللقاء يا جدتي."

"أوه، ارجوكِ تعالي في الغد يا هايدي،" توسلت الجدة العجوز بينما كانت تمسك بها بقوة.

"لماذا خلعتِ فستانك الجميل؟" سالتها بريجيدا.

"افضل أن أذهب إلى جدي بهذه الطريقة أو قد لا يتعرف علي بعد الآن كما لم تتعرفي أنتِ."

رافقت بريجيدا الطفلة إلى الخارج وقالت بنوع من الغموض:

"ربما سيعرفكِ من خلال معطفكِ؛ لذا ارتديه. ارجو أن تكوني حذرة يا فتاتي، حيث أن بطرس أخبرنا بأن العم لم يتفوه بكلمة إلى أي احد ويبدو عليه الغضب."

غير أن هايدي لم تكن مهتمة، وودعتها، وتسلقت الممر الجبلي وسلتها في يدها. كانت شمس المساء تشرق على الاعشاب حولها. وكلما سارت بضع دقائق كانت تقف لتنظر إلى الجبال خلفها. وفجأة نظرت إلى الخلف وشاهدت المجد الذي لم تشاهده أبداً حتى في أكثر أحلامها مقاربة إلى الحقيقة. كانت القمم الشامخة الصخرية تشتعل بسبب النور البراق، وكانت الحقول الثلجية تبرق والسحب الوردية كانت تعوم فوق رأسها. كان العشب يبدو وكأنها سيل من الذهب، وفي الأسفل كان الوادي يلمع كالذهب. وقفت الفتاة ساكنة، ونزلت من عيناها دموع الفرح على وجنتيها. ونشرت ذراعيها ونظرت إلى السماء وحمدت الله بأن جعلها تأتي إلى المنزل مرة أخرى. وحمدته على إعادته لها إلى جبالها المحبوبة، - ومن شدة سعادتها الغامرة لم تجد الكلمات المناسبة للدعاء. ولما هبط اللمعان في النهاية استطاعت أن تتابع طريقها مرة أخرى.



تسلقت بسرعة حتى أنها أستكشفت بسرعة أولاً قمم الأشجار، ثم سقفهم، وأخيراً الكوخ بالكامل. وها هي الآن ترى جدها جالس على مصطبته، ويدخن من غليونه. وفوق الكوخ كانت تتراقص أوراق شجرة التنوب، وهي تحف بنسيم المساء. ووصلت أخيراً إلى الكوخ، ورمت بنفسها بأحضان جدها، وحضنته بشدة. ولم تستطع أن تقول أي شيء سوى:

"يا جدي، يا جدي، يا جدي!" وسط نشوتها.

ولم يكن العجوز بقادر أن يقول أي شيء أيضا، بل كانت عيناه غارقتان، وحرر يد هايدي في النهاية وأجلسها على ركبتيه. ولما انتهى من النظر إليها لفترة وجيزة، قال:

"ها قد عدتِ مرة أخرى إلى منزلكِ، يا هايدي؟ لماذا؟ يبدو أنكِ فشلتِ في أن تكوني فتاة مدينة! هل أرسلوكِ إلى منزلكِ؟"

"أوه، كلا، لا يجب أن تفكر بهذه الطريقة، يا جدي. لقد كانوا صالحين معي جميعاً؛ كلارا، والسيد سمسم، والجدة. ولكن يا جدي، أحياناً اشعر كما لو كنت عاجزة على تحمل فراقك فترة أطول! أعتقد بأني صدمت! لم أخبر أي احد، فهذا قد يعتبر نوع من الجحود. وفجأة في صباح أحد الأيام، نادى علي السيد سمسم مبكراً جداً، وكنت اعتقد إنها غلطة الطبيب، – ولكني اعتقدت أن كل الأمر مكتوب في هذه الرسالة بصورة أفضل مما لو تحدثت به أنا،" وهكذا جلبت هايدي الرسالة مع الاوراق النقدية من سلتها ووضعتها في حضن جدها.

"أن تلك الاموال لكِ،" قال، وهو يطرح الاوراق النقدية جانباً. وبعد أن قرأ الرسالة وضعها في جيبه.

"هل تعتقدين بأنكِ لا زلت قادرة على شرب الحليب معي، يا هايدي؟" سألها، وهو يدخل إلى الكوخ. "خذي مالكِ معكِ، يمكنكِ الآن أن تشتري فراشاً به، مع ملابس تكفيكِ الكثير من السنوات."

"لا أحتاجها كلها،" قالت هايدي مؤكدة؛ " لدي فراش، واعطتني كلارا الكثير من الفساتين التي تجعلني لا أحتاج إلى شراء الجديدة بقية حياتي."

"خذيها وضعيها في الخزانة. ربما ستحتاجينها يوماً ما."

أطاعته هايدي ورقصت حول الكوخ ببهجة فقط لترى كل تلك الأشياء العزيزة على قلبها مرة أخرى. وركضت إلى عليتها، وقالت متعجبة مع خيبة أمل عظيمة:

"أوه، جدي، أين ذهب فراشي؟"

"سوف يأتي ثانية،" نادى الجد عليها من الأسفل، "كيف لي أن اعرف أنكِ ستعودين مرة أخرى؟ تعالي واشربي الحليب الآن!"

نزلت هايدي واخذت مقعدها القديم. وقبضت على وعائها وافرغته بحماس، كما لو كان اشهى ما ذاقت طوال حياتها.

" يا جدي، أن هذا الحليب ألذ حليب في العالم أجمع."

وفجأة أندفعت هايدي إلى الخارج بعد أن سمعت صفيراً حاداً، حيث كان بطرس وماعزه يتسابقون إلى الأسفل. حيت هايدي الفتى، والذي توقف، وتسمر في مكانه، وهو ينظر إليها. ثم ركضت وسط اصدقائها الأعزاء والذين لم ينسوها أيضا. شفانلي وبارلي صاحا من الفرح، وجاءت تحضنها كل صديقاتها.شعرت هايدي وهي في وسطها بفرح غامر، وكانت تمسح على شعر النطاط الأبيض، وثيستلفينج، حتى شعرت بنفسها تندفع وسطها جيئة وذهاباً.

"يا بطرس، لماذا لا تأتي وتحييني؟" نادت هايدي على الفتى.

"هل عدتِ مرة أخرى؟" قال بتعجب في النهاية. ثم أخذ يد هادي التي عرضت عليه المصافحة وسألها فيما لو كانت ستبقى هنا إلى الابد.

"هل ستأتين معي في الغد؟"

"كلا، في الغد علي أن أذهب إلى الجدة، ربما بعد غد."

مرت على بطرس أوقاتاً عصيبة مع ماعزه في هذا اليوم، حيث إنها لم تكن تتبعه. فقد كانت تعود إلى هايدي مرات ومرات كثيرة، حتى، أدخلت بارلي وشفانلي إلى الحظيرة واغلقت عليهما الباب.

ولما ذهبت هايدي إلى عليتها لتنام، وجدت فراشا وفيراً وناعماً ينتظرها؛ ونامت في هذه الليلة كافضل ما نامت منذ شهور عديدة جدا، حيث أن شوقها المتوقد قد اشبع. وكان الجد يترك غرفته ليصعد إليها ليستمع إلى نفسها الهادئ عشرات المرات تلك الليلة. كانت النافذة مغلقة بالقش بسبب أنها من الآن وصاعداً لا يسمح لنور القمر أن يداعب وجهها. غير أن هايدي نامت بسلام وهدوء فقد شاهدت قبلها اشتعال الجبال وسمعت حفيف شجرة التنوب.



الفصل الرابع عشر

في يوم أحد عندما قرعت الأجراس

كانت هايدي تقف تحت الأشجار المتراقصة وهي تنتظر جدها لتلحق به. فقد وعدها بأن يحضر حقيبتها من القرية بينما تزور هي الجدة. كانت الطفلة تواقة إلى رؤية الجدة الضريرة مرة أخرى وتعرف منها فيما لو إنها أعجبت بتلك الفطائر البيضاء. لقد كان اليوم هو السبت، وكان الجد ينظف الكوخ. وسرعان ما صار جاهزاً للانطلاق. ولما نزلا إلى القرية ووصلت هايدي إلى كوخ بطرس، نادت الجدة بصوت ودود:

"هل جئتِ مرة أخرى، يا هايدي؟"

مسكت يد هايدي وقبضت عليها بشدة. وأخبرت الجدة الزائرة الصغيرة كم كان مذاق الفطائر رائعاً، وكيف تشعر بأنها أقوى الآن. وأضافت بريجيدا بأن الجدة لم تأكل سوى فطيرة واحدة فقط، حيث أنها خائفة من أن تنفذ منها الفطائر بسرعة. أصغت هايدي إليها بكل أدب، ثم قالت:

"يا جدتي، أعرف ماذا علي أن أفعل. علي أن أكتب إلى كلارا وهي بكل تأكيد سترسل الكثير الكثير."

غير إن بريجيدا قالت:

"هذا يبدو رائعاً، إلا أنهما سرعان ما تتصلبان. فلو كان عندي بعضاً من النقود، لكان علي أن أشتري بعضاً منها من الخباز. فهو يعدها بصورة جيدة أيضاً، إلا أني بالكاد قادرة على دفع تكاليف خبزنا الأسمر."

أشرق وجه فجأة.

"أوه، يا جدتي، لدي الكثير من المال،" صاحت. "والآن أعرف ماذا علي أن أفعل بها. علي أن أحضر لكِ في كل يوم فطيرة، وأثنين يوم الأحد. يمكن لبطرس أن يجلبها لكِ يومياً من القرية."

"كلا، يا طفلتي،" قالت الجدة بعطف. "لا يجب أن يحدث هذا. عليكِ أن تعطي النقود إلى جدكِ وعليه أن يخبركِ بما يجب أن تفعليه بها."

غير أن هايدي لم تصغي حيث أنها قفزت بمرح حول الغرفة، وهي تنادي مرة وأخرى:

"الآن يمكن للجدة أن تتناول فطيرة كل يوم. وسوف تكون أقوى و،" نادت بمرح، " ربما سترى عيناكِ النور مرة أخرى ما أن تكونين قوية ومعافاة."

بقت الجدة صامتة، كي لا تفسد على الفتاة سعادتها. قالت هايدي بعد أن رأت كتاب التراتيل على الرف:

"يا جدتي، هلا قرأت لكِ نشيداً من كتابكِ الآن؟ يمكنني أن أقرأ بصوت عذب!" قالت بعد أن صمتت برهة.

"أوه، نعم، أتمنى أن تفعلي، يا طفلتي. هل تجيدين القراءة الآن فعلاً؟"

تسلقت هايدي الكرسي وأخذت الكتاب المغبر من على الرف. وبعد أن مسحت بحرص، جلست على مقعدها.

"ماذا تريدين أن أقرأ لكِ يا جدتي؟"

"ما شئتِ،" كان هذا ردها.

وقلبت الأوراق، ووجدت نشيداً عن الشمس، وقرأت بصوت عالٍ. وشيئاً فشيئاً قرأت هايدي بحماس، وكانت الجدة تجلس على كرسيها وهي طاوية يداها. بدت على محياها تعابير الفرح التي تعجز وصفه، على الرغم من أن الدموع تنهمر على وجنتيها. ولما كررت هايدي خاتمة النشيد عدة مرات، قالت المرأة العجوز بتعجب:

"أوه، يا هايدي، كل شيء يبدو منيراً لي من جديد، وقلبي دخله السرور. أشكركِ أيتها الفتاة لقد أحسنتِ إلي كثيراً."

نظرت هايدي مبتهجة إلى وجه الجدة، والذي تغير من وجه عجوز مليء بالهموم إلى البهجة.

وكانت تبدو أنها تنظر إلى السماء بالعرفان، كما لو كانت تمسك في هذه اللحظة جنات الخلد التي ذكرت في النشيد.

وسرعان ما طرق الجد على النافذة، حيث حان الوقت للذهاب. تبعته هايدي بسرعة، وطمأنت الجدة بأنها ستزورها كل يوم، في الأيام التي ستذهب فيها مع بطرس إلى المراعي الخضراء، وستعود عند العصر، حيث أنها لن تفوت الفرصة في إبهاج قلب الجدة.حثت بريجيدا هايدي على أخذ فساتينها معها، وهكذا رافقت هايدي جدها وفي يدها فستانها، وأخبرته بالحال ما جرى.

وافق الجد بعدان سمع خطتها عن شراء فطيرة للجدة كل يوم على مضض.

وهكذا قفزت الطفلة وصاحت:

"أوه، يا جدي، ليس على الجدة أن تأكل الخبز الأسمر القاسي بعد الآن، أوه كل شيء رائع! فقط لو أن الله قد حقق لي على الفور ما دعوته، لكنت قد أحضرت نصف ما جلبت من الفطائر إلى الجدة. ولكنت غير قادرة على القراءة أيضا. جدة كلارا أخبرتني بأن الله

يحقق لنا ما هو أفضل من أحلامنا. علي أن أصلي إلى الله من الآن وصاعداً يومياً، كما علمتني جدة كلارا. ولو لم يعطيني الله شيئا ما مما دعوته، فعلي أن أتذكر كيف أن كل شيء يسير نحو الأفضل هذه المرة. علينا أن نصلي كل يوم، يا جدي، أليس كذلك، وإلا فان الله سينسانا."

"ولو نسي شخصاً ما الذي سيحصل عندها؟" تمتم الجد.

"أوه، سيسوء الأمر معه، حيث أن الله سينساه، أيضاً. ولو كان محطماً وتعيساً، فالناس أيضا لن يشفقوا عليه، وسيقولون عنه أنه بعيداً عن الله الوحيد القادر على أعانته فلن نشفق عليه."

"هل هذا صحيح يا هايدي؟"

"لقد شرحت جدة كلارا لي كل هذا."

قال الجد بعد أن صمت لبرهة:

"نعم، ولكن لو شاء أن حدث، ولا بد من ذلك، فلن يعود أي احد إلى الله لو أن الله قد نساه."

"ولكن يا جدي، كل شخص قادر على العودة إلى الله، لقد أخبرتني جدة كلارا بذلك. ثم أن هناك قصة جميلة في كتابي. أوه، يا جدي، أنت لا تعرفها إلى الآن، وعلي أن أقرأها لك عندما نعود إلى المنزل."



لقد جلب الجد معه سلة كبيرة، وبها كافة ما يعود إلى هايدي من الأغراض، فهي واسعة لدرجة تمنع من صعودها إلى الأعلى. وصلا إلى الكوخ ورمى بحمله الثقيل، ثم جلس إلى جانب هايدي، والتي كانت مستعدة لسرد قصتها. وبحماسة بالغة قرأت هايدي قصة الفتى المبذر، والذي كان يوما ما سعيداً في منزله مع أبيه وبقراته وماشيته. وتصور الصورة الفتى وهو يتكأ على عكازه، ويراقب غروب الشمس.

"وفجأة أراد أن يمتلك ميراثه، وان يكون سيد نفسه. وطلب المال من أبيه،

وذهب بعيداً وأنفقها بإسراف كلها. ولما لم يتبقى له شيء في العالم، كان عليه أن يعمل كخادم لفلاح، والذي لم يكن يملك القدر الكافي من الماشية كما كان أبيه، فقد كان لديه خنازير وملابسه رثة، ولم يكن يأكل إلا القشور التي كان يطعم منها خنازيره. وكان يفكر دوماً في المنزل الذي تركه، وكم كان عامراً، ولما تذكر كيف كان أبيه كريماً تذكر جحوده وكان يبكي من شدة الندم والحنين. ثم قال في نفسه: "علي الذهاب إلى أبي وأساله المغفرة." ولما تقدم إلى منزله السابق، خرج أبيه ليقابله-"

"ماذا تعتقد سيحدث الآن؟" سألت هايدي. "تعتقد أن أبيه غاضب وسيقول: "ألم أخبرك؟ ولكن استمع:" وشاهده أبيه ملؤه الحنين وهرع إليه وأخذه بالأحضان. وقال الابن: يا أبي، لقد أخطأت بحق السماء،وبنظرك، ولا استحق أن اسمي نفسي ابنك. إلا أن الأب قال لخدمه: أجلبوا لي أفضل ثوب وضعوه على ابني ، وضعوا خاتماً على أصبعه، وحذاءاً على قدميه، واجلبوا لي هنا أفضل عجل لدي واذبحوه؛ دعونا نأكل ونحتفل، فقد كان ابني ميتاً ورجع إلى الحياة، لقد كان ضالاً، واهتدى." وبدأت البهجة."

"أليست قصة جميلة يا جدي؟" سألت هايدي، عندما كان يجلس إلى جوارها صامتاً.

"نعم، يا هايدي،" قال الجد، ولكن بجد حتى أن هايدي نظرت إلى الصورة بهدوء. "انظر كيف صار سعيداً،" قالت، وهي تشير إلى الصورة.

وبعد عدة ساعات، ولما كانت هايدي تنام بسلام، صعد العجوز السلم. وضع مصباحاً صغيراً جوار الفتاة النائمة ونظر إليها طويلا، طويلاً جداً. كانت يداها الورديتان مطويتان، وكانت وجنتاها الوردية تبدو عليها الثقة والأمان. شبك العجوز يداه وقال في صوت خافت، في الوقت الذي كانت فيه عيناه تدمعان:

"يا الله، لقد كنت مخطئاً بحق السماء وبحقك، ولست أستحق أن اسمي نفسي عبدك!"

وفي صباح اليوم التالي كان العم يقف أمام الباب ينظر إلى ما حوله، من جبال ووديان. وبعدها بقليل سمعت أصوات الأجراس من الأسفل، وكانت الطيور تسبح تسبيحها الصباحي.

دخل من جديد إلى الكوخ، ثم نادى:

"يا هايدي، أنهضي! لقد أشرقت الشمس! ارتدي أجمل ثوب لديكِ، سوف نذهب إلى الكنيسة."

لقد كان هذا نداءاً جديداً، وأطاعت هايدي على فورها. ولما نزلت الفتاة إلى الأسفل بثوبها الجميل الصغير، فتحت عيناها على وسعها.

"أوه، يا جدي!" قالت بتعجب، "لم أرك أبداً بمعطف يوم الأحد ذو الأزرار الفضية من قبل. أوه، يا له من منظر جميل!"

نظر العجوز نحو الفتاة وأبتسم قائلاً:

"تبدين جميلة، تعالي الآن!"

وضع يد هايدي في يده ثم سارا سوية. وكلما اقتربا من القرية كلما ارتفع صوتا الأجراس.

"أوه، يا جدي، إلا تسمع تلك الأجراس، يبدو اليوم وكأنها العيد الكبير." قالت هايدي.

لما دخلا الكنيسة، كان الكل ينشد. وعلى الرغم من أنهما جلسا في آخر مصطبة في الخلف، إلا أن الناس لاحظا وجودهما وتهامسوا من أذن إلى أخرى. وبدأ الواعظ يخطب، وكانت خطبته عبارة عن شكراً لله حركت مشاعر كل من يسمعه. وبعد أن انتهى الواعظ، أخذ العجوز الفتاة ودخلا الأبرشية. فتح القس الباب لهما، واستقبلهما بكلمات ترحاب حارة:

"جئت كي أسالك المغفرة عن كلماتي البذيئة،" قال العم. "لقد جئت كي ألبي مشورتك وان اقضي الشتاء هنا معكم. لو نظر الناس لي بازدراء، حيث لا يمكنني أن أتوقع منهم الأفضل. لكني متأكد أيها الواعظ، بأنك لن تفعل مثلهم."

برقت عينا صديق القس، وشكر القس صديقه بكلمات المديح على التغيير الذي طرأ عليه، ووضع يده على شعر هايدي المجعد، وأرشدهما إلى الخارج. وهكذا، شاهد الناس الذين كانوا يتحدثون عن هذا الحدث العظيم قسهم وهو يصافح ذلك العجوز. أغلق باب الأبرشية بشدة، وكانت الحشود قد تجمهرت حول الرجل العجوز بأيدي ممدودة وتحيات حارة. فقط كانت الفرحة بادية على الناس بسبب قرار العجوز. حتى أن بعضاً من الناس رافقه إلى الممر الجبلي في طريقه نحو المنزل. ولما افترقا في النهاية، نظر الرجل العجوز إليهم بوجه مشرق وقلب مستنير. نظرت هايدي اليه وقالت:

"يا جدي، أنك تبدو جميلاً جدا اليوم كما لم تكن من قبل!"

"هل تعتقدين ذلك يا أبنتي؟" قال مبتسماً. "أترين، يا هايدي، أني سعيد فوق ما استحق، بأن أكون في سلام مع الله والناس يبعث في قلبي النور والسرور. فأن الله كان كريماً معي، بعد أن أرجعكِ."

لما وصلا إلى كوخ بطرس، فتح الجد الباب ودخل.

"كيف الحال أيتها الجدة،" نادى. "أعتقد أن علينا ان نصلح الكوخ مرة أخرى، قبل أن يأتي موسم الرياح."

"أوه، يا الله، العم!" قالت الجدة بتعجب، ومفاجئة مفرحة. "كم أنا سعيدة في أن أكون قادرة على شكرك على ما فعلت، أيها العم! أشكرك، بارك الله فيك على ما فعلت."

صافحت الجدة بمرح مرتعش صديقها القديم.

"هناك شيء آخر أود أن أخبرك به أيها العم،" واصلت كلامها. " إن كنت قد جرحت مشاعرك يوماً ما، لا تعاقبني اليوم. لا تجعل هايدي تفارقني مرة أخرى قبل أن أموت. لا يمكنني أن أخبرك ماذا تعني لي هايدي!" قالت هذا وتشبثت بالفتاة وجرتها إليها.

"لا ضرر في ذلك، أيتها الجدة، اعتقد أن علينا أن نبقى سوية جميعاً من الآن والى سنوات كثيرة قادمة."

وعرضت بريجيدا في هذه اللحظة قبعة هايدي ذات الريش إلى العجوز وطلبت منه أن يأخذها. غير أن العم طلب منها أن تحتفظ بها طالما أن هايدي أهدتها إليها.

"يا لها من رحمة جلبتها تلك الفتاة معها من فرانكفورت،" قالت بريجيدا. "لطالما فكرت في أن أرسل ابني بطرس إلى هناك أيضا. ماذا تظن في ذلك أيها العم؟"

تلألأت عينا العم بفرح، عندما أجاب:

"اني أجزم بأن الأمر سينجح مع بطرس؛ ومع ذلك علينا أن ننتظر الفرصة المناسبة قبل أن أرسله إلى هناك."

في تلك اللحظة وصل بطرس ودخل في عجلة من أمره. لقد كانت معه رسالة إلى هايدي، والتي أعطيت له في القرية. يا له من حدث، رسالة إلى هايدي! جلس الجميع على الطاولة بينما راحت هايدي تقرأ الرسالة بصوت مرتفع. كانت الرسالة من كلارا سسمسم، التي كتبت بأن كل شيء استحال إلى الرتابة والملل منذ أن غادرت هايدي. وقالت بأنها لا تستطيع أن تتحمل أكثر، لذا وعدها أبيها بأن يأخذها في هذا الخريف إلى راغاتس. وأعلنت أيضا بأن جدتها ستأتي أيضاً، حيث رغبت الجدة في أن ترى الجد وهايدي. وبعد أن سمعت جدة كلارا بقضية الفطائر البيضاء، سوف ترسل بعضاً من القهوة أيضا لذا لا يجب على الجدة من الآن فصاعداً أن تأكل أي شيء جاف. وأصرت الجدة أيضا بأن تعطي ما تجلبه بنفسها للجدة الضريرة حالما تصل لزيارتها.

كانت الفرحة بتلك الأنباء عظيمة، ويا لها من أسئلة وأجوبة وخطط تلت تلك الرسالة، حتى أن الجد بنفسه نسى كم تأخر الوقت. كان ذلك اليوم السعيد الذي لم شمل الجميع مصدر الإلهام للعجوز عندما قالت ساعة الفراق:

"أن أجمل شيء مع ذلك، هو أن تكون قادرين على التصافح مع صديقي القديم، كما كنا في الأيام الخوالي، هذه يعني لنا الأمان، الذي كسبناه. أمل أن تزرنا قريباً أيها العم. أنني اعتمد على الفتاة في المستقبل."

وهكذا تم تحرير الوعد. وبينما كانت هايدي وجدها في طريقهما إلى المنزل، رافقتهما أجراس المساء على طول الطريق. وفي النهاية بلغا الكوخ، والذي بدا أنه يلمع مع نور المساء.

القسم الثاني

هايدي تستغل خبرتها



الفصل الخامس عشر

استعدادات لرحلة

كان الطبيب الطيب - الذي أرسل هايدي إلى موطنها في الجبال العزيزة على قلبها - يمر في احد الأيام المشمسة من أيلول على منزل السيد سمسم. كان كل شيء حوله مبهج ومفرح، إلا أن الطبيب لم يرفع بصره عن الأرض المعبدة إلى السماء الزرقاء في الأعلى. كان وجهه عبوساً، واستحال شعره إلى اللون الرمادي منذ الربيع الماضي. حيث فقد الطبيب منذ شهور ابنته الوحيدة، والذي عاش معها منذ أن توفت زوجته منذ فترة مبكرة. كانت ابنته الشبيهة بالزهور سلوته الوحيدة، ومنذ أن توفت فقد كل متعة وصار لصيقاً بالغم.

لما فتح سياستيان الباب للطبيب انحنى بأدب، حيث أن الطبيب كان يعقد الصداقات في كل مكان يحل فيه.

"يسرني مجيئك أيها الطبيب،" صاح السيد سمسم بينما كان الطبيب يدخل. "أرجوك، دعنا نتحدث عن تلك الرحلة إلى سويسرا مرة أخرى. هل لا زلت تنصحني بالشيء نفسه، فأنا اعتقد أن كلارا أصبحت الآن أفضل بكثير؟"

"كيف لي أن أصفك، يا سيد سمسم،" رد الطبيب وجلس. "أتمنى إن أمك موجودة هنا. فكل شيء واضح لها، وكل الأمور تجري على خير ما يرام. أن تلك هي المرة الثالثة اليوم التي تستدعيني فيها، وفي كل مرة بخصوص الشيء نفسه!"

"هذا صحيح، كما إن هذا يجعل صبرك ينفذ،" قال السيد سمسم. وطرح يده على كتف صديقه، وواصل كلامه. "لا يمكنني القول في صعوبة أمر رفض هذه الرحلة لكلارا. فألم أعدها بتلك الرحلة، وألم تتطلع كلارا لها منذ شهور؟ لقد تحملت كل آلامها بصبر، فقط لأنها أملت أن تكون قادرة على زيارة صديقتها الصغيرة في جبال الألب. اكره أن اسلبها سعادتها. الفتاة المسكينة سعت كثيراً ولكن القليل من التغيير طرأ."

"لكن يا سمسم، عليك أن تفعل،" كان هذا جواب الطبيب. ولكن بقى صديقه صامتاً، واصل كلامه. "فقط فكر في أسوأ صيف مر على كلارا! فهي لم تكن أكثر مرضاً وحاولنا القيام بتلك الرحلة بدون أن نتعقب أسوأ العواقب. تذكر، نحن الآن في أيلول، وعلى الرغم من أن الجو في الألب لازال جيداً، غير أنه سيكون بارداً جدا. والنهار يقصر، وعليها أن تقضي القليل من الساعات في أعالي الجبل، حيث عليها أن تعود لتقضي الليل في راغاتس. ويستغرق الأمر عدة ساعات لحملها والعودة بها إلى راغاتس. إلا ترى بنفسك كم الأمر مستحيلاً! علي أن أتي معك إلى كلارا لنتحدث معها حول المسألة، وستجدها واعية.

وسأخبرك بخطتي عن أيار القادم، أولاً عليها أن تذهب إلى راغاتس لتأخذ الحمامات. وعندما يدفأ الطقس في الجبال، يمكننا أن نحملها إلى هناك بين الحين والآخر. وهي ستكون قوية كفاية في حينها، وستكون أكثر استمتاعاً بالرحلة عندها مما ستكون عليه الآن. ولو تأملنا تحسناً في حالتها، وعلينا أن نكون في غاية الحرص والحذر، تذكر ذلك."

قال السيد سمسم الذي كان يستمع بكل قناعة في النهاية بحذر:

"أيها الطبيب، أرجوك، أخبرني بصراحة، لو كان لديك أي أمل في شفائها؟"

هز الطبيب كتفيه وقال:

"ليس الكثير. ولكن فكر بي يا سمسم! أليس لديك طفلة، تحبك وترحب بك دوماً؟ ليس عليك أن تجلس في منزلك وحيداً وتجلس على الطاولة وحيدا. أن ابنتك تتولاها رعاية فائقة، وعلى الرغم من إنها تعاني من بعض النقص، إلا إنها تتمتع بالكثير من الامتيازات. يا سمسم، لا يمكن لأحد أن يشفق عليك! فقط فكر في وحدتي في منزلي!"

نهض السيد سمسم، وصار يتجول في أرجاء الغرفة، كما اعتاد أن يفعل في ساعات تفكيره. وفجأة وقف أمام صديقه وقال:

"أيها الطبيب، لدي فكرة. لا يمكنني أن أراك حزيناً بعد الآن. عليك أن تسافر. عليك أن تقوم أنت بهذه الرحلة وتزور هايدي بدلاً منا."

تفاجئ الطبيب بهذا المقترح، وحاول الاعتراض. إلا أن السيد سمسم كان مقتنعاً بهذا المقترح والذي جعله يدفع صديقه إلى غرفة كلارا، ولم يترك له مجالا للمعارضة. أحبت كلارا الطبيب، والذي حاول مراراً أن يبهجها، من خلال زياراته بسرده لها الكثير من الحكايات المفيدة والمسلية. وكانت كلارا تشعر بالأسف على التغيير الذي حدث له وكانت مستعدة في أن تعطي الكثير لتعيد له السعادة من جديد. لما صافحها، دفع كلا الرجلان كرسييهما قرب سرير كلارا. بدأ السيد سمسم بالحديث عن رحلتهم وكيف أنه يشعر بالأسف بإيقافها. ولكنه بالحال تحول بالحديث عن خطته الجديدة.

ملئت عينا كلارا بالدموع، غير إنها عرفت أن أباها لا يحب أن يراها تبكي، كما إنها متأكدة من أباها لا يمكن له أن يمنعها من تلك الرحلة بلا سبب ضروري لفعله هذا.

لذا قاومت ببسالة دموعها. ومسحت على يد الطبيب، ثم قالت:

"أوه، أرجوك أيها الطبيب، اذهب أنت إلى هايدي؛ عندها يمكنك أن تخبرني كل شيء عنها، ويمكنك أن تصف لي جدها، وبطرس، وماعزه، - يبدو لي إني ارغب بمعرفتهم جميعاً. ويمكنك أيضا أن تأخذ كل تلك الأشياء التي رغبت أنا في أخذها كما خططت. أوه،

أيها الطبيب أرجوك، اذهب، ثم يمكنني بعدها أن أتحسن وان أتناول بقدر ما تشاء من زيت الحوت."

من يدري ما هو القرار الذي سيتخذه الطبيب؟ بأي حال قال مبتسماً:

"أذن علي فعلاً أن اذهب يا كلارا، لان عندها ستصبحين بصحة قوية ومعافاة، كما نريد إنا وأباك أن نراك. هل حسمتما الأمر بشأن موعد رحيلي؟"

"الأفضل أن تذهب في صباح الغد، أيها الطبيب،" حثته كلارا.

"إنها على حق،" أكد الأب، "الشمس لا زالت تشرق، و يمكنك أن تفقد الكثير من الأيام المشرقة في جبال الألب."

كان على الطبيب أن يضحك:

"لماذا لا توبخاني على بقائي واقفاً إلى هذه اللحظة؟ علي أن أسرع بقدر ما يمكنني، يا سيد سمسم."

أعطته كلارا الكثير من الرسائل الموجهة إلى هايدي. ووصته بأن يكون متأكداً من مراقبته لكل شيء عن كثب، كي يقدر إخبارها بكل ما رآه عند عودته. أما الأشياء التي تخص هايدي فسوف يتم إرسالها إلى منزله في وقت لاحق، بسبب أن الآنسة روتن ماير، والتي عليها أن تحزمها، كانت في واحدة من تلك الجولات الطويلة في مركز المدينة.

وعد الطبيب بأن يحقق كل أماني كلارا وان يبدأ في اليوم التالي.

قرعت كلارا الجرس للخادمة، وقالت لها عندما وصلت:

" أرجوكِ، يا تينيتي، احزمي الكثير من الكعك المحلى الطازج والرقيق في صندوق. "

لقد تم إعداد صندوقاً لهذا الغرض قبل عدة أيام. تمتمت الخادمة ما أن غادرت الغرفة:

"يا له من أمر سخيف أيها الأخ!"

طلب سيباستيان من الطبيب الذي شاءت الصدف أن يكون واقفاً قرب المكان واستمع لبعض الملاحظات أن يبلغ تحياته إلى الآنسة الصغيرة كما اعتاد أن يطلق على هايدي.

كان الطبيب على وشك أن يخرج عندما وعد سيباستيان بأن ينقل تلك التحيات إلى هايدي، وفجأة ارتطم بعقبة. كانت الآنسة روتن ماير، قد اضطرت إلى العودة مبكراً من جولتها بسبب هبوب الريح القوية وكانت قد دخلت للتو. وكانت ترتدي ثوباً طويلاً والتي كانت الرياح تجعل منها كالشراعين الكبيرين. عرض كلا منهما للأخر الطريق بأدب. وفجأة كانت الريح قد حملت مديرة المنزل إلى الأمام باتجاه الطبيب، والذي لم يكن لديه الوقت

الكافي لتجنبها. وكانت تلك الحادثة الصغيرة التي عكرت مزاج الآنسة روتن ماير جداً، أعطت الطبيب الفرصة ليلاطف الآنسة، وكانت تحب أن يلاطفها هذا الرجل، والتي كانت تحترمه أكثر من أي رجل في العالم. وبعد أن أخبرها بزيارته المقصودة، طلب منها أن تحزم كل تلك الأشياء التي أعدت لهايدي حيث لا يعرف أحد القيام بهذا العمل.

توقعت كلارا بعضاً من المقاومة من الآنسة روتن ماير حول موضوع حزم أمتعة هايدي. إلا أن المفاجئة كانت عندما عبرت الآنسة ميلها للمساعدة من تلقاء نفسها. وفي الحال، ما أن تلقت الأمر، جمعت كل الأغراض! جاء في المقدمة معطفاً ثقيلاً لهايدي، مع قلنسوة، والتي اعتادت كلارا أن تلبسه عند زيارتها جدتها في فصل الشتاء. تبعها شال دافئ سميك وصندوق كبير من الكعك المحلي، أعد للجدة الضريرة، وتلا ذلك قطعة من السجق العملاق أعد لوالدة بطرس، والقليل من التبغ للجد. وفي النهاية الكثير من الرزم والصناديق حزمت، الأشياء التي جمعتها كلارا بنفسها لهايدي. وما أن تم تحضير تلك الحقيبة الكبيرة وصار كل شيء معد على الأرض، ملئ قلب كلارا بالسعادة والمرح وهي تفكر في بهجة صديقتها الصغيرة.

دخل سباستيان ووضع الحمل على كتفه وحمله إلى منزل الطبيب بلا تأخير.

الفصل السادس عشر
ضيف على جبال الألب

كان الفجر الصادق يحيي الجبال ونسيم الصباح كان يداعب أشجار التنوب جيئة وذهاباً. فتحت هايدي عيناها، حيث أن حفيف الرياح قد أيقظها. كانت تلك الأصوات تبدو دوماً مخيفة بالنسبة إليها، أما الآن فهي تخرجها من سريرها. نهضت على عجل وارتدت فستانها بصورة محكمة ونزلت.

وهرعت إلى الخارج ما أن بلغت أسفل السلم ووجدت أن سرير الجد فارغاً. كان العجوز ينظر إلى السماء ليرى أي نوع من الطقس سيمر اليوم. كانت بعضاً من السحب الوردية تمر عبر السماء، غير أن السماء كانت في كل لحظة تزداد زرقة وعتمة، وسرعان ما حل الشعاع الذهبي فوق المرتفعات بسبب أن الشمس أشرقت بكل شموخ.

"أوه، كم هو جميل! صباح الخير يا جدي،" قالت هايدي بتعجب.

"هل أبرقت عيناك الآن؟" قال الجد راداً بحسم، وطرح ذراعيه.

ثم ركضت هايدي إلى شجرتها المحبوبة – شجرة التوب – ورقصت حولها بينما كانت الريح تداعب الأغصان.

وبعد أن غسل العجوز وجهه وحلب الماعز، أخرجها من الحظيرة. ولما رأت هايدي صديقاتها ثانيةً، مسحت على شعرها بعناية، وهما بالمقابل كانا يداعبانها ويلتصقان بها من كل جانب. في بعض الأحيان لما تغضب بارلي كانت هايدي تقول:

"ولكن يا بارلي، انكِ تدفعيني كالتركي الكبير،" وكان هذا كافياً لها لتتوقف.

وسرعان ما وصل بطرس بكامل قطيعه، كان ثيستلفينج المرح يسبق الجميع. وصارت هايدي على الفور في وسطها، وكانت تتدافع معها. وكان بطرس قلقاً في أن يتفوه بأي



كلمة إلى الفتاة الصغيرة، لذا اكتفى بصفيره الحاد، وحث ماعزه على التسلق إلى الأعلى. ولما اقترب منها قال مؤنباً:

"عليكِ اليوم أن تأتين معي إلى المروج الخضراء!"

"كلا، لا أستطيع، يا بطرس،" قالت هايدي. "فقد يأتي الضيوف من فرانكفورت بأي لحظة. علي أن أكون في المنزل عند قدومهم."

"كم مرة قلتِ هذا،" قال الفتى بتذمر.

"ولكن ما عنيته،" ردت هايدي. "هل تعتقد بأني يجب أن أكون في الخارج عندما يصل الضيوف من فرانكفورت؟ هل تعتقد هذا فعلاً يا بطرس؟"

"يمكنهم المجيء إلى العم،" قال بطرس عابساً.

سُمع عندها صوت العم الأجش:

"لماذا لا يتقدم الجيش؟ هل العلة في قائد سريتهم أو أنه خطأ القوات؟"

دار بطرس على فوره وقاد قطيعه إلى أعالي الجبال بلا أي ضجة.

ومنذ أن جاءت هايدي إلى منزل جدها، كانت تفعل الكثير من الأشياء التي لم تعتد عليها من قبل. مثلاً، كانت ترتب سريرها في كل صباح، وكانت تطوف حول الكوخ وهي تمسح وتنظف. وكانت تمسح الكراسي والطاولة بقطعة قماش بالية حتى تلمع. وكان الجد دائماً يتساءل:

"كل يوم عندنا عطلة الآن؛ لم يكن غياب هايدي بلا فائدة."

وبعد أن تناولت هايدي فطورها في ذلك اليوم، أخذت مهمة هايدي اليومية تأخذ وقتا أطول من المعتاد. حيث كان الجو جميلاً جدا يغري بالمتابعة في الخارج. وكانت أشعة الشمس الذهبية تغوي الفتاة بين الحين والأخر وتؤخر عمل الفتاة في الخارج. كيف لها أن تبقى في الداخل، لو نزلت أشعة الشمس البراقة إلى الأسفل وتبدأ كل الجبال باللمعان؟ كان عليها أن تجلس على الأرض الجافة والصلبة وتنظر إلى الوادي في الأسفل وتشاهد كل ما حولها. ثم، فجأة تذكرت كل ما عليها فعله من واجبات صغيرة، فتسرع في العودة. ولم يمر وقتاً طويلاً مع هذا ليغويها رفيف الأشجار مرة أخرى. كان الجد مشغولاً في مشغله الصغير، وكان ينظر بفرح إلى الفتاة بين الحين والأخر. وفجأة سمعها تنادي:

"أوه يا جدي تعال!"

كان الجد خائفاً وقدم مسرعاً. ورآها تجري نحو أسفل التل، وهي تنادي:

"أنهم قادمون، أنهم قادمون. أوه، الطبيب يسبقهم."

لما بلغت هايدي في النهاية صديقها القديم، مد يده، فمسكتها هايدي بقوة. وبفرح غامر ملئ قلبها قالت بتعجب:

"كيف حالك أيها الطبيب؟ وأني أشكرك الآف المرات!"

"كيف حالكِ يا هايدي؟ ولكن لماذا تشكريني أصلاً؟" سألها الطبيب مبتسماً.

"بسبب أنك جعلتني أعود إلى دياري مرة أخرى،" وضحت هايدي.

أشرق وجه الطبيب مثل الشمس. لم يتوقع أبداً استقبالاً حاراً في جبال الألب كهذا. بل على العكس! ولم يلاحظ أيضا كل هذا الجمال الذي حوله، فقد كان يتسلق إلى الأعلى بحزن، فقد كان متأكداً من هايدي لم تعد تعرفه بعد الآن. فقد أعتقد بأنه سيكون ابعد ما يكون عن الترحاب، بعد أن كان السبب في خيبة أملها. بدلاً من ذلك، شاهد بريق عينا هايدي وهي تنظر إليه بعرفان وشكر، مع الحب. وكانت لا زالت متمسكة بذراعه، وقالت:

" تعالي الآن يا هايدي، وخذيني إلى جدكِ، فأني أرغب بشدة في أن أرى أين يسكن."

أفلت الطبيب الفتاة من يده، إلا أن هايدي وقف ساكنة وهي تنظر إلى أسفل سفح الجبل.

"ولكنما أين كلارا وجدتها؟" سألت هايدي.

"يا فتاتي، علي أن أخبركِ شيئاً ما والذي سيدخل الهم لقلبكِ كما أدخله إلى قلبي،" رد الطبيب. "كان علي أن أتي وحيداً حيث أن كلارا شديدة المرض ولا يمكنها السفر. وبالطبع الجدة لا يمكن أن تأتي أيضاً؛ ولكن الربيع سيحل، ولما تحل الأيام الطويلة والدافئة، ستزوركِ حتماً."

كانت هايدي مندهشة بالكامل؛ فهي عاجزة عن فهم كل تلك الأشياء التي صورتها مع نفسها بوضوح والتي لن تحدث. كانت تقف بلا حراك وكادت أن تنسفها الصدمة.

وكان وقتاً قد مر عندما تذكرت هايدي بعد كل شيء بأنه نزلت لتستقبل الطبيب. نظرت إلى صديقها وصدمها حزنه البادي على وجهه. وكم تغير منذ أن شاهدته أخر مرة! أن رؤية الناس مهمومين كان يقلقها، وأولاً وقبل كل فرد الطبيب الطيب. ربما أنه حزين لأن كلارا وجدتها غير قادرين على المجيء، ولغرض أن تواسيه قالت:

"أوه، سوف لن يطول الوقت حتى يحل الربيع مرة أخرى؛ عندها يمكنهما المجيء بكل تأكيد، ويمكنهم أيضا البقاء طويلاً، وهذا سيسعد كلارا. علينا الآن أن نذهب إلى الجد."

وتسلقا يداً بيد مع صديقها القديم. وكانت طوال الطريق تحاول إسعاده مرات ومرات عن أيام الصيف القادمة. ولما بلغا الكوخ،نادت على جدها بفرح:

"لم يأتوا بعد ولكن لن يمر وقتاً طويلاً قبل أن يحلو علينا ضيوفاً!"

"رحب الجد بحرارة بالضيف، والذي لم يبدو عليه أنه غريب أبداً. فقد أخبرته هايدي بكل شيء عن الطبيب. جلس الثلاثة على المصطبة مقابل الباب. وأخبرهم الطبيب بأسباب زيارته. وهمس في أذنها بأن شيئاً ما سيحدث في أعلي الجبال قريباً والذي سيملأ قلبها بالسعادة أكثر من زيارته. يا ترى ما عساه أن يكون؟

نصح العم الطبيب بأن يقضي أيام الخريف الرائعة في جبال الألب، لو أمكنه، وان يستأجر غرفة صغيرة في القرية بدلاً من راغاتس؛ وعندها يمكنه بسهولة السير كل يوم إلى الكوخ ومن هنا يمكن للعم أن يأخذه في جولة في الجبال. ولاقت هذه الخطة القبول.

كانت الشمس في قمة السماء وتوقفت الريح. وهب نسيماً عذباً رقيقاً داعب خدودهم نهض العم الآن، ودخل إلى الكوخ. وعاد بسرعة مع طاولة وعشاء.

"أدخلي يا هايدي، ورتبي الطاولة. أمل أن يعذرنا الضيف على وجبتنا البسيطة،" قال وهو يلتفت إلى الضيف.

"علي أن اقبل بسرور دعوتك المبهجة؛ أني متأكد بأن العشاء سيكون لذيذاً هنا،" قال الضيف، وهو ينظر إلى الوادي المشمس.

وراحت هايدي تجري جيئة وذهاباً من شدة سرورها لمقدرتها على خدمة حاميها الطيب. وبسرعة، ظهر العم ومعه الحليب المغلي والجبن المحمر على النار، وأخيراً شرائح اللحم المقدد الوردية والتي جففت على الهواء البارد النقي. تمتع الطبيب بعشائه أكثر من أي طعام تناوله في حياته.

"نعم، علينا أن نأتي بكلارا إلى هنا. وكم ستنال من قوة وصحة!" قال. "حيث ستصبح لديها الشهية مثلي اليوم؛ سوف لن تمنع نفسها من زيادة الوزن والصحة."

وفي تلك الإثناء، تمكنوا من مشاهدة خيال رجل يحمل على ظهره كيساً كبيراً. ووصل إلى القمة، ورمى حمله من على ظهره، وتنفس هواءاً نقياً.

فتح الطبيب الغطاء وقال:

"هذه أرسلت إليكِ من فرانكفورت يا هايدي. تعالي وانظري ما بداخلها."

شاهدت هايدي برعب الرزمة، ولما فتح الرجل ورأت ما بداخلها من صندوق كعك محلى مرسل إلى الجدة قالت بفرح:

"أوه، يمكن للجدة الآن أن تأكل الكعك اللذيذ."

وأخذت الصندوق والشال الجميل على ذراعها وكادت تركض بتلك الهدايا، حتى أوقفها الرجل وطلب منها أن تفتح بقية الهدايا. وكم كانت دهشتها لما رأت التبغ والأشياء الأخرى. ثم زرعت الفتاة نفسها أمام تلك الأغراض قالت:

"أن تلك الأغراض كلها لم تسعدني مثل زيارة الطبيب لنا." ابتسم كلا الرجلان.

ولما اقترب موعد الغروب، نهض الطبيب ليبدأ رحلة العودة إلى الأسفل. حمل الجد الصندوق والشال والسجق، مسك الضيف الفتاة الصغيرة وساروا جميعاً إلى سفح الجبل. ولما بلغوا كوخ بطرس، أمرت هايدي أن تذهب إلى الداخل وان تنتظر الجد هناك. وعند الفراق قالت:

"هل ترغب في الذهاب معي في الغد إلى المروج الخضراء، أيها الطبيب؟"

"بكل سرور، وداعاً، يا هايدي،" كان هذا رده. وضع الجد كل الإغراض أمام الباب. وأخذ حمل الصندوق والسجق من هايدي وقتاً طويلاً لحملها إلى الداخل. وضعت الشال في حضن الجدة.

شاهدت بريجيدا بصمت كل العملية، ولم تستطع فتح عينيها على وسعها لما رأت السجق العملاق. فهي لم تشهد مثله طوال حياتها، وهي الآن تملك السجق وستقطعه بنفسها.

"أوه، أيتها الجدة، هل يسعدكِ الكعك الآن؟ فقط تحسسي نعومته!" قالت الفتاة بتعجب.

وكم كانت روعتها لما رأت الجدة سعيدة أكثر بالشال، والذي سيحافظ على دفئها طوال الشتاء.

"أيتها الجدة، لقد أرسلت لكِ كلارا كل هذا." قالت هايدي.

"أوه، يا لهم من ناس رحماء، فهم يفكرون في امرأة عجوز مسكينة مثلي! لم أفكر قط بأن يكون لدي مثل هذا الغطاء الرائع."

وفي تلك الإثناء دخل بطرس متعثر.

"العم قادم خلفي، وعلى هايدي أن–" وكان هذا كل ما قدر على لفظه، حيث أن عينيه جاءت إلى السجق. ومع ذلك، كانت هايدي قد ودعت الكل فعلاً حيث أنها تعرف ما عناه بطرس. فعلى الرغم من أن جدها لا ينزل إلى الأسفل من غير أن يمر على الكوخ، ولكنها تعلم أن الوقت قد تأخر.

"يا هايدي، تعالي، عليكِ أن تنامي الآن،" ونادى من خلال الباب المفتوح. وحياهم جميعاً واخذ هايدي من يدها وسارا تحت النجوم المتلألئة إلى المنزل.

الفصل السابع عشر
الانتقام

في صبيحة اليوم التالي في وقت مبكر جداً، تسلق الطبيب الجبل برفقة بطرس وماعزه. حاول الرجل النبيل الودود العديد من المرات في بدأ الحديث مع الفتى، غير أن الجواب لكل أسئلته كان مقتصراً على كلمة واحدة. ولما وصلا إلى قمة الجبل، وجدا أن هايدي تنتظر هناك فعلاً ندية كالفجر.

"هل ستأتين؟" سألها بطرس، كالمعتاد.

"بالطبع علي أن اذهب، فقط لو ذهب الطبيب معنا،" ردت الطفلة.

خرج الجد من الكوخ، وحيا الضيف باحترام كبير. ثم توجه إلى بطرس، وعلق على كتفه كيساً والذي بدا عليه أنه يضم أكثر ما أعتاد عليه.

وبدءوا جميعاً طريقهم، وكانت هايدي تحث الماعز على الصعود، وكانت هي بدورها تتجمهر حولها. حتى تمكنت أخيراً في السير جنباً إلى جنب مع الطبيب، وبدأت تخبره بالعديد من الأشياء حول الماعز، وكل تصرفاتها الغريبة، وكل شيء عن الزهور، والصخور والطيور التي يرونها. ولما بلغا وجهتهم النهائية، كان الوقت قد مر فعلاً. كان بطرس طوال الوقت يرسل نظرات الغضب على الطبيب غير الواعي بما يدور حوله، والذي لم يلحظه حتى.

وأخذت هايدي الطبيب إلى بقعتها المفضلة. ومن هناك يمكنهما سماع أصوات الأجراس العذبة والمسالمة لقطيع الماشية في الأسفل. كانت السماء شديدة الزرقة، وفوق رؤوسهم كان يحلق النسر على شكل دوائر مفرود الجناحين. كان كل شيء مستنير وبراق حولهم غير إن الطبيب بقي صامتاً. ونظر إلى الأعلى فجأة وقع بصره على عينا هايدي المتقدة.

"يا هايدي، أن المنظر جميل هنا في الأعلى،" قال. "ولكن كيف لشخص بقلب محمل بالغم أن يحس بهذا الجمال؟ أخبريني!"

"أوه،" استعجبت هايدي. "لا يوجد أحد هنا بقلب مهموم، فقط في فرانكفورت يشعر الإنسان بالحزن."

مرت على وجه الطبيب ابتسامة باهتة. ثم بدأ بالحديث:

"ولكن ماذا لو أحدهم حمل معه الحزن إلى هنا، كيف له أن يزيحه؟"

"الله وحده في السماء قادر على أن يزيحه."

"هذا صحيح، يا طفلتي،" نوه الطبيب. "ولكن ماذا علينا أن نفعل لو أن الله قد امتحننا بالبلاء؟"

أجابت هايدي بعد أن تأملت فترة:

"على احدهم أن ينتظر بصبر، حيث أن الله يعلم كيف يحول أتعس الأشياء إلى شيئاً ما سعيداً في النهاية. وسيرينا الله ماذا قصد من فعل ذلك بنا. ولا يفعل الله ذلك إلا إذا صلينا له بصبر."

"أتمنى أن تحافظِ على هذا الإيمان دوماً يا هايدي." قال الطبيب. ثم نظر إلى حافة الجبل الصخرية الكبيرة وواصل كلامه: " فكرِ فقط في كم سيكون الأمر محزناً لو لم نستطيع رؤية كل هذا الجمال. أيجعلنا هذا نشك بحزن؟ هل تفهميني يا طفلتي؟"

ألم آسي شديد على قلب هايدي. كان عليها أن تفكر في الجدة الضريرة. فعماها كان المصدر الرئيسي لحزن هذه الطفلة، وها هي تجدد ذلك الآن. وأجابت بجدية:

"أوه، نعم، يمكنني أن افهم هذا. ولكن عندها يمكننا أن ننشد للجدة، وهذا سيجعلنا جميعاً سعداء ومشرقين مرة أخرى."

"أي أناشيد، يا هايدي؟"

"أوه، تلك التي عن الشمس، وجنان الخلد وبالأخص خاتمة النشيد. أن الجدة تحب تلك الأناشيد وأنا أقرأها دوماً وأكرر تلك الأبيات ثلاث مرات،" قالت هايدي.

"أود أن تقرئيها لي يا طفلتي، فيعجبني أن اسمعها منكِ." قال الطبيب.

شبكت هايدي يديها وبدأت تتذكر الأبيات. وتوقفت فجأة حيث أن الطبيب لم يكن يصغي. كان يجلس بلا حراك، ويحمل يده أمام عينيه. واعتقدت انه غط في النوم، فبقت صامتة. غير أن الأبيات قد أرجعته إلى أيام طفولته؛ لقد بدا له انه يستمع إلى أمه، ويرى عينيها الجميلتين. فعندما كان صغيراً كانت تنشد بهذا النشيد له. وجلس فترة طويل في مكانه، حتى اكتشف بأن هايدي كانت تراقبه.

"لقد كان نشيدكِ جميلاً، يا هايدي،" قالت بصوت مرح. "علينا أن نأتي يوماً أخر ويمكنكِ أن تنشدِ هذا النشيد لي مرة أخرى."

خلال تلك الفترة كلها كان بطرس يغلي في غضب. فقد جاءت هايدي معه إلى المروج الخضراء كالسابق، ولكنها لا تفعل شيء سوى الحديث مع هذا الطبيب العجوز. فقد كان الأمر يجننه لعجزه عن الاقتراب من هايدي أو يجلس جانبها حتى. وكان يقف على مسافة قريبة خلف صديق هايدي، وكان يهز بقبضته نحو الطبيب، وسرعان ما لوح بقبضتيه سوية. ثم رفعهما إلى السماء بينما بقيت هايدي وصديقها سوية.

لما شمخت الشمس منتصف السماء، وعلم بطرس انه الظهر، نادى على الصديقان بكل قوته:

"حان وقت الغداء."

ولما نهضت هايدي لتبلغ وجبتهما طلب منه الطبيب أن تأتي له بكوب من الحليب فقط، وهو كل ما يريد. وقررت الفتاة أن تأخذ كوبا من الحليب لها أيضاً، فهرعت نحو بطرس وأعلمته بقرارهما.

ولما علم بطرس أن كل ما يحتويه الكيس صار له، أسرع في مهمته كما لم يفعل طوال حياته. وشعر بالذنب جراء غضبه السابق على ذلك النبيل الطيب. وليبين ندمه، رفع يديه إلى السماء مرة أخرى، وهو يشير بأنه لا يقصد أي شيء آخر. وبدأ بعدها مباشرة وجبته.

وراحت هايدي والطبيب يتجولان حول المكان حتى أدرك النبيل المحترم أنه حان الوقت للذهاب. وطلب من هايدي أن تبقى حيثما هي، إلا إنها أصرت على أن ترافقه. وطوال الطريق إلى الأسفل عرضت عليه الكثير من الأماكن حيث تنمو زهور الجبل، وأعلمته بأسمائها أو ما تعرف منها. ولما افترقا في النهاية، لوحت هايدي له. وبين الحين والأخر كان يلتفت إليها ويرى إنها واقفة في مكانها، وكان يفكر في ابنته الصغيرة التي اعتادت أن تلوح له في الأوقات التي كان يسافر فيها بعيداً عن المنزل.

كان الجو دافئاً ومشمساً طوال الشهر. وكان الطبيب يصعد صباح كل يوم إلى جبال الألب، ويقضي النهار عادة مع العجوز. وفي مرات كثيرة كانا يتسلقان سوية الجبل لمسافات طويلة، حتى يبلغا الحافات الصخرية قرب موطن النسر. وعرض العم على ضيفه كل الأعشاب التي تنمو في أماكن مخفية والتي كانت تنفع في العلاج. وكان بإمكانه أن يخبره بالكثير من الأشياء الغريبة عن الحيوانات البرية المفترسة التي تعيش في الجحور بين الصخور أو على الأرض أو على قمم الأشجار.

وكانا يفترقان في المساء وكان الطبيب يقول بتعجب:

"يا صديقي العزيز، لا أتركك إلا وقد تعلمت شيئاً منك."

إلا أن معظم النهار كان يقضيه مع هايدي. وكان الاثنان يجلسان في موقعهما المفضل، وبطرس معزول تماماً يجري خلفهما. وكان على هايدي أن تقرا النشيد كما فعلت في اليوم الأول وترفه عنه بكل ما تعرف من أشياء.

وفي النهاية انتهى شهر أيلول الجميل. وتسلق الطبيب في أحد الأيام بوجه اعبس مما اعتاد عليه. فقد حان الوقت بالنسبة إليه للعودة إلى فرانكفورت، ويا لتعاسة العجوز الكبيرة عند سماعه هذه الأنباء. حتى هايدي بنفسها فقد كان صعبا عليها إدراك أن صديقها العزيز

والتي كانت تراه كل يوم، مغادر فعلاً. كان الطبيب مجبر على الرحيل، حيث أن جبال الألب صارت كموطن له. إلا انه كان من الضروري له أن يذهب وصافح الجد، وودعه ورافقته هايدي إلى الممر الجبلي.

ويدا بيد نزلا إلى الأسفل، حتى وقف الطبي في النهاية بلا حراك. ثم مسح على رأس هايدي وقال:

"الآن علي أن اذهب، يا هايدي! أتمنى أن آخذكِ معي إلى فرانكفورت؛ عندها يمكنني أن أرعاكِ."

وعند تلك الكلمات كانت كل صفوف المنازل والآنسة روتن ماير وتينيتي قد وقفت أمام عينا هايدي. ترددت قليلاً وقالت:

" يسعدني أكثر لو جئت لزيارتنا مرة أخرى."

"اعتقد أن هذا سيكون أفضل. والآن وداعاً!" قال النبيل المحبوب. ولما صافحها ملئت عيناه بالدموع والتفت مغادرا بصورة سريعة.

وقفت هايدي في مكانها متسمرة وراحت تراقبه يرحل. يا لها من عينان جميلتان تلك التي لديه! ولكنهما كانتا مليئتان بالدموع. وفجأة صارت تبكي بمرارة، وجرت نحو صديقها وهي تنادي عليه بكل قوتها إلا أن العبرات كانت تخنق صوتها:

"أوه، أيها الطبيب، أيها الطبيب!"

نظر الطبيب إلى الخلف ووقف ساكناً حتى بلغته الطفلة. كانت دموعها تنهمر على وجنتيها بينما كانت تنحب:

"علي أن آتي معك إلى فرانكفورت، وسأبقى معك قدر ما تشاء. ولكن أولاً علي أن أخبر جدي."

"كلا، كلا يا طفلتي،" قال بتعاطف. "ليس الآن، عليكِ أن تبقي هنا، لا أريد منكِ أن تمرضي مرة أخرى. ولكن لو مرضت أنا وطلبت منكِ القدوم معي فهل ستأتين معي؟ هل أغادر الآن وأنا أفكر في أن شخصاً في هذا العالم يهتم بي ويحبني؟"

"نعم، سوف آتي إليك في نفس اليوم. حيث إني أحبك فعلاً تماماً مثل جدي." طمأنته هايدي وهي تبكي طوال الوقت.

تصافحا مرة أخرى، وافترقا. بقت هايدي في نفس المكان، وكانت تنظر إلى صديقها الراحل حتى صار بقدر قطرة. فنظر هو إليها لآخر مرة والى جبال الألب المشرقة وتمتم في نفسه:

"أن المكان هنا في الأعلى جميل جداً! أن الجسد والروح يقويان في هذا المكان وتبدو الحياة غالية هنا وتستحق أن تحيى مرتين."

الفصل الثامن عشر
الشتاء يحل على القرية

امتد الثلج حول الكوخ عميقاً حتى أن النوافذ كانت ترى وكأنها مستوية مع الأرض واختفى باب المنزل بالكامل. وحول كوخ بطرس كان الأمر سيان. ولما كان الفتى يخرج ليزيح الثلج، كان عليه أن يزحف عبر النافذة، ثم يغوص في الثلج الناعم ويضرب بيديه ورجليه ليتحرر. وما أن يصل إلى قاع الثلج، كان عليه أن ينظف كل الثلج من الباب ليمنع تساقطه على الكوخ.

حافظ العم على وعده، فما أن تساقطت أول نوبات الثلج، حتى توجه نحو القرية مع هايدي وماعزه. وكانت تقبع قرب الكنيسة ومنزل الأبرشية أطلال لبناء قديم كان في السابق بناء معمور. وكان يعيش هنا فارس شجاع في الأيام الخوالي؛ فقد كان يحارب في الحرب الأسبانية وعاد بالكثير من الثروة وبنا لنفسه منزله الرائع هنا. ولكن كونه عاش سنوات طويلة في العالم الفوضوي فكان يعجز أن يقاوم حياة الرتابة في البلدة الصغيرة، سافر فجأة فلم يعود بعدها. وبعد أن توفي، بعد عدة سنوات، وعلى الرغم من أن المنزل أصبح خاوياً بالفعل، إلا أن أحد أقاربه من بعيد سكنه. ولم يشأ المالك الجديد أن يصلحه، لذا أسكن فيه عائلة فقيرة. وكانت تلك العائلة لا تدفع الكثير، حتى أنهار المنزل شيئاً فشيئاً. وبعد مرور السنوات، ولما جاء العم مع توبياز إلى القرية، عاش هنا. وكان في معظم الأحيان خالياً. حيث أن الشتاء كان أطول هنا، والريح الباردة كانت تهب عبر الجدار المتهدم. عندما كانت العائلة الفقيرة تسكن فيه كانت شموعهم تطفأ عند هبوب الريح وكانوا يرتعشون من شدة البرد والظلام. غير أن العم، عرف كيف يساعد نفسه. ففي الخريف، ما أن قرر العيش في القرية، كان يتردد مراراً وأصلح المكان كأفضل ما يستطيع.

عند ولوج المنزل من الخلف، تلاقيك غرفة رحبة، والتي كانت كل جدرانها تقريباً مهدمة. في أحد الجوانب يمكنك أن ترى المصلى، والآن مغطاة بنبات العلاق الكثيف. ثم تأتي صالة كبيرة، ذات سقف حجري جميل، والعشب يغطي كل شقوقها. لقد اختفت كل الجدران تقريباً وجزءاً من السقف أيضا. فلو لم تكن هناك بعضاً من الأعمدة التي تعدم البناء لكان قد انهار منذ قرون. قام العم ببناء قاطع خشبي هنا من اجل الماعز. وغطى الأرضية بالقش. وهناك الكثير من الممرات التي تشاهد نصف محطمة تقود في النهاية إلى غرفة ذات باب فولاذي كبير. كانت تلك الغرفة بحالة ممتازة إلى الآن، وكانت هناك الكثير من الأعمدة الخشبية الغامقة تدعم الجدران الأربعة. في إحدى الزوايا يقبع موقد كبير جدا يلامس

السقف. وكان هناك الكثير من البلاطات البيضاء وقد رسم عليها أبراج قديمة محاطة بأشجار مرتفعة، وصيادون مع كلابهم. وكان هناك منظراً أيضا يمثل بحيرة هادئة حيث يجلس تحت أشجار البلوط العملاقة صياد سمك. وحول الموقد كانت هناك مصطبة. وكانت هايدي تحب أن تجلس عليها. وما أن دخلا موطنهما الجديد حتى راحت هايدي تطالع الصور. ولما بلغت نهاية المصطبة وجدت سريراً، والذي كان موضوع بين الجدار والموقد.

"أوه، يا جدي، لقد وجدت غرفة نومي،" صاحت الفتاة الصغيرة بتعجب. "أوه يا له من مكان جميل! أين ستنام يا جدي؟"

"فراشكِ يجب أن يكون قرب الموقد، حتى تبقين دافئة،" قال العجوز. "والآن تعالي وانظري إلى فراشي."

وبعدها قاد الجد الفتاة إلى غرفة نومه. وكان هناك كان باباً يؤدي إلى أكبر مطبخاً شاهدته هايدي. لقد رتب الجد هذا المكان بقدر كبير من المتاعب. فهناك الكثير من ألواح الخشب المسمرة عبر الجدران وكان الباب مثبت بأسلاك ثقيلة، حيث خلف البناء تقبع الإطلال. كانت الشجيرات الدغلية تنمو هناك، والذي تعتبر الملجأ للملايين من الحشرات والسحالي. لقد كانت هايدي سعيدة جداً بمنزلها الجديد، ولما وصل بطرس في اليوم التالي، لم يرتح لها بال إلا بعد أنت أخذته في جولة تريه كل ركن وزاوية من المنزل المسكون غريب الأطوار.

نامت هايدي جيدا جداً في زاويتها قرب الموقد. غير أن الوضع أخذ منها عدة أيام حتى تعتاد عليه. عندما استيقظت في الصباح ولم تسمع صوت رفيف الأشجار، كانت تتعجب أين هي. وهل أن الثلج كان ثقيلا جداً على الأغصان؟ هل هي بعيدة عن المنزل؟ ولكن ما أن سمعت صوت الجد في الخارج، حتى تذكرت كل شيء وقفزت بمرح خارج سريرها.

بعد أربعة أيام قالت هايدي لجدها:

"علي أن أذهب إلى الجدة في الغد، لقد تُركت وحيدة عدة أيام."

ولكن الجد أطرق برأسه وقال لها:

"لا يمكنكِ الذهاب، يا طفلتي. أن الثلج ينزل بغزارة هناك، ولا زال. حتى أن بطرس بالكاد يستطيع المرور عبره. وفتاة بعمرك سيغمرها الثلج وستضل الطريق. انتظري قليلاً حتى يتجمد، وعندها يمكنك أن تسيرِ فوق قشرته."

شعرت هايدي بالأسف. غير إنها كانت في هذه الأيام مشغولة لدرجة إنه وقتها كان يمضي سريعاً. كانت تذهب كل صباح وعصر إلى المدرسة، وكانت تتعلم بحماس كل ما

يلقى عليها. وكانت لا ترى بطرس إلا نادراً، بسبب إنه لا يأتي إلى المدرسة في أغلب الأوقات. فقد كان المعلم اللطيف يقول بين الحين والأخر:

"يدو لي أن بطرس، غائباً أيضا! المدرسة نافعة له، إلا إني اعتقد أن هناك الكثير من الثلج يمنعه من المرور عبره."

ولكن لما كانت هايدي في طريق عودتها إلى منزلها عند المساء، كان بطرس يزورها بالعموم.

بعد أيام قليلة كانت الشمس لا تخرج إلا لوقت قصير عند الظهر وفي صباح اليوم التالي كانت كل جبال الألب تلمع وتشرق كالكريستال. وبينما كان بطرس يقفز كالمعتاد في الثلج ذلك الصباح، سقط على شيئاً ما صلباً، وقبل أن يوقف نفسه انزلق قليلاً أسفل الجبل. وعندما استطاع أن يتحكم بساقه، وطأ الأرض بكل ما أوتي من قوة. لقد كانت متجمدة كالحجر. لم يكن بطرس يصدق الأمر، وركض مسرعا وابتلع حليبه ووضع خبزه في جيبه، وأعلن:

"علي أن أذهب إلى المدرسة اليوم!"

"اذهب وتعلم بلطف،" هكذا أجابته أمه.

بعدها ، جلس على مزلاجه، وطار أسفل الجبل كالطلقة. وبما انه فقد السيطرة على مزلاجه وعجز عن إيقافها عند القرية، فقد راح يطير أكثر وأكثر. حتى وصل إلى السهل، حيث أوقف المزلاج نفسه. وكان الوقت متأخر على المدرسة أصلاً. وهكذا أخذ الفتى وقته في العودة ولم يصل حتى كانت هايدي قد عادت لتناول عشائها.

"لقد حصلنا عليها!" أعلن الفتى، عند الدخول.

"ماذا أيها العقيد؟" سأله العم.

"الجليد،" أجابه بطرس.

"أوه، الآن يمكنني أن ازور جدتي!" قالت هايدي مبتهجة. "ولكن يا بطرس، لماذا لم تأتي إلى المدرسة؟ يمكنك النزول اليوم،" واصلت كلامها مؤنبة بطرس.

"لقد انزلقت بعيداً جداً بمزلاجي، وكان الوقت قد تأخر عن المدرسة،" أجاب بطرس.

"إني أطلق على هذا اسم العقوبة!" قال العم. " الناس الذين يفعلون هذا يجب أن تجر أذنهم، هل تسمعني؟"

كان الفتى خائفاً، فلم يكن هناك شخص في العالم يحترمه بطرس بقدر العم.

"عقيد مثلك، يجب أن يكون خجلا من نفسه عند قيامه بهكذا أفعال،" أستمر العم. "ماذا تفعل للماعز لو لم تعد تطيعك؟"

"اضربها،" كان هذا جوابه.

"لو علمت أن فتى كان يتصرف كالماعز غير المطيعة وعليه أن يُصفع، ماذا تقول عندها؟"

"نال ما يستحق."

"هكذا، أنت تعلم الآن يا آمر سرية الماعز، لو غبت عن المدرسة مرة أخرى، وعندما يستلزم الأمر وجودك هنا، تعال وستنال ما تستحق."

وعرف بطرس في النهاية ما قصده العم. التفت العم إلى الفتى وقال بلطف أكثر:

"تعال إلى الطاولة الآن، وكل معنا. بعدها يمكنك أن تصعد مع هايدي لما تعيدها في المساء، وستتناول عشائك معنا هنا."

كان هذا التغيير غير المتوقع قد أبهج بطرس. لم يرغب بطرس بتضييع أي لحظة، افرغ على عجل كل طبقه. وضعت هايدي معطفها الذي أهدتها كلارا إياه، بعد أن أعطت بطرس معظم غدائها. وتسلق الاثنان إلى الأعلى. كانت هايدي تثرثر طوال الطريق. إلا أن بطرس لم يتفوه بأي كلمة. كان شارد الذهن حتى انه لم يستمع إلى أي كلمة مما قالته هايدي. وقبل أن يدخلا الكوخ، قال الفتى بعناد:

"اعتقد أن علي أن اذهب إلى المدرسة بدلا من أن اضرب من قبل العم."

ووافقته هايدي على قراره بحزم.

ولما دخلا إلى الغرفة، كانت والدة بطرس وحيدة قرب الطاولة. لم تكن الجدة في مكان أمام مرأى العين. اخبرت بريجيدا هايدي بأن الجدة في هذه الأيام ملزمة بقضاء وقتها في الفراش بسبب البرد، حيث إنها لا تشعر بصحة جيدة. كان هذا شيئاً جديداً على هايدي. وبسرعة جرت نحو غرفة الجدة العجوز. ووجدتها نائمة في فراش ضيق، ملفوفة بشالها الرمادي مع بطانية رقيقة.

"الحمد لله!" قالت العجوز بتعجب، لما سمعت خطوات حبيبتها. لقد كان خوفاً خفياً يجثم على قلبها طوال الخريف والشتاء، فقد كانت تعتقد بأن هايدي قد أرسلت مع الرجل الغريب والذي تحدث عنه بطرس كثيرا. اقتربت هايدي من السرير، وقالت بقلق:

"هل أنتِ مريضة جداً يا جدتي؟"

"كلا، كلا يا طفلتي،" قالت العجوز تطمأن الفتاة الصغيرة،" الصقيع قد هجم على مفاصلي قليلاً، هذا ما في الأمر."

"هل ستكونين بخير حالما يدفأ الطقس؟" سالت هايدي.

"نعم، نعم، ولو شاء الله قريباً جداً. سوف أعود إلى كرسي الهزاز واليوم بالفعل جربته. سوف أنهض في الغد،على كل حال" قالت العجوز بثقة. فقد لاحظت كيف كانت هايدي خائفة.

الخطاب الأخير جعل من الفتاة تشعر بالسعادة. بعدها، نظرت بتعجب إلى الجدة وقالت:

"في فرانكفورت تضع الناس الشال فقط لو خرجوا. لماذا تضعينه وأنتِ راقدة في الفراش، يا جدتي؟"

"أني أضعه علي كي أدفأ يا هايدي. فاني مسرورة لأني لدي هذا الشال، حيث أن بطانيتي رقيقة جداً."

ولكن يا جدتي، أن فراشك مائل جداً ناحية راسكِ، بينما يجب أن يكون مرتفعاً. لا يجب أن يكون أي فراش بهذه الصورة."

"أعلم يا طفلتي، إني أشعر به جيداً." قالت هذا، وحاولت أن تغير موقعها على الوسادة والتي ترقد تحتها وكأنها لوح نحيف. "أن وسادتي نحيفة جداً وكوني نائمة عليها كل تلك السنوات جعلت منها منبسطة."

"أوه، يا عزيزتي، لو فقط سألت كلارا أن تعطيني الفراش الذي كنت نائمة عليه في فرانكفورت!" انتحبت هايدي. لقد كانت عليه ثلاث وسائد كبيرة، كنت بالكاد أنام بسبب إني أنزلق من عليها طوال الليل. هل يمكنكِ أن تنامين عليها يا جدتي؟"

"بالطبع، فان ذلك سيجعلني دافئة. وأستطيع أن أتنفس بسهولة، أيضا." قالت الجدة، وهي تحاول أن تجد مكانا أعلى تنام عليه. ولكن لا يجب أن أتحدث عن الأمر بعد الآن، فاني يجب أن أكون شاكرة لكثير من الأشياء. فقد حصلت على الفطائر البيضاء كل يوم، ولدي هذا الشال الدافئ. ولدي أيضا أنتِ، يا طفلتي! إلا يعجبكِ أن تقرئي لي شيئاً اليوم؟"

وبسرعة جلبت هايدي الكتاب وصارت تقرأ النشيد تلو الأخر. كانت الجدة في نفس الوقت ترقد ويداها متشابكة. وكان وجهها قد استنار بابتسامة سعادة بعد أن كانت قبل قليل حزينة.

وفجأة توقفت هايدي.

"هل أصبحتِ بخير مرة أخرى، يا جدتي؟" سألت.

"أني اشعر بخير، أني أفضل يا هايدي. أرجوكِ أكملِ قرأتكِ، هلا فعلتِ؟"

أطاعت الطفلة وما أن وصلت إلى نهاية النشيد:

لو صارت عيناي كليلة وحزينة   أجعــــل حبــك بسمتي



ولو كانت روحي تسير ببهجة   ستعود إلى وطنها بسلامةِ

"ستعود إلى موطنها بسلامةِ!" قالت بتعجب: "أوه، يا جدتي، إني أعرف ما تبدو عليه العودة إلى الأوطان." ثم قالت بعد برهة:

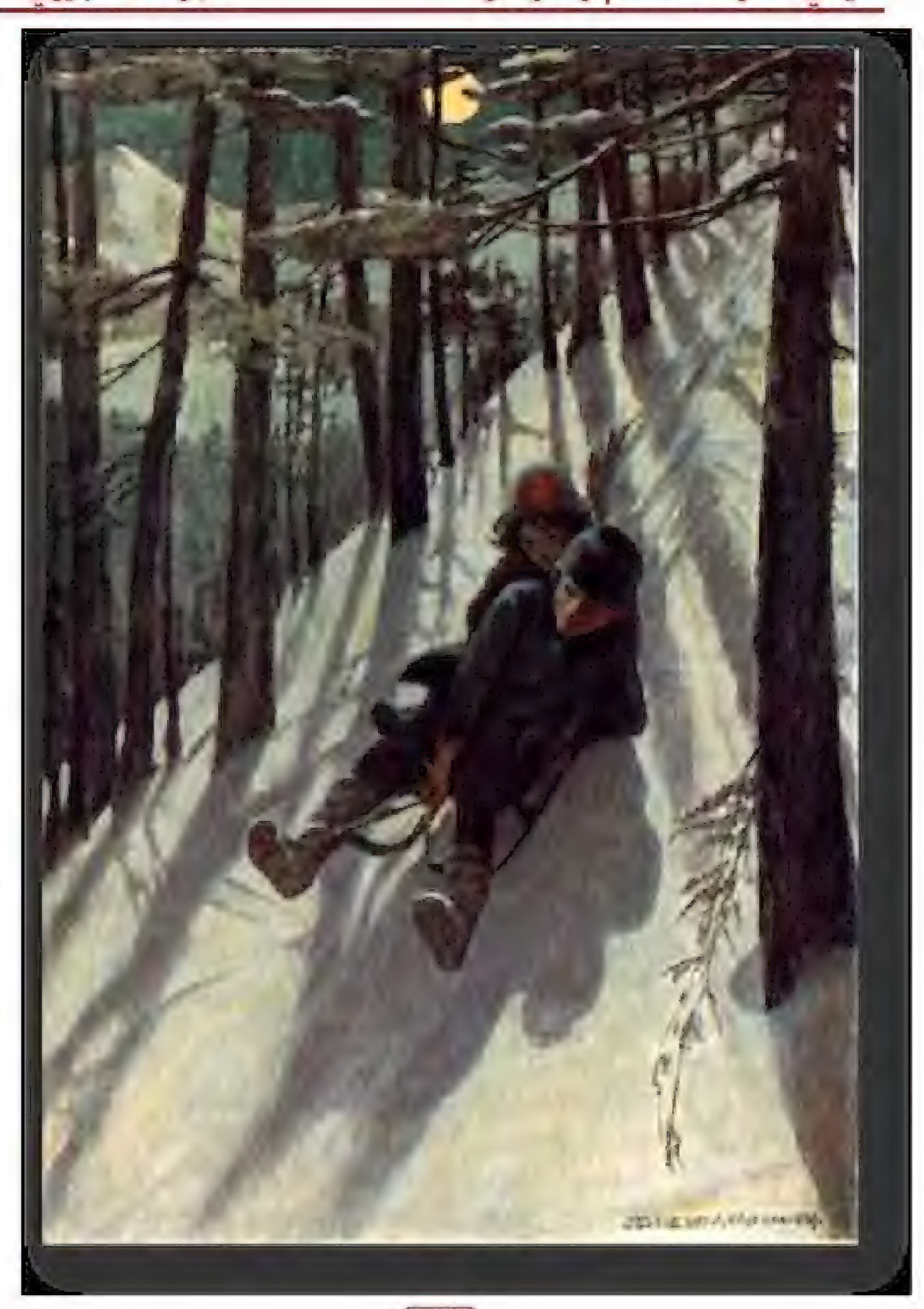
"إنها تظلم يا جدتي، علي العودة إلى منزلي، يسرني انكِ تحسنتِ مرة أخرى."

قالت الجدة وهي تمسك بيد هايدي:

"نعم أني سعيدة مرة أخرى، رغم إني يجب أن أبقى في فراشي. لا أحد يعرف كم هو صعب أن ارقد هنا وحيدة. يوما بعد أخر. ولا اقدر على سماع أي كلمة من أي احد ولا يمكنني أن أرى شعاع الشمس. تمر علي أفكار حزينة مرات كثيرة واشعر عادة كما لو كنت غير قادرة على تحملها. ولكن ما أن اسمع تلك الأناشيد المباركة التي تقرئينها لي، حتى اشعر كما لو أن النور يدخل إلى قلبي، ويعطني أنقى بهجة."

ودعت هايدي الجدة وهي تصافحها، وسحبت بطرس معها، وركضت إلى الخارج. كان القمر الرائع يبرق فوق الثلج الأبيض.، منيراً كالصباح. كان الطفلان يطيران إلى سفح جبال الألب، كالطيور التي تمخر عباب السماء.

وبعد أن توجهت هايدي إلى فراشها، بقيت راقدة لفترة قليلة، وهي تفكر في كل ما قالته العجوز، وبالخصوص ما يخص البهجة التي تشعر بها بعد قراءة النشيد. يا ليت الجدة المسكينة تسمع تلك الكلمات يومياً! إن هايدي تدرك إن عليها الانتظار أسبوع أو اثنين حتى تكرر زيارتها. شعرت الفتاة بالحزن كلما أتت إليها فكرة تعاسة العجوز ووحدتها التي ستأسرها. إلا توجد طريقة لمساعدتها؟ وفجأة جاءت فكرة لهايدي، وأثارتها الفكرة حتى إنها أدركت إنها لا يمكنها الانتظار إلى الصباح لتنفذ خطتها. ولكنها في غمرة إثارتها نست أن تؤدي صلاتها المسائية لذا جلست على سريرها وصلت إلى الله بحماسة. بعدها نامت على سريرها المصنوع من القش المعطر، ونامت بسلام وأمان حتى أشرقت شمس الصباح.



الفصل التاسع عشر
لا زال الشتاء مستمراً

وصل بطرس إلى المدرسة في اليوم التالي تماماً في الموعد. وكان يجلب معه غدائه معه في حقيبة، حيث أن كل الأطفال القادمين من أماكن بعيدة يأكلون في المدرسة، بينما البقية يأكلون في منازلهم. وفي المساء وكالمعتاد كان بطرس يقوم بزيارة هايدي.

وما أن فتح الباب حتى ركضت نحوه، وقالت:

"يا بطرس، علي أن أقول لك، شيئاً."

"قولي،" أجاب.

"عليك أن تتعلم القراءة الآن،" قالت الطفلة.

"لكني تعلمته فعلاً."

"نعم، نعم يا بطرس، ولكني إلا اقصد بهذه الطريقة،" أكملت هايدي بحماس. "عليك أن تتعلم القراءة حتى تجيدها في المستقبل."

"لا يمكنني،" نوه بطرس.

"لا أحد يصدقك فيما تقول في هذا بعد الآن، وأنا أيضا،" قالت هايدي بحزم. "عندما كنت في فرانكفورت، أخبرتني الجدة بأن هذا غير صحيح، وان علي أن لا أصدقك."

كان دهشة بطرس شديدة.

"ساعلمك حيث أني اعرف؛ وعندما تتعلم، يمكنك أن تقرأ نشيد أو اثنين كل يوم للجدة."

"ليس علي فعل هذا!" قال الفتى متذمراً.

جعل هذا الرفض بعناد هايدي غضبية. وبعيون يملأها الغضب وقفت أمام الفتى متسمرة وقالت:

"سأخبرك بما سيحدث تماماً، لو لم ترغب بالتعلم. لقد قالت أمك مراراً بأنها ترغب في إرسالك إلى فرانكفورت. وقد أرتني كلارا مدرسة الفتيان المريعة الكبيرة هناك، والتي يجب أن تذهب إليها. عليك أن تبقى هناك حتى تكون رجلاً! ولا يجب عليك أن تفكر في وجود معلم طيب واحد هناك، وليس كالذي يعلمنا هنا. كلا، بالفعل! هناك صفاً كاملاً منهم، وهم يسيرون بقبعاتهم السوداء الكبيرة على رؤوسهم. لقد شاهدتهم بنفسي، عندما كنت أتجول مرة في الخارج!"

اقشعر ظهر بطرس.

"نعم، عليك أن تذهب إلى هناك، ولو اكتشفوا بأنك عاجز عن تعلم القراءة أو التهجي، سيضحكون عليك!"

"علي أن افعلها،" قال بطرس، وهو نصف خائف ونصف غاضب.

"أوه، إني مسرورة، علينا أن نبدأ من الآن!" قالت هايدي بفرح، وسحبت بطرس فوق إلى الطاولة. ومن بين الأشياء التي أرسلتها كلارا، وجدت هايدي كتاباً صغيراً للتهجي، بعض القصائد. واختارت هذا الكتاب لتعليم بطرس الدروس. وجد بطرس بعد أن انتهى من تهجي القصيدة الأولى صعوبة بالغة. لذا قالت هايدي:

"علي أن اقرأها لك، ثم عليك بعدها أن تفعلها بصورة أفضل. أصغي:

لو عجزت عن قراءة ألف باء التاء ستعاقب أمام الملأ

"سوف لن اذهب هناك." قال الفتى بعناد.

"أين؟"

"أمام الملأ."

"إذن أسرع وتعلم الأحرف الثلاثة قبل أن تضطر للذهاب أمام المقبرة."

بدأ بطرس مرة أخرى، كرر الأحرف الثلاثة، حتى قالت له هايدي:

"والآن صرت تعرفها."

وبعد أن عرفت الثمار الجيدة للقصيدة الأولى بدأت بالقراءة ثانيةً:

"جيم حاء خاء عليك أن تقرأ أو أن يحل عليك البلاء
ومن سيتعثر بالدال والذال عليه يدفع الثمن الإذلال
والهم قادم لو تعرف فبالكاد السين والشين والصاد والضاد
ولو مررت بالطاء والظاء والعين والغين ستعاني من يسرها الهين

توقفت هايدي ونظرت إلى بطرس والذي كان خائفا من كل تلك التهديدات والرعب الغامض التي جعلته يجلس كالفأر. رق قلب هايدي العطوف، فقالت تعزيه:

"لا تخف، يا بطرس، فلو جئت إلي كل يوم، فسوف تتعلم مني كل الأحرف ومن ثم تلك التهديدات لن تحدث. ولكن تعال معي كل يوم، حتى لو هطل الثلج، عدني!"

وعدها بطرس، وفارقها. وعمل بتعليمات هايدي وصار يأتي كل يوم لأجل الدرس.

وأحياناً كان الجد يجلس في الغرفة، ويدخن غليونه، وكانت أطراف فمه ترتعش كما لو كان غير قادر على منع نفسه من الضحك.

وكان يدعو بطرس عموماً للبقاء معهم على العشاء بعد ذلك، والذي كانت المكافأة السخية الفتى على اجتهاده العظيم.

وهكذا مرت الأيام. وكان بطرس قد تقدم قليلاً طوال تلك الفترة، على الرغم من أن القصائد لا زالت تشكل له بعض الصعوبة.

ولما وصلا إلى الفاء ، قالت هايدي:

فلو مزجت بين الفاء والقاف سيبعثونك إلى ما لا تحب فيه الوقوف

وابعد

فلو تجاهلت الكاف واللام فتهيأ لعقوبة الإعدام

وكان بطرس دائم التذمر على كل تلك المقاييس إلا انه مع ذلك حافظ على تعلمه ولم يبقى لديه إلا خمس أحرف.

في الأيام التي تلت كان القصائد المتبقية وتهديداتها جعلت بطرس أكثر حماسة من ذي قبل.

ولو نسيت النون والهاء فسوف لن يعطوك العشاء

ولما وصلت هايدي إلى النهاية قرأت:

فلو ترددت مع تعلم الواو والياء فسيلقون بك إلى هوتنتوت وتبدأ بالبكاء

قال بطرس ساخراً:

"لا أحد يعرف أبداً أين تقع هذه!"

"أني متأكدة من أن جدي يعلم،" ردت هايدي بحسم، وقفزت. "فقط انتظر دقيقة وسأسأله. انه فوق مع القس." وفتحت الباب مع أخر كلمة.

"انتظري!" صرخ بطرس منبهاً، حيث رأى نفسه وقد انتقل إلى أهل تلك البلاد المرعبين.

"ما مشكلتك؟" قالت هايدي ووقفت ساكنة.

"لا شيء، ولكن ابقي هنا. سأتعلم،" قال وهو يبكي. غير أن هايدي، كانت ترغب في معرفة شيئاً ما عن أهل بلاد هوتنتوت لنفسها، لم يرجعها إلا بكاء بطرس المثير للشفقة. وجلسا ثانية، وقبل أن يحين موعد الذهاب، عرف بطرس الحرف الأخير، حتى انه صار قادراً على قراءة المقاطع. ومن هذا اليوم وصاعداً كن بطرس يتقدم بسرعة.

مرت ثلاث أسابيع منذ أن زارت هايدي الجدة أخر مرة، حيث نزل الكثير من الثلج منذ ذلك الوقت. في أحد الأمسيات، جاء بطرس إلى المنزل وقال منتصراً:

"يمكنني أن افعلها!"

"وما الذي يمكنك أن تفعل يا بطرس؟" سألته أمه بحماس.

"اقرأ."

"ماذا، هل هذا ممكن؟ هل سمعته، يا جدتي؟" قالت بريجيدا بتعجب.

كان الفضول يدفع الجدة في معرفة كيف تمكن من ذلك.

"يمكنني أن أقرأ لكِ نشيداً؛ وقد أخبرتني هايدي بذلك،" واصل بطرس كلامه. وبدأ بطرس بالقراءة وسط دهشة المرأتان. وبعد كل مقطع كانت الأم تقول بتعجب:

"من كان يفكر بهذا!"

بينما بقت الجدة العجوز صامتة.

وبعد يوم أخر، شاءت الصدف أن يحين موعد بطرس في القراءة في المدرسة، فقال المعلم:

"يا بطرس، هل علي أن أتجاوز دورك كما أعتدنا؟ أو انك ترغب بالمحاولة- ليس علي أن أقول لك أقرأ بل تلعثم بين الأسطر؟"

بدأ بطرس وقرأ ثلاث أسطر بلا توقف.

وضع المعلم كتابه جانباً وسط دهشة أكلت لسانه، ونظر إلى الفتى.

"أي معجزة حلت عليك؟" قال بتعجب. "لقد حاولت منذ فترة طويلة أن أعلمك بكل صبر، ولم تكن قادراً حتى على التميز بين الأحرف، ولكن الآن وعندما أعطيتك الدور بلا



أمل، لم تكن تتعلم كيف تتهجى الأحرف، بل أن تقرأ بلا توقف. كيف حدث هذا، يا بطرس؟"

"لقد كانت هايدي هي السبب." أجاب الفتى.

نظر المعلم إلى الفتاة الصغير بدهشة بالغة. ثم واصل الرجل الطيب:

"لقد لمست تغيرا كبيراً عليك، يا بطرس. لقد أعتدت أن تبقى بعيداً عن المدرسة، أحيانا فترة تتجاوز الأسبوع. وفي الفترة الأخيرة لم تفوت أي يوم. من سبب هذا التغير؟"

"العم."

كان بطرس الآن يقرأ كل مساء لجدته واحداً من تلك الأناشيد عندما يعود إلى منزله. أجابت العجوز مرة وسط مديح الأم المتكرر له:

" يسرني انه تعلم شيئا ما، ولكنني مع هذا أمل أن يحل الربيع سريعاً عندها ستزورني هايدي، فعندما تقرأ الفتاة تبدو الأبيات مختلفة. لا يمكنني أن أتابع مع بطرس في أغلب الأحيان. والأناشيد لا تؤثر بي بنفس الطريقة لو كانت هايدي هي التي تنشدها!"

ولا عجب من ذلك! حيث أن بطرس كان يترك الكثير من الكلمات التي تتصف بطولها أو بصعوبة نطقها، فيعتقد بأن كلمتان أو ثلاث لا تؤثران! فيحدث أحيانا أن لا يقرأ بطرس أي اسم في القصيدة.

الفصل العشرون
أنباء من الأصدقاء البعيدين

حل أيار. كانت أشعة الشمس الدافئة تغرق جبال الألب بنور بهي، وبعد أن أذابت أخر قطرات الثلج، جلبت معها أول الزهور الربيعية على الأرض. كانت تهب ريح الربيع العطرة، مجففة الأماكن الرطبة التي تقبع في الظل. وفي الأعالي كانت السماء اللازوردية استضافت المحلق بسلام.

عادت هايدي وجدها إلى جبال الألب. وكانت الفتاة مسرورة لتعود إلى موطنها مرة أخرى وصارت تتراقص حول أشيائها الجميلة. وهنا اكتشفت برعم ربيعي جديد، وهناك شاهدت يرقات البعوض والخنافس تحتشد تحت الشمس.

كان الجد مشغول بورشته الصغيرة، ويمكنك أن تسمع أصوات الفؤوس والمناشير تعمل. كان على هايدي أن تذهب وترى جدها ماذا يصنع. وهناك قبالة الباب كان يقف كرسي جديد متقن الصنع، بينما كان الجد منهمك في صناعة كرسي أخر.

"أوه، أني اعلم لمن هذه،" قالت هايدي بفرح. انك تصنع تلك الكراسي لكلارا وجدتها. أوه، ولكننا نحتاج إلى ثالث- أو انك تعتقد أن الآنسة روتن ماير لن تأتي، ربما؟

"حقاً أنا لا اعرف،" قال الجد. "ولكن يفضل أن نصنع كرسياً لها، لو جاءت."

نظرت هايدي بتمعن إلى الكراسي التي خلت من مساند الظهر وقالت ملاحظة:

"يا جدي، لا اعتقد بأنه ستجلس على تلك الكراسي."

"أن علينا أن ندعوها كي تجلس على البساط الأخضر الجميل على العشب،" أجاب الرجل العجوز بهدوء.

وبينما كانت هايدي تفكر فيما عناه جدها، وصل بطرس، يصفر وينادي. وكالمعتاد، أحاطت الماعز هايدي، والتي كانت تشعر بالسعادة لعودتها إلى الألب. دفع بطرس الماعز بغضب جانباً، وسار إلى هايدي، ودفع رسالة إلى يدها.

"هل جلبت لي رسالة من المروج الخضراء؟" قالت هايدي متعجبة.

"كلا."

"من أين إذن؟"

"من حقيبتي."

كانت الرسالة قد أعطيت له في الليلة الماضية، ووضعها في حقيبته التي يضع فيها غدائه غير أن الفتى نسي حتى فتح حقيبته عند العشاء. عرفت هايدي بسرعة خط يد كلارا، وقفزت إلى جدها، وقالت بتعجب:

"لقد وصلت رسالة من كلارا. هل ترغب بأن اقرأها لك يا جدي؟"

وبالحال قرأتها هايدي إلى مستمعيها: وكما يلي:

عزيزتي هايدي:-

لقد حزمنا أمتعتنا وسوف نسافر بعد يومين أو ثلاثة. أبي مغادر أيضا، ولكن ليس معنا، حيث عليه أن يسافر إلى باريس أولاً. ان الطبيب العزيز يزورنا الآن كل يوم، وما أن يفتح الباب حتى ينادي: "هيا إلى الألب!" فهو بالكاد ينتظرنا أن نذهب. وتصوري كم كان سعيداً معك في الخريف الماضي! لقد كان يأتي تقريباً كل يوم في هذا الشتاء إلينا ليخبرنا كل شيء عنكِ وعن جدكِ وعن الجبال وعن الزهور التي رآها. لقد قال أنها طبيعة خلابة، ذات هواء نقي معطر بعيداً عن المدن والشوارع وان كل إنسان يشفى هناك. لقد تحسن الطبيب منذ أن رجع من زيارتكِ، ويبدو انه اصغر وأكثر ابتهاجاً. أوه، كم أتطلع إلى أن أكون هناك! نصحني الطبيب أن أتوجه إلى راغاتس أولاً لحوالي ستة أسابيع، ثم علي أن أعيش في القرية، ومن هناك يمكنني أن أراكِ يومياً. وتتطلع جدتي التي سترافقني إلى أن تكون هناك أيضاً. ولكن هل تعرفين أن الآنسة روتن ماير لا ترغب بالذهاب. ولما حثتها جدتي، كانت ترفض بأدب دوماً. فقد كان سيباستيان يوصف لها بصورة مريعة الجرف الصخري والتيس الجبلي المخيف، وهي تخاف تلك الأشياء. واعتقد انه اخبرها بأن تلك الأشياء خطيرة على المرء، ولا يمكن لأي احد التسلق إلى تلك المرتفعات المخيفة سوى الماعز. لقد اعتادت أن تكون متلهفة لرؤية سويسرا، ولكن حتى الآن تينيتي لا ترغب بالمخاطرة. أني احترق شوقاً كي أراكِ مرة أخرى!

إلى اللقاء يا هايدي. مع الكثير من الحب من جدتي.

صديقتكِ المخلصة

كلارا

ما أن سمع بطرس هذا، حتى لوح بعصاه يميناً ويساراً. وقاد القطيع بغضب إلى الأمام، وتوجه ناحية التل.

زارت هايدي الجدة في اليوم التالي، حيث كان من واجبها نقل الأنباء السعيدة إليها. كانت الجدة تتأرجح بالكرسي كالمعتاد، وهي تجلس في أحدى الزوايا. بدا وجهها حزيناً، فقد أخبرها بطرس بالزيارة القريبة لأصدقاء هايدي، وهي تخشى العواقب.

بعد أن أفاضت ما في قلبها، نظرت هايدي إلى الجدة العجوز وقالت:

"ماذا يجري أيتها الجدة؟" قالت الطفلة. "ألستِ مسرورة؟"

"أوه، نعم يا هايدي، أني مسرورة، فقط لأنكِ مسرورة."

"ولكن يا جدتي، يبدو عليكِ القلق. هل لا زالتِ تعتقدين أن الآنسة روتن ماير قادمة؟"

"أوه، كلا، لا شيء. أعطني يدكِ، لاني أرغب بأن أكون متأكدة بأنكِ لا زالتِ معي هنا. وافترض أن الأمر يجري للأفضل. حتى لو لم أعش تلك المدة وأرى ذلك اليوم."

"أوه، ولكن عندها لا اهتم لما يجري." قالت الطفلة.

لم تنم الجدة طوال الليل وهي تفكر في قدوم كلارا. هل سيأخذون هايدي منها، الآن وقد أصبحت قوية وبصحة جيدة؟ ولكن ولمصلحة الطفلة فقط قاومت واستجمعت شجاعتها.

"يا هايدي،" قالت الجدة. "أرجوكِ اقرئي لي النشيد الذي يبدأ "سيرى الله ذلك.""

وبالحال فعلت هايدي ما طُلب منها، وهي تقريباً تعرف كل ما تحبه الجدة من أناشيد الآن وتعرف كيف تجدها مباشرة.

"ان هذا يقويني، يا طفلتي." قالت العجوز. وصار فجأة وجهها اسعد من قبل وابعد عن التعب. " أرجوكِ اقرئيها لي عددا من المرات يا طفلتي." توسلت الجدة.

وحل المساء، ولما سارت هايدي نحو المنزل، صارت النجوم تظهر تباعاً. كانت هايدي تقف ساكنة في كل لحظة، وهي تنظر إلى القبة الزرقاء بتعجب. ولما وصلت إلى المنزل، كان جدها أيضا ينظر إلى السماء. وكان يتمتم في نفسه:

"يا له من شهر رائع! يوماً أنقى من الأخر. سيكون العشب نافعاً وقوياً هذه السنة."

ومضى الشهر المعطر بالأريج، وحل حزيران، صاحب أطول الأيام على الإطلاق. كانت الكثير من الإزهار تبرعم في كل مكان، وهي تملأ الهواء بالعطر. كان الشهر يقترب من أفوله، لكن في صباح أحد الأيام، جاءت هايدي وهي تركض خارج الكوخ، حيث أكملت كل واجباتها هناك. وفجأة صرخت عالياً حتى أن جدها أسرع إليها ليعرف ما جرى.

"يا جدي! تعال! أنظر، أنظر!"

لقد كان هناك موكباً يصعد إلى الألب. أولا تقدم رجلان، وهم يحملون كرسي مغطى مع فتاة في داخله، ملفوفة بعدة أغطية. ثم تقدمت امرأة من المدينة على ظهر الحصان، والتي كانت تتحدث مع شاب يرشدها وهو يسير قربها، وهو ينظر بحماس يميناً ويساراً. ثم كرسي بعجلات يحمله شاب أخر، يسبقه حمالا مع الكثير من الأغطية والفراء المكوم في سلته التي علت عن قمة رأسه.

""إنهم قادمون! إنهم قادمون!" صاحت هايدي بفرح غامر، وسرعان ما وصل الجميع إلى القمة. وكم كانت سعادة الطفلتين برؤية أحدهما الأخرى. ولما نزلت الجدة من على الحصان، حيت هايدي أولاً بحرارة، ثم استدارت إلى العم، والذي كان يتقدم نحو المجموعة. التقى الاثنان كما لو كانا صديقان قديمان، فقد سمع أحدهما عن الأخر كثيرا.

بعد تبادل التحيات في أول الكلام، قالت الجدة بتعجب:

"يا عمي العزيز، يا له مكان رائع تقيم فيه! من كان يفكر في كل هذا! حتى الملوك يحسدوك على هذا المكان. أوه، كم تبدو العزيزة هايدي بصحة وقوة، كما لو كانت زهرة صغيرة!" واصلت الجدة كلامها، وهي تجر الطفلة إلى قربها أكثر وتضع خدودها عليها:" يا للبهجة التي تحيط بالمكان! يا كلارا ماذا تقولين في كل هذا؟"

صاحت كلارا وهي منتشية بكل ما حولها:

"أوه، كم هو رائع! كم هو بهيج! حتى إني لم احلم بجمال كهذا! أوه يا جدتي، أتمنى أن أبقى هنا!"

انشغل الجد في تلك الإثناء في حمل الكرسي الدوار لكلارا. ثم، توجه إليها وحملها إلى مقعدها برفق. ووضع بعضاً من الأغطية على ركبتيها، ثم دثرها بعناية. تصرف الجد كما لو كان يمرض طوال عمره الأطفال المعاقين.

"يا عمي العزيز،" قالت الجدة، متفاجئة. "أرجوك قل لي أين تعلمت كل هذا، فاني سأدع كل الممرضات التي معي الآن."

إبتسم الجد ابتسامة باهتة وهو يجيب:

"جاءت من الوقاية أكثر مما هي من التعلم."

أصبح وجهه حزيناً، قبل أن ترفع عيناه عن الأيام الخوالي. فقد كانت تلك هي الطريقة التي اعتنى بها بصديقه القبطان المسكين الذي وجده في صقلية مجروحاً بعد معركة ضارية. وكان الوحيد الذي سمح له أن يمرضه حتى وفاته، وها هو الآن يعتني بنفس الطريقة بالفتاة المعاقة كلارا.

قالت كلارا بحنين بينما كانت تنظر إلى السماء الصافية الخالية من السحب والصخور لفترة طويلة:

"أتمنى اني أستطيع السير لأدور خلف الكوخ وارى أشجار التنوب. فلو أستطيع أن أرى كل تلك الأشياء التي تحدثني لي عنها الكثير!"

دفعتها هايدي بكل قوتها، ثم توقفت! كان الكرسي الدوار يسير بخفة على العشب الندي. ولما وصلا إلى مرجة صغيرة خضراء، لم تستطع أن ترى ما يكفي من تلك الأشجار

العملاقة الرائعة التي ظلت شامخة لمئات المئات من السنين. وعلى الرغم من أن الناس تتغير وتختفي، إلا انه بقت على حالها في الوادي.

قالت كلارا بشفقة بعد أن تجاوزنا الحضيرة الفارغة:

"أوه، يا جدتي، لو فقط يمكنني أن انتظر لحين أرى شفانلي وبارلي! أخشى إني لن أستطيع أن أرى بطرس وماعزه، لو كان علينا أن ننزل قريباً مرة أخرى."

"يا طفلتي العزيزة، تمتعي الآن بقدر ما تقدرين،" قالت الجدة، التي تبعتها.

"أوه، يا لها من زهور رائعة!" قالت كلارا بتعجب مرة أخرى، " كلها شجيرات عطرية حمراء. أوه، فقط لو أستطيع أن اقطف بعضاً من زهور البنفسج!"

وبالحال جمعت هايدي حزمة كبيرة منها، ووضعتها في حضن كلارا.

"يا كلارا، إن تلك الزهور لا تعتبر ذات قيمة بالمقارنة مع كل تلك الزهور في المروج الخضراء. عليكِ أن تأتين معي ذات يوم إلى هناك. هناك الملايين منها حتى أن الأرض تبدو ذهبية بسببها. ستشعرين كما لو أنكِ غير راغبة في النهوض مرة أخرى، أنها حقاً جميلة."

"أوه، يا جدتي، هل تعتقدين بأني قادرة على الذهاب إلى هناك؟" سألتها كلارا والحنين بعينيها. "فقط لو يمكنني السير معكِ يا هايدي، وان نتسلق سوية إلى كل مكان!"

"سوف أدفعكِ!" قالت هايدي باطمئنان.

ولتبين لها سهولة الأمر دفعت كرسيها بقوة إلى درجة إنها كادت أن تسقط من على سفح الجبل لولا أن هب الجد سريعاً وأوقفها في اللحظة الأخيرة.

لقد حان موعد العشاء الآن. وأعدت الطاولة قرب المصطبة وفي الحال كل فرد جلس في مكانه. كانت الجدة مأخوذة بالمنظر الخلاب والريح الندية التي تداعب خدودها حتى إنها قالت بتعجب:

"يا له من مكان رائع! لم ترى عيني منظراً كهذا! ولكن ماذا أرى؟" واصلت الجدة كلامها. "اعتقد انكِ تأكلين القطعة الثانية من الجبن يا كلارا."

"أوه، يا جدتي، أن طعمها أطيب بكثير من تلك الأشياء التي حصلنا عليها في راغاتس." ردت الطفلة وهي تأكل بكل حماسة من الطبق الشهي.

"لا تتوقف! أن ريح جبالنا تساعدنا كثيرا في المكان الذي يصعب الطهي فيه!" قال العجوز برضا.

وخلال الوجبة بدأ العم والجدة في الحال بمحادثة ودودة. بدا عليهما إنهما يشتركان في الكثير من الأمور، ومتفاهمين كالأصدقاء القدامى. وبعد قليل راحت الجدة تنظر إلى الغرب.

"علينا أن نبدأ بالمغادرة في الحال يا كلارا، حيث أن الشمس قد نزلت، سيحضر دليلنا في وقت قريب."

ورسمت على وجه كلارا إمارات الحزن، وتوسلت قائلة:

"أوه، أرجوكِ دعينا نبقى أكثر هنا لساعة أو اثنين. فأنا لم أرى الكوخ إلى الآن. أتمنى أن يكون اليوم ثمانية وأربعون ساعة."

حققت الجدة رغبة كلارا بالذهاب إلى داخل الكوخ. ولما وجد أن الكرسي كبير جدا ليدخل عبر الباب، قام الجد بهدوء ورفع الفتاة على يديه وأدخلها إلى الكوخ. كانت الجدة تنظر إليها بحماس، وكانت تشعر بالسرور عندما تشاهد أن كل شيء يسير وفق ما يرام. وصعدت كلارا إلى السلم الصغير المؤدي إلى العلية المفروشة بالقش، لترى سرير هايدي.

"هل هذا فراشكِ، يا هايدي؟ يا له من عطر ينبعث منها! لا بد أن هذا المكان صحي جدا للنوم فيه!" قالت كلارا وهي تنظر عبر النافذة.

كان الجد وكلارا فوق وهايدي تتبعهم.

كانت كلارا قد دخلت بالكامل:

"يا له من مكان للنوم! أوه، يا هايدي، يمكنكِ أن تري السماء من فراشكِ. ويا له من عطر! يمكنكِ سماع أشجار التنوب من هنا، أليس كذلك؟ أوه، لم أر قط غرفة نوم أحلى من هذه!"

قال العم في هذه اللحظة وهو ينظر إلى العجوز:

"لدي فكرة والتي ستعطي كلارا قوة جديدة لتبقى هنا معنا فترة قصيرة. وبالطبع، إني اقصد لو لم تعارضي. لقد أحضرتِ الكثير من الأغطية التي يمكن لها أن تساعد في تحضير فراشاً ناعماً ودافئاً. يا سيدتي العزيزة، يمكنكِ أن تتركِ رعاية هذه الفتاة الصغيرة علي. سوف أتعهد بها وبكل سرور."

صرخت الطفلتان من الفرحة. وكان وجه العجوز مبتهج.

"يا لك من رجل لطيف!" انفجرت قائلا. "حيث إني كنت أفكر للتو في أن البقاء هنا قد يقوي الفتاة ولكن اعتقدت بأن أمر رعايتها سيكون مشكلة لك. ولكنك الآن عرضت الأمر، كما لو كنت غير متعب بالمرة. كيف لي أن أشكرك بما فيه الكفاية، أيها العم؟"

وبعد المصافحة لمرات عديدة، حضر الاثنان فراش كلارا، والذي كان بفضل رعاية وحذر السيدة العجوز قد اعد بنعومة حتى أن الفتاة لا تشعر بالقش أبداً.

حمل العم مريضته الجديدة إلى كرسيها المتحرك، وهناك أجلسها في مكان قرب هايدي. كان الجميع يتحدثون بحماس عن خطتهم للأسابيع القادمة. ولما اخبرهم العم أن الفتاة قد تبقى لمدة شهر أو أكثر، أشرقت وجوه الجميع ببهجة.

ظهر الآن الدليل مع الحصان وحاملي الكرسي غير أن الاثنين الأخيرين لم تعد لهم حاجة الآن فأعيدوا ثانية.

ولما تحضرت العجوز للمغادرة نادت كلارا بسعادة عليها:

"يا جدتي، سوف لن يطول الأمر، حيث يجب أن تأتي لتزرينا."

بينما كان العم يقود الحصان إلى أسفل المنحدر الجبلي أخبرته الجدة العجوز بأن عليها أن تعود إلى راغاتس حيث أن دورفلي تبدو معزولة أيضا بالنسبة إليها. كما وعدته بأنها ستعود بين الحين والأخر لتراهم.

وقبل عودة الجد، جاء بطرس يجري من الأسفل إلى الكوخ مع جميع ماعزه. وركضت الماعز على عجل إلى هايدي بعد أن رأتها. وأخيرا تعرفت كلارا على شفانلي وبارلي وكل ما تبقى من ماعز.

ومع هذا بقي بطرس بعيداً، ولم يفعل شيء سوى إرسال نظرات الغضب من بعيد على الفتاتين. ولما حيتاه هرب بدون رد فعل، سوى ضرب الهواء بعصاه.

وشارف هذا اليوم السعيد على نهايته. ونامت الطفلتان في فراشيهما.

"أوه، يا هايدي!" قالت كلارا بتعجب. "يمكنني أن أرى العديد من النجوم اللامعة، وأشعر كما لو كنت في عربة عالية تطير مباشرة نحو السماء."

"نعم، ولكن هل تعرفين لماذا تلمع هذه النجوم بمرح هكذا؟" طرحت هايدي عليها السؤال.

"كلا، ولكن أخبريني."

" فقط لأنها تعرف أن الله في السماء يعتني بنا ويبقينا أحياء ولا يجب علينا أن نخاف. أترين، إنها تلمع وتبين لنا الطريقة التي يجب أن نمرح بها، أيضا. ولكن يا كلارا، علينا أن لا ننسى أن نصلي إلى الله وندعوه أن يفكر بنا ويحمينا."

تلت البنتان صلاتهما وهن راقدات في فراشهن. وما أن وضعت هايدي رأسها على وسادتها حتى غطت في نومها. غير أن كلارا لم تتمكن من النوم بسلام، فقد كان المنظر جميلاً جداً لترى النجوم اللامعة من على فراشها.

في الحقيقة هي لم تراها من قبل، بسبب أن فرانكفورت يحل الظلام فيها قبل أن تطلع النجوم في السماء، وعند المساء لم يسمح لها بأن تغادر إلى الخارج. لم تتمكن كلارا من غلق عيناها، وكان عليها أن تبقيهما مفتوحين مرات عديدة لتراقب بريق النجوم وإشراقها، حتى غلقت عيناها في النهاية ولكنها رأت النجوم الكبيرة البراقة في أحلامها.



الفصل الحادي والعشرون
أحداث أخرى في الألب

ها قد أشرقت الشمس للتو، وها هو العم يراقب الجبل والوادي وهم يستيقظان في يومهما الجديد، بينما كانت السحب في السماء تبدو أكثر بريقاً.

وبعدها استدار العم العجوز ليعود إلى الكوخ، وتسلق السلم بهدوء. لقد فتحت كلارا قبل لحظة فقط عينيها، وكانت تنظر حولها بدهشة. وكانت أشعة الشمس تتراقص حول فراشها. يا ترى أين هي؟ غير إنها أدرك بسرعة صديقتها النائمة الصغيرة وسمعت صوت العم البهي:

"كيف كان نومكِ؟ لستِ بمتعبة؟"

قالت كلارا وهي تشعر بالنقاء والراحة بأنها لم تنم أفضل من هذه الليلة في حياتها كلها. واستيقظت هايدي بسرعة، أيضا، ولم تفقد الوقت لترافق كلارا في الأسفل، والتي كانت تجلس تحت أشعة الشمس مباشرة.

داعب نسيم الصباح خدودها، وملأ عبير أشجار التنوب القادم مع الهواء النقي رئتيها بكل نفس. لم تعش كلارا مثل هذه الصحة والعافية طوال حياتها. فهي لم تستنشق هواءاً صحياً بارداً ونقياً في الصباح، ولم تشعر بالدفء وأشعة الشمس العذبة التي تضرب يديها وأرجلها في حياتها. في الحقيقة أن هذا يفوق كل توقعاتها.

"أوه، يا هايدي، أتمنى لو إني كنت دائما هنا معكِ!" قالت.

"الآن يمكنكِ أن تري أن كل شيء جميل ورائع كما أخبرتكِ،" أجابت هايدي بنبرة المنتصر. "فوق في الألب ومع جدي تقع أفضل بقعة في العالم."

كان الجد في هذه اللحظة قد خرج من الحضيرة مع وعاءين مليئان بالحليب المغلي الأبيض. ناول وعاء لكلا الفتاتين، وقال لكلارا:

"هذا نافع لكِ، يا طفلتي الصغيرة! انه حليب شفانلي وسيعطيك القوة. لصحتكِ! فقط أشربيه!" قال مشجعاً الفتاة، حيث أن كلارا ترددت قليلاً. ولكن ما أن رأت أن وعاء هايدي قد قارب على النهاية، حتى شربته أيضا بدون توقف. أوه، يا له من طعم طيب! يبدو مثل طعم القرفة والسكر.

"في الغد سنشرب اثنان،" قال الجد.

وبعد أن تناولوا فطورهم، وصل بطرس. بينما كانت الماعز تتراكض نحو هايدي، وهي تصيح بأعلى أصواتها، وأخذ الجد الفتى جانباً.

"أصغي إلي جيداً، وافعل تماماً ما أقوله لك،" قال. "منذ الآن عليك أن تترك شفانلي ترعى أينما تشاء. فهي تعرف أين تقع أغنى الأعشاب، وعليك أن تتبعها، حتى لو تسلقت أعلى مما يجب. فلن يضرك الأمر شيء لو تسلقت قليلاً إلى الأعلى، كما إنها ستنفع الماعز كلها. أريد أن تعطيني ماعزي الحليب الجيد، تذكر. علام تنظر بغضب؟"

كان بطرس صامتاً، وبدون أي ضجة أخرى، انطلق ذاهباً، وكان لا زال ينظر إلى الخلف بغضب. وبعدها وبينما كانت هايدي تتبعه لمسافة قريبة، نادى عليها:

"يجب عليكِ أن تأتي معي، يا هادي، فأن شفانلي بحاجة إلى متابعة."

"كلا، ولكني لا أستطيع،" ردت هايدي. "لا يمكنني الذهاب طالما أن كلارا معي. لقد وعدني الجد، مع هذا، ليجعلنا نأتي معك مرة واحدة فقط."

وبهذه الكلمات رجعت هايدي إلى كلارا، بينما مضى الراعي الصغير في طريقه، وهو غاضب ويلوح بقبضته.

حصلت الفتاتان على وعد بالكتابة إلى الجدة يومياً، لذا بدتا في الحال بعد أن جلستا على الطاولة. جلبت هايدي مقعدها ثلاثي الأرجل، وجلبت كتبها المدرسية وأوراقاً ووضعتها في حضن كلارا وبدأت الأخيرة بالكتابة. كانت كلارا تتوقف بعد كل جملة تقريباً، حيث كان عليها أن تتأمل ما حولها. أوه، كم هو أمر باعثاً للسلام وسط كل تلك الحشرات المتراقصة على ضوء الشمس وتلك الأشجار التي تغني! لقد كانوا يسمعون بين الحين والأخر صوت صفير للراعي الذي يرجع صداه إليهم من وراء الصخور.

مر الصباح، ولم يشعرا بذلك، وتم تحضير العشاء. وتناولا العشاء في الخارج أيضا، حيث كان على كلارا أن تكون في الخارج طوال اليوم، قدر الإمكان. وقضت الفتاتان العصر تحت ظلال شجرة التنوب. لقد كان على كلارا أن تسرد الكثير من الأشياء التي تتعلق بفرانكفورت وان تتحدث عن أخبار كل الناس التي تعرفهم هايدي. ولم يمضي وقتاً طويلاً حتى وصل بطرس مع قطيعه، ولكن بدون أن يرد التحية على الفتاتان اللتان حيتاه بحرارة، اختفى عابساً.

بينما كانت شفانلي تحلب في الحظيرة قالت كلارا:

"أوه، يا هايدي، يبدو علي وكأنني لا أقاوم حتى احصل على الحليب، أليس هذا ممتعا! أن حياتي مضت بلا قيمة لأني كنت مجبورة عليها. فكل شيء كان يبدو مذاقه كزيت الحوت، وكنت أتمنى أن أتناول اي شيء أخر منع عني. وها أنا ذا جائعة جدا!

"أوه، نعم، أعرف،" ردت هايدي. لقد كان عليها أن تفكر في تلك الأيام التي عاشتها في فرانكفورت حيث كانت تعجز عن ابتلاع الطعام.

وما أن وصلت الأوعية التي مُلئت بالحليب والذي كان الجد يحملها، حتى قبضت كلارا على وعائها وتناولته بحماسة وأفرغت ما به، حتى إنها انتهت منه قبل هايدي.

"ارجوك، هل لي أن أحصل على المزيد؟" سألت وهي تلوح بالوعاء.

أومأ الجد بالقبول مبتسماً وملئه مرة أخرى. وفي هذه المرة جلب للفتاتين قطعة من الخبز والزبد. فقد ذهب العم إلى ماينساس ظهيرة هذا اليوم وجلب الزبد، وقد نال ما يريد، واستمعت الفتاتين بالوجبة كما لو كانت أندر وجبة.

شعرت كلارا في مساء ذلك اليوم بالنعاس حالما استلقت على فراشها. وهكذا مر يومان أو ثلاثة بنفس الطريقة الممتعة. واليوم التالي حدثت المفاجئة. فقد تسلق حمالين إلى الألب، وحمل كل واحداً منهم فراشا ابيضاً وثيراً. وكان معهم رسالة من الجدة، وفيها عبرت عن شكرها للفتاتين عن إخلاصهما المعبر عنه في رسالتهما. وأخبرتهما أن الفراش مخصص لهما. ولما رغبت الفتاتين في تلك الأمسية النوم، وجدا أن فراشيهما الجديدين كان في نفس مكان فراشيهما القديمين.

وكبرت نشوة وفرح كلارا يوماً بعد يوم، ولم تستطع كل رسائلها أن تعبر عن رعاية الجد لها وقصص هايدي الممتعة. وأخبرت الجدة بأن أول ما خطر في بالها هذا الصبح هو:

"الحمد لله، أني لا زالت في كوخ العم."

أسعدت الجدة كثيراً بتلك الأنباء. ووضعت الخطة في الإعداد للزيارة القادمة في الأيام القليلة القادمة، حيث أنها وجدت أن السفر متعب جدا.

وبذل الجد في رعايته لمريضته الصغيرة جهداً ممتازاً. ولم يمضي يوم حتى يبحث الجد فيه عن أعشاب نافعة ومقوية لمعزته شفانلي. وقد كبرت شفانلي الصغيرة حتى أن الكل صار يشاهدها في الطريق وعيناها تبرقان.

لقد مر الآن الأسبوع الثالث لإقامة كلارا. كان الجد يقول لكلارا في كل مرة يحملها فيها:

"هل ستحاول العزيزة كلارا الوقوف قليلاً؟"

وكانت كلارا تتحسر في كل مرة.

"أوه، ولكن هذا يؤذيني أيضا!"

ولكن رغم هذا كانت تمسك بالجد وتقف يومياً فترة أطول من التي قبلها.

لقد كان هذا الصيف الأجمل منذ سنوات. ويوماً بعد آخر تشرق الشمس في سماء صافية خالية من السحب، وفي المساء كانت ترمي بنورها القرمزي على الصخور وعلى حقول الجليد حتى يبدو كل شيء مشتعلاً بالنار.

أخبرت هايدي كلارا كل شيء عن الزهور في المروج الخضراء، وكل تلك الزهور الذهبية والبنفسج التي تغطي الأرض. وكانت قد أخبرتها مرة أخرى حتى هاجمها الاشتياق إلى المروج الخضراء فركضت نحو جدها الذي كان ينقش على الخشب في مشغله وقالت له:

"أوه، يا جدي،" صاحت من بعيد. "هلا أتيت معنا إلى المروج الخضراء في الغد؟ أن الطقس رائع هناك في الأعلى هذه الأيام."

"حسناً، سأفعل،" أجاب الجد. " ولكن أخبري كلارا، بأن عليها أن تفعل شيئا ما يسعدني، عليها أن تحاول الوقوف أطول هذا المساء، فقط من أجلي."

جاءت هايدي بفرح غامر برسالته هذه. بالطبع، وعدت كلارا، فألم تكن أمنيتها الكبرى في الذهاب مع هايدي إلى المروج الخضراء! ولما عاد بطرس في المساء، سمع بخطة الغد. غير أن جوابه كان العبوس فقط، حتى انه ضرب ليستلفنج من شدة غضبه.

عزمت الفتاتان على السهر طوال الليل للحديث عن الخطط في اليوم التالي، حتى غلب عليهما النوم وانتهت محادثتهما فجأة ونامت الفتاتين بسلام. وفي أحلام كلارا، رأت أمامها حقلاً مملوء بزهور البنفسج بينما كانت هايدي تسمع زعيق النسر عليها من الأعلى:

"تعالي، تعالي، تعالي!"

الفصل الثاني والعشرون

شيئا ما غير متوقع يحدث!

كان صباح اليوم التالي صافياً وذو فجراً جميلاً. ولما تسلق بطرس إلى الأعلى كان الجد مع الطفلتين، وكانت ماعزه تسبقه بمسافة لا باس بها، فقط كي تتجنب عصاه التي كانت تضرب يميناً وشمالاً. كان بطرس في الواقع مغتاظاً وغاضباً بصورة مزعجة نتيجة التغييرات التي طرأت عليه. وعندما مر بالكوخ في هذا الصباح كانت هايدي لا زالت مشغولة بالفتاة الغريبة، وفي المساء يحدث الشيء نفسه. فطوال الصيف لم تشارك هايدي بطرس في أي لحظة، وكان هذا كثيراً عليه! واليوم، ها هي قادمة معه أخيراً، ولكن مرة أخرى برفقة تلك الغريبة البغيضة.

وشاهد بطرس في هذه اللحظة الكرسي المتحرك قرب الكوخ. نظر إليه بحرص كبير، ثم اندفع نحو ذلك الشيء الكريه ودفعه نحو هاوية الجبل. طار الكرسي بسرعة بعيداً وبعدها اختفى.

صار ضمير بطرس يؤنبه كثيراً الآن، وأسرع نحو الألب، ولم يتجرأ على الوقوف حتى بلغ شجيرة الكرز. وهناك يمكنه الاختباء، فقد يظهر العم في أي لحظة. ونظر إلى الأسفل وراح يشاهد العدو اللدود وهو يتدحرج إلى الأسفل أكثر فأكثر،

أحيانا كان يتطاير إلى الأعلى، ليحط بعدها مرة أخرى بصورة أقسى من التي قبلها. تناثر اشلاءه يميناً ويساراً، وانتشرت بكل مكان. الآن على الغريبة أن ترحل إلى موطنها وتترك هايدي له مرة أخرى! غير أن بطرس نسي أن السيئات تلحقها العقوبات.



وفي هذه اللحظة فقط خرجت هايدي من الكوخ. وتبعها الجد مع كلارا. وقفت هايدي في البدء ساكنة، ثم، جرت يميناً ويساراً وعادت إلى الرجل العجوز.

"ماذا يعني هذا؟ هل دفعتِ الكرسي المتحرك بعيداً، يا هايدي؟" سألها الجد.

"بل إني ابحث عنه في كل مكان، يا جدي. لقد قلت أنه قرب باب المشغل." قالت الطفلة، وما زال البحث جارٍ عن العنصر المفقود. وهبت في هذه الإثناء ريحاً قوية، والتي تسببت في غلق باب المشغل بعنف.

"يا جدي، لا بد أن الريح دفعه به بعيداً." قالت هايدي بتعجب وحماس. "أوه، يا ربي! لو كان قد تدحرج طول المنحدر حتى القرية، فسيفوت الوقت للذهاب اليوم. فسيستغرق الأمر وقتاً طويلاً لبلوغه والحصول عليه."

"ولو كان قد تدحرج إلى القرية فسيصعب علينا الحصول عليه مرة أخرى. فلا بد انه تحول إلى أشلاء." قال العجوز. وصار ينظر إلى الأسفل ويقيس المسافة من زاوية الكوخ.

"لا يمكنني أن اعرف كيف حدث الأمر،" قال منوهاً.

"يا للعار! لا يمكننا الآن أن نذهب إلى المروج الخضراء أبداً!" قالت كلارا منتحبة. "انه أمر مثير للشفقة، انه أمر مثير للشفقة!"

"يمكنك أن تكتشف طريقة إبقائها يا جدي، أليس كذلك؟"

"علينا أن نذهب إلى المروج الخضراء اليوم، كما خططنا. ومن ثم نرى ما سيحدث."

كانت الفتاتين مبتهجتان، ولم يضيع الجد أي لحظة، واستعد. فأولاً أحضر كومة من الأغطية، ثم أجلس كلارا في موقع مشمس على الأرض الجافة، واحضر لها الفطور.

"أني متعجب لماذا تأخر بطرس هذا اليوم،" قال الجد، وهو يقود الماعز إلى خارج الحظيرة.

ثم رفع كلارا بواحدة من يديه القويتين، وحمل الأغطية بالأخرى.

"والآن، سيروا!" صاح الجد. "سيأتي الماعز معنا."

كان هذا الأمر يناسب هايدي، وحضنت شفانلي بأحد يديها، وبارلي بالأخرى. وساروا جميعاً. كانت الماعز الصغيرة سعيدة جداً بقدوم هايدي معها إلى المروج الخضراء مرة أخرى، فصارت تضربها برقة لتلاعبها.

وكم كانت دهشتهم جميعاً لما وصلوا إلى القمة وشاهدوا بطرس هناك فعلاً وهو يرقد على الأرض، وكان قطيعه المسالم حوله.

"ماذا تعني عندما سبقتنا إلى هنا وتركتنا هكذا؟ سوف ألقنك درسا!" صاح الجد عليه. أخاف هذا الكلام بطرس، فهو يميز الصوت جيداً.

"لم يصعد أحد إلى هنا بعد،" قال الفتى مقراً.

"هل رأيت الكرسي؟" سأله العم مرة أخرى.

"أي كرسي؟" عبس بطرس.

لم يقل العم أي شيء. وفتح الأغطية ووضع كلارا على العشب الجاف. ثم، بعد أن أطمأن على راحة كلارا، استعد للعودة إلى المنزل. كان على الثلاثة أن يبقيا سوية هنا حتى يعود الجد إليهم في المساء. ولما حان موعد العشاء، كان على هايدي أن تعد الوجبة وان تتأكد من أن كلارا تتناول حليب شفانلي.

كانت زرقة السماء شديدة، وكان الثلج على قمم الجبال يلمع. وكان النسر يطير فوق الصخور. وشعر الأطفال بسعادة غامرة. وبين الحين والأخر كانت واحدة أو أكثر من الماعز تقترب وتنام قربهم. وكان النطاط الأبيض يتردد كثيراً عليهم أكثر من أي ماعز أخر وكانت تضرب برأسها على أكتاف الأطفال.

كان الأطفال يجلسون بهدوء لعدة ساعات، وكانوا يلتهمون الجمال الذي حولهم بنهم، وفجأة بدأت هايدي تشعر بالحنين إلى موقعها المفضل، حيث تنمو الأزهار الكثيرة. ففي المساء قد يكون الوقت غير مناسب للذهاب، وعندها يكونون قد نعسوا أصلاً.

"أوه، يا كلارا،" قالت هايدي بتردد. " هل تشعرين بالغضب لو تركتكِ وحدكِ وذهبت لدقيقة ؟ ارغب برؤية الأزهار. ولكن انتظرِ!" تقافزت بعيداً وجلبت لكلارا باقات من الأعشاب العطرة، ووضعتها في حضن كلارا. وعادت بعد قليل مع الماعز النطاط الأبيض.

"والآن لن تكوني وحيدة،" قالت هايدي. ولما طمأنتها كلارا بأنها ستشعر بالسعادة لو تركت وحيدة مع الماعز بدأت هايدي رحلتها. وهكذا راحت كلارا تطعم الورقة بعد الأخرى للماعز الصغير. وكانت الماعز الصغيرة قد أطمأنت للفتاة أكثر وأكثر وصارت تقترب منها. وأكلت كل الأعشاب التي بيد الفتاة. لقد كان من السهل رؤية كم هو جميل بأن تكون بعيدة عن الماعز الكبير الذي يكون مصدر إزعاج لها دائماً. شعرت كلارا بالرضا بتلك التجربة التي لم تعهدها من قبل. وأحبت كلارا أن تجلس هناك على حافة الجبل وتلك الماعز المطيعة إلى جنبها. ونمت رغبة جامحة في صدرها في تلك الساعة. ورغبت في أن تدبر أمرها بنفسها وتساعد الآخرين بدلاً من أن تكون هي التي يساعدها الآخرين. ومرت على بالها وتزاحمت الكثير من الأفكار والخطط. كيف لها أن تعيش هنا في هذا الطقس المشمس باستمرار؟ فقد بدا لها العالم فجأة مليء بالفرح ورائع. وجعل هاجسها في عيش المستقبل غير الوارد في أحلامها قلبها ينبض بشدة. وفجأة رمت بكلتا يديها على الماعز الصغير وقالت:

"أوه أيها الصغير النطاط الأبيض، كم يبدو العالم جميلاً هنا في الأعالي! ليتني أبقى هنا أبداً!"

وصلت هايدي في تلك اللحظة موقعها المفضل، حيث كما توقعت، كانت الأرض كلها مغطاة بزهور الصخور الوردية. بينما كانت أزهار البنفسج وهي بقرب بعضها باقات، تراقص النسيم البارد الجميل. ولكن العطر الذي ملأ المكان كان منبعث من المنتصف من تلك الزهور البنية التي تخفي تيجانها بين أوراق الزهور الذهبية. وقفت هايدي مشدوهة بالكامل، ويجذبها العطر المنتشر في كل مكان.

ثم فجأة استدارت ورجعت إلى كلارا وهي تنادي عليها من بعيد:

"أوه، يا كلارا، عليكِ أن تأتين معي، المكان جميل جداً هناك. وفي المساء سيكون جميلاً أكثر بأي حال. هل تعتقدين بأني قادرة على حملكِ؟"

"ولكن يا هايدي،" قالت كلارا، "بالطبع لا يمكنكِ ذلك، فأنتِ اصغر مني بكثير. أوه، أتمنى إني قادرة على السير!"

تأملت هايدي لبرهة. لا زال بطرس مستلقياً على الأرض. لقد كان ينظر من هذا المكان لساعات مضت، وهو عاجز عن التصديق بما يراه أمامه. فقد حطم الكرسي الدوار للتخلص من الغريبة، وها هي مرة أخرى، تجلس تماماً لصق رفيقته في اللعب.

نادته هايدي في هذه اللحظة لينزل إليهم، وكرداً عليهم عبس قائلا:

"ليس علي ذلك!"

"ولكن عليك أن تأتي، فأني اقصد أن تساعدني بسرعة!" حثته الفتاة.

"أنتِ لا تريدين ذلك." هكذا جاء رده.

أسرعت هايدي إلى الجبل الآن وصاحت بغضب على الفتى:

"يا بطرس، لو لم تأتي في هذه اللحظة، سأفعل ما لا يرضيك."

اخافت تلك الكلمات بطرس، حيث كان يشعر بتأنيب ضمير. فقد استرجع في هذه اللحظة كل سيئاته، حيث كانت هايدي تتحدث وكأنها تعلم كل شيء. فماذا لو سمع العم عن ذلك؟ ارتعش خوفاً وأطاعها بطرس في النهاية.

"أتي فقط لو وعدتني بأن لا تفعلِ ما هددتني به." ألح الفتى.

"كلا، كلا، سوف لن أفعل. لا تخف." قالت هايدي بتعاطف. "فقط تعال إلينا. انه ليس بالأمر الصعب."

وما أن اقترب بطرس من كلارا، أُخبر أن يساعد هايدي في رفع الفتاة المعاقة من الأرض من أحد جوانبها، بينما تقوم هايدي بالمساعدة من الجانب الأخر. وكان هذا الأمر

بسيط وسار وفق ما يرام، ولكن سرعان ما تبعت المشاكل. فكلارا لم تكن قادرة على الوقوف لوحدها. فكيف لهما أن يسيرا أبعد؟

"عليك أن تحملني حول رقبتك،" قالت هايدي وهي ترى ضعف الخطوات التي أنجزوها.

كان عليهم أن يروا بطرس كيف يفعل ذلك خصوصا وانه لم يمد يده إلى احد في حياته كلها قبل أن يقوم باي مجهود. كان على كلارا أن تقدم قدمها إلى الأمام غير إنها لم تشجع.

"اضغطي بقدمكِ على الأرض بقوة وأني متأكدة من أن الأمر قد يؤذيكِ قليلاً." اقترحت عليها هايدي.

"هل تعتقدين هذا؟" قالت كلارا بخوف.

ولكنها جازفت مطيعة أوامر هايدي بتقديم خطوة ثم تلتها أخرى، وكانت تطلق صرخة ألم كلما تقدمت.

"أوه، لقد آذاني قليلاً فعلاً." قالت بمتعة.

"حاولي ثانيةً،" حثتها هايدي.

وفعلت كلارا هذا، وتقدمت خطوة بأثر خطوة، وأخرى. وفجأة صاحت.

"أوه، يا هايدي أنظري، يمكنني أن افعلها. أوه، يمكنني ذلك فعلاً. فقط أنظري! يمكنني أن أخطو خطوة أثر خطوة."

قالت هايدي بنشوة. "أوه، يا كلارا، هل يمكنكِ فعلاً؟ هل يمكنكِ السير؟ الآن أنتِ صرت قادرة على السير، يا كلارا، يمكنكِ المشي." وواصلت تلك العبارات بفرح غامر.

كانت كلارا تمسك بالطفلين بقوة، غير إنها بعد بضع خطوات كانت تسير بثبات.

"والآن يمكنكِ أن تأتين إلى الأعلى هنا كل يوم،" صاحت هايدي. "والآن يمكننا أن نسير سوية أينما رغبنا ولا نضطر إلى دفعكِ بالكرسي الدوار إلى أي مكان. والآن يمكنكِ أن تسيرِ ما تبقى من حياتكِ. أوه، يا للفرح!"

وها قد تحققت أعظم أماني كلارا أخيرا بأن تسير مع الناس الآخرين. ولم تكن المسافة إلى حقل الزهور بعيد جداً. وسرعان ما بلغوا الحقل وجلسوا بين خزانة العطور. تلك هي المرة الأولى في حياة كلارا التي ترتاح فيها فوق الأرض الجافة والدافئة. وكانت الزهور توماً بحضورهم وهي تنثر عليهم عطرها. لقد كان منظراً للجمال المثالي.

وكان صعب على الطفلتين احتضان هذه السعادة التي وقعت عليهما فجأة. فقد ملأت السعادة قلبيهما وأكلت لسانهما. وكان بطرس أيضا يرقد على ظهره بلا حراك، والسبب انه غط في النوم.

وهكذا طارت الساعات، وكان العصر قد حل منذ ساعات. وفجأة وصلت كل الماعز، حيث كانت الحيوانات تبحث عن الأطفال. كما إنها لا تحب أن ترعى في حقل الزهور وكانت الماعز سعيدة لما أيقظت بطرس بصوتها المرتفع. كانت دهشة الفتى كبيرة، حيث حلم بأن الكرسي الدوار مع القماش الأحمر الذي كان يغطيه قد عاد واقفاً أمامه. وما أن استيقظ حتى شعر بأنه يرى فعلا مسامير الكرسي الذهبية، غير إنه سرعان ما أكتشف إنها في الحقيقة لم تكن سوى الزهور. تذكر الفتى سيئاته وقام بأتباع تعليمات هايدي حرفياً بملأ إرادته.

لما عادوا إلى مكانهم القديم، لم تضيع هايدي أي لحظة وقامت بإعداد العشاء. كانت الحقيبة اليوم مملوءة على أخرها. وأسرعت هايدي لتنفيذ وعدها مع بطرس، والذي كانت نيته سيئة ففهم تهديدات هايدي بغير حقيقتها. كومت هايدي ثلاث مجاميع من الغداء الطيب. ولما تناولت كلارا طعامها، كان ما تبقى للفتى حصة لا باس بها. لقد كان من السيئ أن كل هذه المعاملة الحسنة لم ترضيه كالمعتاد، حيث وقف في بلعومه شيئا ما.

وبعد عشائهما المتأخر كان الجد يتسلق جبال الألب. هرعت هايدي لملاقاته. وأخبرته وهي مرتبكة كل ما جرى معها من حدث عظيم. وأشرق وجه العجوز لسماعه تلك الأنباء السعيدة. وتوجه نحو كلارا وقال لها:

"ها لقد خاطرتِ بهذا؟! لد نجحنا الآن."

حملها ووضع أحدى يديه على خصرها ووضع الثانية ممدودة إلى الأعلى لإسنادها، وبمساعدته تلك سارت كلارا مسافة جيدة وبثبات أكثر من ذي قبل. كانت هايدي تتقافز وترقص حولهما بفرح غامر قربهما. وسط كل تلك الأمور المدهشة لم يفقد الجد حكمه، وقبل المسيرة مسافة أطول، رفع كلارا على يده ليحملها على طول الطريق إلى المنزل. وقد علم أيضا بأن الجهد المضني والمتواصل قد يكون خطيراً، والراحة ضرورية لفتاة متعبة.

وصل بطرس إلى القرية متأخراً ذلك اليوم، وشاهد حشد متجمهر يتجادل. وكانوا جميعاً مجتمعين حول أمراً يبدو مهما، وكان كل واحداً منهم يتصارع لنيل الفرصة ليطلع ويقترب. ولم يكن هذا الشيء سوى الكرسي.

"لقد رأيته عندما حمله الناس،" سمع بطرس الخباز يقول هذا. "أراهن أن الكرسي ثمنه لا يقل عن خمسمائة دينار. كان علي أن أرى كيف حدث هذا."

"لا بد أن الريح جعلته يتهاوى من الأعلى،" قالت باربرة، والتي كانت تشهد غطاء الكرسي القرمزي وفاهها مفتوح. "لقد قال العم هذا بنفسه."

"من الجيد أن لا يكون أحداً ما غير الريح قد فعلها،" واصل الخباز كلامه. "فلو سمع الرجل النبيل من فرانكفورت بالأمر، لعرف طبعاً كل شيء عن الموضوع. وعندها سأشفق على المجرم. الحمد لله إني لم اصعد إلى الألب كثيراً، وإلا لكانوا يشكون بي. كما هي الحالة مع أي شخص صادف أن كان فوق في ذلك الوقت."

وهكذا توالت الآراء غير أن بطرس اكتفى بما سمع. فانساب بهدوء ورجع إلى منزله. فماذا لو اكتشفوا بأنه الفاعل؟ فقد يحضر الشرطي في أي لحظة ويقوده إلى السجن. وقف شعر رأس بطرس إلى نهايته، وسط تلك الفكرة المخيفة.

وكان مشغول بمتاعبه لما رجع إلى منزله حتى انه لم يجيب على أي سؤال ورفض أن يتناول وجبته من طبق البطاطس. وأسرع زاحفا نحو فراشه وراح يئن.

"إني متأكدة بأن بطرس أكل الحماض مرة أخرى. وهذا الذي يجعله يئن هكذا." قالت أمه.

"عليكِ أن تعطيه خبزاً أكثر بقليل من المعتاد في الصباح، يا بريجيدا. خذي قطعتي." قالت الجدة بتعاطف.

قالت هايدي منوهة عندما كانت هايدي وكلارا راقدتان على فراشهما في تلك الليلة وهن ينظرن إلى السماء المشرقة:

"هل تعتقدين بأن اليوم، يا كلارا، حسن الطالع حيث أن الله لا يعطينا دوماً ما ندعوه ونطلبه منه، حيث أن الله يعلم عن الأشياء أفضلها؟"

"ما هو قصدكِ يا هايدي؟" سألتها كلارا.

"أترين يا كلارا، لما كنتُ في فرانكفورت، صليت إلى الله ودعوته أن أعود إلى دياري مرة أخرى، ولما عجزت عن ذلك، اعتقدت بأن الله نساني. ولكن لو كنت قد رجعت إلى دياري بسرعة، فسوف لن تكونين أنتِ هنا، ولا أن تكونين قد شفيتِ أيضاً."

وصارت كلارا تفكر في الأمر، ثم قالت:

"ولكن يا هايدي، عندها سوف لن نصلي لأي شيء، لأننا سنعرف عندها أن الله يعرف عن كل الأشياء أفضلها."

"ولكن يا كلارا، علينا أن نصلي إلى الله كل يوم، حتى نبين إننا لن ننسى عطاياه لنا. فقد أخبرتني الجدة بأن الله ينسى الناس فقط لو نسوه. ولكن لو بقيت بعضاً من أمانينا غير منفذة، علينا أن نبين بعضاً من الثقة بالله، فهو يعلم لنا الأفضل."



"كيف لكِ أن تفكري في كل هذا؟" سألتها كلارا.

"لقد أخبرتني الجدة، ولكني اعرف أن الأمر كذلك. علينا أن نحمد الله اليوم لأنه جعلكِ تسيرين يا كلارا."

"يسرني أنكِ ذكرتني بهذا، يا هايدي، حيث أني نسيت تماماً من شدة الدهشة."

وصلت الفتاتين وحمدتا الله على شفاء المرض.

وفي صباح اليوم التالي كُتبت رسالة إلى الجدة تدعوها إلى زيارة الألب خلال هذا الأسبوع، حيث خطط الأطفال لإعداد مفاجئة لها. وأملت كلارا أنها ستكون قادرة على السير لوحدها خلال هذه الفترة مع توجيه من هايدي.

وتتابعت الأيام السعيدة لكلارا. وفي كل صباح كانت كلارا تستيقظ وقلبها يغني أكثر وأكثر:

"أني الآن بخير! أني الآن أفضل! اشعر وكأنني مثل الناس الآخرين!"

وتقدمت في علاجها، وكانت تسير إلى مسافات أطول كل يوم. كانت شهيتها للطعام تزداد يوماً بعد أخر بصورة مذهلة، وكان على الجد أن يعطيها شرائح أكبر من الخبز والزبد والتي وسط دهشة الجد تختفي بسرعة. وكان عليه أن يملأ أوعية الحليب واحدة بعد الأخرى للطفلتين الجائعتين. وبهذه الطريقة وصلنا إلى نهاية الأسبوع، وهو موعد وصول الجدة.

الفصل الثالث والعشرين
لقاء بعد الفراق

أرسلت الجدة رسالة قبل يوم من وصولها تُعلم الجميع بموعد القدوم. أوصلها بطرس في صباح اليوم التالي. كان الجد قد وقف فعلاً أمام الكوخ مع الطفلتين وماعزه المرح. كان وجهه يبدو عليه الفخر، في الوقت الذي كان يتأمل فيه وجوه الفتاتين الوردية وكذلك بريق وبر معزتيه.

تقدم بطرس واقترب من العم ببطء. وما أن أوصل الرسالة، حتى انسحب إلى الخلف بخجل، وكان ينظر حوله من شدة خوفه. وبقفزة طار مغادراً.

"أتسائل لماذا يتصرف بطرس كالتركي الكبير لما يشعر بالخوف من العصا،" قالت هايدي وهي تراقب تصرفه الغريب.

"ربما يخشى بطرس العصا التي يستحق،" قال الرجل العجوز.

وكان بطرس طوال طريقه يتعذب من الخوف. فهو عاجز عن التوقف عن التفكير بالشرطي القادم من فرانكفورت ليلقي به في السجن.

لقد كانت هايدي منهمكة في شغلها هذا الصباح، وقد وضعت الكوخ في هيئة مستعدة لاستقبال الضيفة المتوقعة. ومضى الوقت بسرعة، وسرعان ما صار كل فرد في الكوخ مستعداً للترحيب بالجدة العجوز.

عاد الجد أيضا من جولة على الأقدام، والتي جمع من خلالها باقة عجيبة من نبات الجنطيان الأزرق. وتعجبت الطفلتان اللتان كانتا جالستين على المصطبة لما رأين الباقة العجيبة من الزهور.

كانت هايدي تتجسس على الطريق الجبلي كي تراقب وصول الجدة، حتى رأتها وهي تركب حصاناً ابيض يرافقها رجلين. حمل أحدهما كومة من الأغطية حيث أن السيدة العجوز غير قادرة على تنفيذ هذه الزيارة بدونها.

وبدأت الرفقة تقترب وتقترب أكثر، وبلغت أخيرا القمة.

"ماذا أرى؟ يا كلارا، ما هذا؟ لماذا لا تجلسين على كرسيكِ؟ كيف يكون هذا ممكن؟" صاحت السيدة العجوز محذرة، وهي تنزل من على الحصان بسرعة. وقبل أن تصل إلى الطفلتين رمت بذراعيها إلى الأعلى بدهشة:

"يا كلارا، هل هذه أنتِ فعلاً؟ أنت وجنتاكِ حمراوين وسمينتان! أعجز عن معرفتكِ!" قالت العجوز وهي تندفع نحو الفتاة الكبرى، حتى انزلقت هايدي من على المصطبة وكلارا

تأخذ بيدها وأخذت تقوم بسير لمسافة قريبة. تجمدت السيدة العجوز في مكانها خوفاً. ما كان هذا؟ سارت كلارا باستقامة وثبات، قرب صديقتها. ولما عادا إلى مكانهما كانت خدودهما قد أصبحت وردية ومشرقة. اندفعت الجدة نحو الأطفال وعانقتهما مرات ومرات.

ونظرت على المصطبة وتمسكت بالجد والذي كان مكتفياً بالابتسامة. وأخذت يد كلارا إليها ومشت إليه، وهي تعبر عن سعادتها باستمرار. ولما بلغت الرجل العجوز أخذت كلتا يديه بيدها وقالت له:

" يا عمي العزيز! كيف لنا أن نشكرك؟ أن هذا هو ما أنجزته أنت. رعايتك وتمريضك"

"ولكن السبب هو شروق الشمس بأمر الله وهواء الجبال الساتر بأمر الله." قاطعها الرجل العجوز مبتسماً.

ثم نادت كلارا:

"نعم، ولشفائلي الفضل أيضا. هل ترى كم اشرب الآن من حليب الماعز، أوه، انه رائع ومفيد!"

"بالفعل، إني أرى ذلك من خلال الحمرة في خدودكِ،" قالت الجدة. وهي تبتسم.

"كلا، بصعوبة بالغة يمكنني أن أميز ملامحكِ الآن. أصبحتِ بدينة ومعافاة! لم أكن... أكن أحلم يوماً في حياتي أن تصبحين بهذه البدانة وهذا الطول! أوه، يا كلارا، هل هذا حقيقي؟ لا يمكنني أن انظر إليك بما فيه الكفاية. ولكن علي أولا أن ابعث ببرقية إلى أبيكِ ليأتي. سوف لن أخبره أي شيء عنكِ، حيث ستصبح هذه المفاجئة هي كبرى سعادته وبهجته التي يرغب بها طوال حياته. يا عمي العزيز، كيف سوف ندبر الأمر؟ هل صرفت الرجلين؟"

"نعم، غير إني يمكنني أن أرسل بسهولة الراعي."

وعليه، قررا أن يجعلوا بطرس هو من يحمل الرسالة. فصفر العم بالحال بأعلى ما يمكنه حتى أن الصوت رجع صداه في كل مكان. وصل بطرس بسرعة خائفاً، حيث أعتقد أن موعد حسابه قد حل.غير انه أستلم ورقة فقط والتي يجب أن يحملها إلى مكتب البريد في القرية.

ارتاح لفترة، فأنطلق. وجلس في هذه اللحظة كل الأصدقاء حول الطاولة، وأخبروا الجدة كيف حصلت المعجزة. وكان الحديث كثيراً ما تقطعه عبارات التعجب التي تطلقها الجدة من أثر المفاجئة، والتي كانت تعتقد إلى الآن انه حلم. فكيف يمكن أن تكون هي نفسها كلارا البالية والضعيفة؟ كان الأطفال بحالة سعادة وفورة كي يروا كيف يسري مفعول المفاجئة.

في هذه الإثناء، وبينما انتهى السيد سمسم من عمله في باريس، حاول أن يقوم هو بدوره بمفاجئة. فقد غادر إلى راغاتس بدون أن يخبر أحد انه خرج في صباح يوم مشمس. وصل في نفس اليوم، بعد ساعات من مغادرة أمه، والآن، أخذ العربة وتوجه إلى مايتفيلد.

كان الصعود إلى الألب من هناك يبدو بالنسبة له أمراً مرهقاً. فمتى سيصل إلى كوخ راعي الماعز؟ فهناك الكثير الكثير من الطرق الوعرة الصغيرة المتفرعة بعدد من الاتجاهات، وأحياناً يشك السيد سمسم فيما لو كان قد سلك الطريق الصائب. غير انه لم يكن هناك بشراً، ولا يمكن له أن يسمع حتى صوت عدا هبوب الريح وحشرجة الحشرات. كما انه سمع صوت عصفور يغرد فوق شجرة صنوبرية ولا شيء سواه.

وقف السيد سمسم في مكانه لا يحرك ساكناً رأى فتى يجري بكل سرعته أسفل التل. نادى السيد سمسم عليه، غير انه لم يفلح، حيث أن الفتى كان على مسافة لا يسمعه منها.

"الآن، يا بني، هلا أخبرتني لو كنت في الطريق الصحيح إلى الكوخ الذي تعيش فيه هايدي والناس القادمين من فرانكفورت؟"

كان صرخة رعب كل ما أجاب به. فقد صمت بطرس وهرب إلى أسفل سفح الجبل. استدار متشقلباً بصورة خطرة على طول الطريق. لقد شابه بهذه الطريقة عدوه قبل أيام قليلة ماضية.

"يا له من مرح، ساكن جبل خجول!" نوه السيد سمسم مع نفسه، معتقداً أن ظهوره كان السبب في قلق ابن جبال الألب. شاهد السيد سمسم طريق الفتى النازل عن الجبل برهة ثم واصل طريقه.

وعلى الرغم من جهد بطرس المضني، غير انه عجز عن إيقاف نفسه، واستمر في التدحرج. غير أن رعبه تفوق على ما جرى له من صدمات وخبطات. لقد كان هذا الرجل الشرطي وهذه حقيقة مؤكدة! في النهاية، بعد أن ارتمى على شجيرة صغيرة، استطاع أن يقف أخيراً ولكن بصورة سيئة جداً.

"جيد، ها هو شيء أخر!" قال صوت قريب من بطرس. "أتمنى أن أعرف من سيرمى في الغد، أنه يبدو ككيس بطاطس نصف مفتوح."

كان الخباز يسخر منه. فبعد يوم عصيب في العمل وقف الخباز يشاهد بهدوء ذلك الفتى.

استعاد بطرس قدميه وانسل بخفة بعيداً. كيف للخباز أن يعلم أن الكرسي قد دُفع؟ اشتاق بطرس أن يذهب إلى منزله ويختفي وهناك فقط عندما يكون وحيداً سيشعر بالأمان. ولكن عليه أولاً أن يذهب إلى ماعزه، كما أن العم أخبره بأن يعود بأسرع وقت ممكن. صعد

بطرس وهو عابس الجبل وساقه تعرج. كيف له الآن أن يهرب وسط مخاوفه، وهاتين القدمين المكسورتين؟

وصل السيد سمسم الكوخ مباشرة بعد لقاءه بطرس، وشعر بالاطمئنان. تسلق أكثر واستجمع شجاعته، ورأى أخيراً الماعز أمامه ولكن ليس بعد جهد مضني وطويل. شاهد الكوخ الجبلي فوقه، ورأى أشجار التنوب. أسرع السيد سمسم لمواجهة ابنته المحبوبة.فقد شاهدوه منذ فترة طويلة من داخل الكوخ. وتم تحضير الوضع له وسوف لن يشك بالأمر.

وبينما كان يقوم بأخر خطواته، شاهد ظلان غريبان يتقدمان نحوه. فتاة طويلة، بشعر خفيف ووجه وردي، وكانت تتكئ على هايدي، والتي كانت عيناها البنيتان تلمعان من الفرحة الغامرة. توقف السيد سمسم لبرهة، وشاهد المنظر. وفجأة انفجرت الدموع من عيناه، حيث كان المشهد الذي أمامه قد أعاد الذكريات الحلوة. فقد كانت والدة كلارا تبدو تماماً كهذه الفتاة الجميلة. ولم يعرف السيد سمسم حتى هذه اللحظة فيما لو كان يحلم أو هذه حقيقة.

"أبي، إلا تعرفني حتى الآن؟" نادت كلارا بعيون براقة. "هل تغيرت كثيراً؟"

جرى السيد سمسم إليها على الفور:

"نعم، لقد تغيرتِ. كيف كان هذا ممكناً؟ هل هذه حقيقة؟ هل هذه أنتِ فعلاً، يا كلارا؟" سألها الأب المغمور بالسعادة. وحضنها مرات ومرات ثم نظر إليها، حيث كانت واقفة بطولها وبثبات إلى جنبه.

التحقت بهم أمه الآن، حيث كانت ترغب أن ترى السعادة بعينا أبنها.

"ماذا قلت في هذا، يا بني؟ إلا تعتبر مفاجئتنا لك أقوى من مفاجئتك لنا؟" حيته. "ولكن تعال الآن لنشكر الرجل الذي أحسن إلينا، - أقصد العم."

"نعم، بالفعل، علي أن احيي الفتاة هايدي الصغيرة أيضا،" قالها الرجل النبيل وهو يصافح يد هايدي. "حسناً؟ دائما حيوية وسعيدة عند الجبال؟ أعتقد بأني لا أحتاج أن أسأل، حيث لا تبدي أي زهرة في جبال الألب أكثر نضارة منكِ. آه، أيتها الطفلة، كم يجلب لي هذا الأمر السعادة!"

نظرت الفتاة هايدي بعينين براقتان إلى الرجل النبيل الذي طالما فضل عليها. ودق قلبها بفرح وبهجة. وبينما كان الرجلان اللذان التقيا أخيرا يتبادلان الحديث سوية، كانت الجدة قد توجهت إلى البستان. وهناك، كانت تشمخ أشجار التنوب، وكانت مفاجئة ألأخرى بانتظارها. فقد التقت بباقة من البنفسج تقف شامخة كما لو كانت تنمو هناك.

"يا للجمال! كم هو رائع! يا له من منظر!" قالت العجوز بتعجب، وهي تصفق بيديها. "تعالي يا هايدي،! هل جلبتي هذه الزهور لي؟ أوه، كم هي رائعة!"



التحقت الطفلتين بالعجوز، وأكدت هايدي لها بأنها عرفان من شخص آخر.

"أوه، يا جدتي، في المراعي الخضراء في الأعلى كل شيء يبدو هكذا،" نوهت كلارا. "فقط خمني من جلب لكِ كل تلك الزهور؟"

وفي تلك الإثناء سمع صوت حفيف، وشاهد الجميع بطرس، والذي كان يتسلل خلف الأشجار ليتجنب الكوخ. ونادت عليه السيدة العجوز بالحال، حيث اعتقدت للحظة أن بطرس هو نفسه الذي قطف لها الزهور، حيث كان يزحف مبتعداً بسبب خجله. هكذا حللت السيدة العجوز الطيبة. ولأجل مكافئته، نادت عليه:

"تعال أيها الفتى! لا تخف."

تجمد بطرس من الخوف، وبقي واقفاً. فما حدث في السابق سلبه كل شجاعته. فأعتقد في هذه اللحظة أن كل شيء قارب على النهاية. وقف شعر رأسه وشحب وجه من هول الكرب الذي حل به، وتقدم.

"تعال إلي مباشرة أيها الفتى،" شجعته المرأة العجوز. "الآن أخبرني، يا فتى، هل فعلت أنت هذا؟"

وسط قلقه، لم يرى بطرس الجدة وهي تؤشر على الزهور. فقط شاهد الجد وهو يقف ساكنا أمام الكوخ. وينظر إليه بنظرات ثاقبة. ووقف إلى جانبه الشرطي، وهذا يعتبر بالنسبة إليه الرعب الأعظم في العالم. كانت قدماه ترعشان من الأعلى إلى الأسفل، وأجاب:

"نعم!"

"حسناً، ولكن لماذا أنت خائف هكذا؟"

"بسبب – بسبب انه انكسر ولا يمكن إصلاحه أبداً،" قال بطرس وركبتاه ترتعشان.

سارت الجدة نحو الكوخ في هذه اللحظة.

"أيها العم العزيز،" سألته بلطف. "هل فقد هذا الفتى المسكين عقله؟"

"كلا أبداً،" كان هذا جوابه. "فقط كان الفتى الريح التي أطاحت بالكرسي الدوار. وكان يتوقع المعاقبة التي يستحقها."

كانت الجدة متفاجئة، حيث أقسمت أن بطرس لا يبدو عليه أنه فتى شرير. فلماذا دمر الفتى الكرسي؟ أخبرها العم انه لاحظ الكثير من نظرات الغضب على محيا الفتى منذ أن حلت كلارا ضيفا على جبال الألب. وطمأنها بانه شك في الفتى منذ البداية.

"يا عمي العزيز،" قالت العجوز برقة، "لا يجب علينا أن نعاقبه أبداً. علينا أن نكون عادلين. فقد كان من الصعب عليه تحمل سلب كلارا لهايدي منه، والتي كانت بالنسبة إليه

الكنز الدفين. حيث كان عليه أن يجلس وحيداً يوماً بعد يوم، وحرك الأمر عواطفه، والتي قادته إلى هذا الفعل الشائن. كان الفعل طائش، ولكن كلنا نفعل هذا لو غضبنا."

سارت العجوز إلى الفتى مرة أخرى، والذي لا زال يرتعش من الخوف.

جلست على المصطبة وبدأت بالحديث:

"تعال يا بطرس، سوف أخبرك بشيء. توقف عن الارتعاش وأصغي. لقد دفعت الكرسي إلى الهاوية، لكي تدمره. وكنت تعرف أن الأمر شائن ويستحق العقاب. وحاولت مرات كثيرة أن تهرب منه، أليس كذلك؟ ولكن لو اعتقد أحد أنه لن يعرف أي أحد آخر من قام بالفعل الشائن، فهو مخطأ. حيث أن الله العليم. وحالما يعرف أن أحداً ما يحاول التهرب من سيئة فعلها، يقوم بإيقاظ الضمير الذي في داخله، والذي يبدأ بالحفر في أعماق القلب بشوكة حتى يفقد القلب طعم الراحة. ويبقى الله ينادي على المسيء: "والآن سوف ينكشف أمرك! والآن عقابك بات وشيكاً! – وتطير فرحته، حيث يأخذ الخوف والرعب مكانه الفرح والبهجة. فهل مرت بك هذه الأشياء فعلاً يا بطرس؟"

أومأ بطرس، بكل ندم. فقد مر بكل تلك المشاعر.

"لقد أخطأت،" واصلت الجدة. "بعد أن اعتقدت بأنك قادر على إيذاء كلارا، لو دمرت كرسيها فقط. وشاءت الصدف بأن يكون ما فعلته مفيدا جدا لها. فهي لم تفكر بالمحاولة في السير، لو كان الكرسي موجود. فلو كان عليها البقاء هنا، فهي ستذهب إلى المراعي الخضراء كل يوم. إلا ترى يا بطرس؟ يمكن لله أن يحول الأعمال القبيحة إلى أعمال خير للشخص الذي جرح، ويأتي بالمتاعب إلى الفاعل. هل فهمتني يا بطرس؟ تذكر الرقيب الصغير في داخلك كلما نويت أن تفعل عملا قبيحاً من جديد. هل ستفعل هذا؟"

"بلا، سأفعل،" أجاب بطرس، ولا زال خائفا من الشرطي، والذي لم يغادر بعد.

" والآن، حللنا هذه المسالة بالكامل،" قالت العجوز خاتمة كلامها. "الآن أخبرني لو كانت لديك أي أمنية، يا فتى، حيث إني ناوية على إعطائك شيئاً ما تذكرك بأصدقائك من فرانكفورت. ما هو؟ ماذا تريد أن أعطيك؟"

رفع بطرس رأسه، ونظر إلى الجدة بعيون دائرية مليئة بالدهشة. فقد كان متفاجئاً بهذا التغير المفاجئ.

حثته العجوز ثانية على قول أمنيته، أكتشف في النهاية أنه أنقذ من براثن هذا الشرطي المريع. وشعر كما لو أن الحمل الذي أثقل كاهله قد تهاوى. وعلم أن عليه أن يعترف بالحال، لو فعل شيئا خطأ، لذا قال:

"كما إني أضعت الرسالة."

فكرت الجدة برهة، ثم فهمت وقالت:

"هذا صحيح. اعرف دائماً عندما تفعل الخطأ. وعندها يمكن حسم الأمر. والآن، ماذا تريد؟"

وهكذا يمكن لبطرس الآن أن يتمنى أي شيء في الدنيا. وضربت دماغه نوبة من الأعاصير. وشاهد أمام عينيه كل تلك الأشياء الجميلة التي عرضت في معرضماينفيلد. فلطالما وقف هناك لساعات، وهو يراقب تلك الصفارات الحمراء الجميلة والسكاكين الصغيرة، ولسوء الحظ لم يكن بطرس يملك من المال إلا نصف قيمة تلك الأشياء.

وقف يفكر، ولم يقدر على القرار، حتى ضربت عقله فكرة ممتازة.

"عشرة فلوس،" قالت بطرس أخيراً قراره.

"هذا بكل تأكيد ليس بالكثير،" قالت الجدة وهي تبتسم. وأخرجت من جيبها كيسا كبيرا دائرية، وفي قمته تقبع عشرون فلسا. " والآن علي أن أوضح لك. ها قد حصلت على عشرة فلوس بقدر أسابيع السنة. وستكون قادرا على إنفاقها في كل يوم احد حتى ينتهي العام."

"طوال حياتي؟" سألها بطرس ببراءة بالغة.

بدأت الجدة تضحك من كل قلبها حتى أن الرجلان جاءا قربها وشاركاها الضحك.

وقالت وهي تضحك:

"عليك أن تأخذها يا بني؛ سوف أكتب في وصيتي ثم يمكنك بعدها أن تفعل الشيء نفسه، أصغي! بطرس الراعي سيحصل على عشرة فلوس أسبوعياً لما تبقى من حياته."

أومأ السيد سسم.

قال بطرس بوقار وهو يتمعن في ثروته:

"الحمد لله!" وتقافز وتراقص حول المكان، وهرب. وكان قلبه ينبض بالسعادة حتى تصور بأنه قادر على الطيران.

وبعد فترة وجيزة، جلست الرفقة جميعاً حول الطاولة وبدءوا يحتفلون. وبعد العشاء، قالت كلارا لأبيها وهي في اسعد حالاتها:

"أوه، يا أبي، فقط لو عرفت كل تلك الأشياء التي فعلها الجد لي. فقد تأخذ أيام عديدة لسردها. ولن أنسى كل تلك الأشياء ما حييت. أوه، فقط لو نستطيع أن نسعده بمقدار نصف ما فعله لي."

هذه أعظم ما أتمنى، أيضا يا طفلتي." قال الأب. "أني أحاول التفكير في شيء طوال الوقت. علينا أن نبين عرفاننا وردنا للجميل بأي طريقة."

وهكذا سار السيد سمسم إلى الرجل العجوز، وبدأ حديثه:

"يا صديقي العزيز، هلا أخبرتك كلمة واحدة. ربما تصدقني لو قلت لك إني لم أعرف طعم السعادة منذ سنين. فما قيمة ثروتي في حين عجزت عن شفاء ابنتي وإسعادها! بعون الله جعلتها تشفى. لقد منحتها حياة جديدة. أرجوك، اخبرني فقط كيف لي أن اعبر عن امتناني لك. اعرف أني اعجز عن فعل هذا ولكن ما وبوسعي سافعله. هل لديك أي طلب؟ أرجوك دعني أعرفه."

أصغى العم بهدوء ونظر إلى الأب السعيد.

"يا سيد سمسم، يمكنك أن تثق بأني قد استلمت حقوقي بالمتعة التي عشتها خلال شفاء كلارا،" قال العم بوقار. "أشكرك على عرضك السخي يا سيد سمسم. لدي وطفلتي الكثير طالما حييت. ولكن لدي أمنية واحدة فقط. فلو نفذت، ستكون حياتي خالية من الهم."

"أطلقها أيها الصديق الوفي،" حثه والد كلارا.

"أني عجوز،" واصل العم كلامه. "وسوف لن أعيش سنوات كثيرة،. فلو مت لا يمكنني أن أترك لهايدي أي ميراث. ليس للفتاة أي أقارب سوى شخص واحد، والتي تحاول أن تستغلها قدر ما تستطيع. فلو أعطيتني الاطمئنان يا سيد سمسم، بأن هايدي سوف لن تضطر إلى الذهاب إلى عالم تحتاج فيه إلى العمل لكسب قوتها، عندها سوف تدفع لي بسخاء بالغ ما كنت قد فعلته مع كلارا ولك."

" يا صديقي المخلص، لا ضرر مع ذلك،" بدأ السيد سمسم حديثه: "الطفلة تنتمي لنا! أني أعدك فوراً بأنا سوف نعتني بها كي لا تحتاج إلى العمل لكسب قوتها. فكلنا نعرف بأنها غير قادرة على العيش مع الغرباء. علاوة على إنها قد كسبت الكثير من الأصدقاء الحقيقيين، أخرهم قبل فترة قصيرة جدا. الطبيب كلاسين قد أكمل للتو أخر أعماله في فرانكفورت. وهو ناوي على نصيحتك في العيش هنا. فهو لم يشعر بسعادة بالغة كما شعر عندما زار هايدي وكان معكم. سوف يكون للطفلة حاميان وأمل أن شاء الله بأن يحفظهما طويلاً طويلاً جداً."

"ولتكن مشيئة الله!" أضافت الجدة، التي التحقت بهما مع هايدي وهي تصافح العم بحرارة. ووضعت يدها حول الفتاة. ثم قالت:

"يا هايدي، أريد أن اعرف لو كانت لديك أي أماني؟"

" بكل تأكيد لدي،" قالت هايدي بسرور.

"قولي لي أيتها الطفلة ما هي؟"

"أريد أن احصل على فراشي الذي كنت أنام عليه في فرانكفورت ذو الوسائد الثلاثة وذو الغطاء الدافئ السميك. عندها جدة بطرس سوف تبقى دافئة وليس عليها أن ترتدي الشال عند رقودها وتنام على وسادة نحيفة أوطأ من كعب قدميها والتي تجعلها غير قادرة على التنفس!"

قالت هايدي كل ذلك بنفس واحدة وكان متحمسة جداً.

"أوه أيتها العزيزة هايدي، لقد نسيت فعلاً ما علي فعله. يسرني أنكِ قد ذكرتني، يا هايدي. علي أن أرسل البرقية في الحال حول الفراش. ولو أرسلت الآنسة روتن ماير في الحال فسيكون هنا في غضون يومين. أمل من السيدة العجوز أن تنام جيدا عندما يصل.

وسط سعادة هايدي كانت متلهفة ولا تستطيع الانتظار حتى تخبر الجدة بتلك الأخبار السعيدة. وسرعان ما قرر الجميع على أن يزوروا الجدة سوية، والتي كانت قد تركت لوحدها منذ فترة طويلة. وقبل البدء، مع ذلك، كشف السيد سمسم عن خطته. فقد قرر أن يقوم برحلة حول سويسرا مع كلارا وأمه. وعليه أن يقضي الليلة في القرية، كي يتمكن من جلب كلارا من الجبل في الصباح التالي للرحلة. ومن هناك عليهم أولا الانطلاق إلى راغاتس.، ومن ثم الابتعاد. وعلى البرقية أن ترسل هذه الليلة.

كان شعور كلارا مقسم، حيث كان من الصعب عليها أن تغادر الألب، غير أن مقترح الرحلة يبعث إلى البهجة.

لما حسم الأمر، نزل الجميع، وكان العم يحمل كلارا، والتي لم يفضلوا المجازفة بسيرها لمسافة طويلة. وطال الطريق إلى الأسفل أخبرت هايدي الجدة كل شيء عن أصدقائها في الكوخ، البرد الذي عليهم تحمله في الشتاء والطعام القليل الذي لديهم.

كانت بريجيدا تنشر قميص بطرس التي غسلته للتو، لما وصل الجميع من الأعلى. هرعت إلى الداخل، ونادت على أمها:

"إنهم يرحلون جميعا. العم أيضا راحل وهو يحمل الطفلة المعاقة."

"أوه، هل هذا صحيح؟" قالت الجدة وهي تتحسر. "هل شاهدتي فيما لو كانوا يأخذون هايدي معهم. أوه، يا ليتها تعطيني يدها مرة أخرى! أوه، أني أتوق إلى سماع صوتها مرة واحدة فقط!"

وفي تلك اللحظة بالذات، اندفعت هايدي إلى الداخل وحضنتها بقوة.

"يا جدتي، فقط فكري. فراشي ذو الوسائد الثلاثة والبطانية السميكة قادمة من فرانكفورت. أن جدة كلارا قالت بأنها ستكون هنا في غضون يومان."

واعتقدت هايدي أن الجدة ستشاركها المتعة والبهجة غير أن الجدة العجوز ابتسمت بحزن وقالت:

"أوه، يا لها من سيدة صالحة! اعرف أن علي أن أكون سعيدة لأنها ستأخذكِ معها يا هايدي، إلا إني لا أعتقد بأني أحيا لفترة طويلة بعدها."

"ولكن لا احد قال هذا،" قالت جدة كلارا بلطف بعد أن سمعت بالصدفة أخر الكلمات. ضغطت الجدة على يد الجدة الضريرة وواصلت كلامها، " هذه بعيدة عن التساؤل. ستبقى هايدي هنا معكِ لتجعلكِ سعيدة. ولنرى هايدي مرة أخرى، علينا أن نأتي كل سنة إلى الجبل، حيث أن لدينا الكثير من الأسباب لشكر الله هنا."

وبالحال أشرق وجه الجدة الضريرة وانطلقت دموع الفرح من عينيها.

""أوه، يا لها من أشياء جميلة حققها الله لي!" قالت الجدة الضريرة، وقد مست مشاعرها. " كم انتم طيبون، وانتم تتعبون أنفسكم بسيدة مسكينة مثلي. فلا يوجد في هذه الدنيا كلها شيء يقوي الإيمان بالله إلا وجود الرحمة والطيبة في امرأة مسكينة لا حول لها و قوة، مثلي."

"يا جدتي العزيزة،" قالت السيدة سمسم، "أمام الله في الجنات، كلنا سواسية، تعساء ومساكين، وأسفاه علينا، لو نسينا أنفسنا! – ولكن علينا الآن أن نودعكِ، وفي العام المقبل علينا أن نزوركِ حالما نزور جبال الألب. سوف لن ننساكِ." وبهذه الكلمات صافحتها السيدة سمسم. ومرت فترة حتى سمح لها بالمغادرة، بسبب أن الجدة شكرتها مرات ومرات كثيرة واستلهمت كل مباركة السماء عليها وعلى عائلتها.

ونزلت السيدة سمسم مع ولدها، بينما حملت كلارا إلى الأعلى لتقضي ليلتها الأخيرة في الكوخ.

وفي صباح اليوم التالي، انهمرت دموع كلارا وهي تغادر المكان المحبوب لديها حيث كان السرور في قلبها هناك. ودعتها هايدي وهي تخطط للصيف القادم، والذي سيكون أسعد من هذا الصيف بكثير. وصل السيد سمسم، وتم تبادل بعضا من كلمات التوديع.

قالت كلارا فجأة وهي نصف تبكي :

"أرجوكِ أرسل حبي إلى بطرس وماعزه! وحبي شفانلي بالخصوص حيث أنها ساعدتني كثيراً في بناء صحتي. ماذا عساي أن أعطيها؟"

"يمكنكِ أن ترسلي لها الملح، يا كلارا. أنتي تعلمين كم هي شغوفة لتناول الملح." قالت هايدي وهي تقدم مشورتها.

"أوه، علي بكل تأكيد أن افعل ذلك،" قالت كلارا مؤكدة. "سوف أرسل المئات من أرطال الملح كتذكار مني لها."

وحان موعد المغادرة، وكانت كلارا قادرة على ركوب العربة لوحدها بفخر إلى جانب أبيها. لوحت هايدي وهي واقفة على سفح الجبل، وتابعت عينا هايدي الموكب حتى اختفيا عن الأنظار.

وصل الفراش. ونامت الجدة الضريرة بهناء كل يوم من تلك الليلة وصاعداً، حتى مر وقت قصير وصارت قوية أكثر من ذي قبل. ولم تنسى جدة كلارا شتاء الألب البارد فأرسلت لهذا السبب الكثير من البطانيات التي تبعث للدفء والاوشلة إلى كوخ الراعي. ويمكن للجدة الضريرة الآن أن تلف نفسها ولا يجب عليها أن تجلس في أحدى الزوايا وهي ترتعش.

وفي القرية، كان هناك بناء مستمر. فقد وصل الطبيب في الوقت الحاضر، في حيه القديم. وأخذ بنصيحة العم واشترى كل الأطلال التي أوت هايدي وجدها في الشتاء السابق. وأعاد بناء القسم الجميل الذي وصفناه سابقاً لنفسه. وتم تحضير القسم الأخر لهايدي وجدها. وعرف الطبيب أن الجد كان مستقلا ويحب أن يكون له مكانه الخاص الذي يسكن فيه. وطبعاً لم ينسى أحد شفانلي وبارلي، حيث سيقيمان في هذا الشتاء في إسطبل صلب وجيد البناء والذي تم بناءه مخصوص لهما.

وهكذا صار الطبيب والعم في الم أصدقاء مقربين أكثر يوما بعد يوم. ولما شاهدا تقدم البناء جاءا سوية ليتحدثا إلى هايدي. وتحدثا سوية وتطلعا سوية إلى الوقت الذي سيقدرون فيه على الانتقال إلى المنزل بكل ما يستطيعون يحملونه معهم. واتفقا على أن يتشاركا السعادة والمسؤولية التي جلبتها لهم هايدي. كان قلب الجد مليء بالعرفان العميق بكل ما أوتي من كلمات لما أخبره الطبيب بأنه يتكفل في تجهيز هايدي بكل ما تحتاجه. وهذا قد أصبح قلب الجد العجوز خالي من أي هموم في رعاية هايدي فلو مات كان عليه أن يجد الأب المثالي ليرعى هايدي بدلاً منه.

والآن وفي هذه اللحظة ولما وصلت قصتنا إلى النهاية، كان بطرس وهايدي يجلسان في كوخ الجدة الضريرة. وكان للفتاة الصغيرة الكثير من الأحاديث الجميلة لتتلوها وكان بطرس يحاول جاهداً أن لا يفوت أي حديث، حتى إنهم وسط حماسهم لم ينتبهوا إلى إنهم جالسين قرب كرسي الجدة السعيدة. فطوال فترة الصيف لم يلتقيا إلا نادراً، وحدثت الكثير من أشياء الجميلة الرائعة. وكانوا سعداء في أن يلتقوا من جديد، ويصعب علي أن أقول كيف

كانت سعادة تلك الرفقة. وكان وجه بريجيدا أشرق من كل فرد، فقط أخبرتها هايدي للتو قصة الفلوس العشرة الدائمة. وقالت الجدة الضريرة في النهاية:

"أرجوكِ يا هايدي، اقرئي لي نشيداً يتحدث عن الحمد والثناء لله. اشعر وكأن علي أن اشكر واحمد الله على النعم التي جلبها لنا!"